الطبيعة في الشعر الأندلسي

في ظل بني الأحمر

إعداد

نادية صالح راشد أبو عودة

المشرف

الدكتور حمدي منصور

قدمت هذه الأطروحة استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الدكتوراه في

اللغة العربية وآدابها

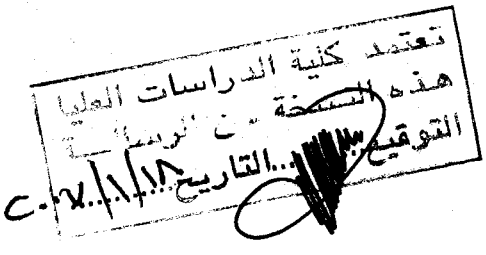

كلية الدراسات العليا

الجامعة الأردنية

(كانون الثاني ٢٠٠٧)

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

قرار لجنة المناقشة

****

نوقشت هذه الرسالة /الأطروحة (**الطبيعة في الشعر الأندلسي في ظل بني الأحمر**)

وأجيزت بتاريخ ٢٠٠٦/١٢/٢٨م٠

أعضاء لجنة المناقشة	التوقيع
ـ **الدكتور حمدي محمود منصور** ، مشرفا أستاذ مشارك في الأدب الجاهلي والأندلسي والمغربي	.....
ـ **الأستاذ الدكتورصلاح محمد جرار** ، عضوا أستاذ الأدب الأندلسي والمغربي ٠	.....
ـ **الدكتورعبد الكريم الحياري** ،عضوا أستاذ مشارك في البلاغة والنقد القديم٠	.....
ـ **الدكتورة آمنة البدوي** ، **عضوا** أستاذ مساعد في الأدب الأندلسي ٠	.....
ـــ **الدكتور فايز عبد النبي القيسي**،عضوا أستاذ مشارك في الأدب الأندلسي (جامعة مؤتة) ٠	.....

تعتمد كلية الدراسات العليا
هذه النسخة من الرسالة
التوقيع ..... التاريخ ٢٠٠٧/١/١٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الإهـــداء

****

إلى الغائب الحاضر ونشوة الخاطر...

" أبي "رحمه الله،

إلى أسمى معنى عرفته ، وأدفأ حضن زملت ضعفي فيه...

"أمي"

إلى رفيق الدرب، وراعي الحلم، ومهجة الفؤاد....

زوجي "أبوسيف"

إلى الدرتين ،،الأختين ،،الصديقتين،،

أختاي " رولا و رنين"

إلى رمز الصفاء والطهارة...

أخي"رمزي"

إلى شمعة عمري ...

أخي "جميل"

إلى رجل بألف رجل...

أخي "ماجد"

إلى فلذات كبدي (فرح ، سيف ، قصي ، ندى)، وأختي عائدة ، وإخوتي راشد وعائد وسائد وزوجاتهم واخص زوجة اخي جميل رانيا لما قاسته معي في سبيل طباعة الأطروحة وترتيبها على كثرة ما غيرت وبدلت ، وإلى كل من ساعدني على إنجاز هذا العمل في أحلك الظروف والصعاب،

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

شكر وتقــدير

الحمد والشكر لله رب العالمين فقد جعل مع العسر يسرا وتم الأمر بإذنه جل جلاله .

وأخص بالشكر والتقدير **الدكتور الفاضل حمدي محمود منصور** الذي اتسع صدره لـــي فأشرف على هذه الأطروحة ، وأحاطها بالرعاية والمتابعة الدقيقة، فكان الغائب عن ذهني فـــي هذه الأطروحة حاضرا عنده، يلفت نظري إلى مهم أغفلته، ويصوب كل خطأ أخطأتـــه، فضـــلا عن سماحة ودماثة لم تبرحا مجلسنا العلمي، فبارك الله له في عمره وعافيته وعطائه وأولاده.

كما أتقدم بالشكر الجزيل إلى مشاعل العلم والمعرفة، أساتذتي الأفاضل :**الأستاذ الدكتور صلاح محمد جرار، والدكتور فايز عبد النبي القيسي ، والـــدكتور عبـــد الكـــريم الحيـــاري، والدكتورة الفاضلة آمنة البدوي** ، على تكرمهم جميعا بالموافقة على المشاركة في مناقشة هـــذه الأطروحة التي احتاجت من رؤيتهم الأدبية والعلمية الشيء الكثير، فكل الشكرلهم ، وبـــارك الله في علمهم وعملهم.

وفي النهاية فإن الكثير من مشاعر الفضل والعرفان تعتريني تجاه كل من غمرني بروح التعاون التي ذللت الصعاب فجعلت الحلم حقيقة.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فهرس المحتويات

الموضوع	الصفحة
قرار لجنة المناقشة	ب
الإهداء.....	ج
الشكر والتقدير	د
فهرس المحتويات.....	هـ
الملخص باللغة العربية	ح
المقدمة.....	١ – ٣
التمهيد	٤ – ١٠
الفصل الأول	١١
أحوال مملكة غرناطة.....	١٢ – ٣٦
(١) الحياة الطبيعية.....	١٣ – ١٥
(٢) الحياة العمرانية.....	١٥ – ١٧
(٣) الحياة السياسية	١٧ – ٢٢
(٤) الحياة الاجتماعية.....	٢٣ – ٢٦
(٥) الحياة الأقتصادية.....	٢٧ – ٢٩
(٦) الحياةالفكرية والثقافية.....	٢٩ – ٣٦
الفصل الثاني	٣٧
الطبيعة الصامتة والصائتة.....	٣٧ – ٧١
(أ) الطبيعة الصامتة.....	٣٨ – ٥٥

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أولا : وصف الرياض والربيع	٣٨ – ٤٣
ثانيا : وصف الورود والأزهار	٤٣ – ٤٨
ثالثا : الثمريات	٤٨ – ٥١
رابعا : المائيات والثلجيات	٥١ – ٥٥
(ب) الطبيعة الصائتة	٥٦ – ٧١
أولا : وصف الحيوان	٥٦ – ٦٤
ثانيا : الطير.....	٦٤ – ٦٨
ثالثا : الحشرات.....	٦٨ – ٧١
الفصل الثالث	٧٢
الطبيعة في أغراض الشعر المختلفة.....	٧٢ – ١١٠
أولا : الطبيعة في الغزل	٧٣ – ٨٣
ثانيا : الطبيعة في المدح.....	٨٣ – ٩٤
ثالثا : الطبيعة في الرثاء	٩٥ – ١٠١
رابعا : الطبيعة في الجهاد	١٠٢ – ١١٠
الفصل الرابع	١١١
الخصائص الفنية لشعر الطبيعة في عصر بني الأحمر	١١١ – ١٦٦
أولا : اللغة والأسلوب.....	١١٢ – ١٤١
ثانيا : الصورة الفنية	١٤١ – ١٦٦
(أ) التصوير الحسي	١٤٢ – ١٤٥
(ب) التفاعل مع الطبيعة	١٤٥ – ١٤٨
(جـــ) التفصيل	١٤٩ – ١٥٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

(د) الاشارات الدينية ..... ١٥١ – ١٥٥

(هـ) التأثر بالمشارقة ..... ١٥٥ – ١٦٢

(و) الابتكار والتجديد ..... ١٦٣ – ١٦٦

خاتمة البحث..... ١٦٧ – ١٦٨

قائمة المصادر والمراجع..... ١٦٩ – ١٧٧

الملخص باللغةالانجليزية..... ١٧٨ –١٧٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الطبيعة في الشعر الأندلسي في ظل بني الاحمر

إعداد

نادية صالح راشد أبو عودة

المشرف

الدكتور حمدي محمود منصور

الملخص

قامت هذه الدراسة على تتبع الطبيعة في الشعر الأندلسي في ظل بني الأحمر وإبراز قدرته على الانسجام مع أغراض الشعر الأخرى ، كما عنيت بتجلية كل ما يرتبط به من خصائص وسمات أسلوبية وفنية ووقفت عند خصوصية لغة هذا الشعر ، وعند أهم سمات الابتكار والتجديد فيه .

وجاءت الدراسة في تميهد وأربعة فصول :

عني **التمهيد** بعرض أهم المراحل التي مر بها شعر الطبيعة ابتداءً من الشعر الجاهلي وانتهاء إلى الفترة المقصودة بالبحث ، كما تناول أهم التطورات الأسلوبية واللغوية التي طرأت عليه منذ بداياته حتى استوى فنا مستقلا بذاته .

وعرض **الفصل الأول** أهم الأحوال الطبيعية والسياسية والاجتماعية والعمرانية والفكرية والثقافية للأندلس في ظل بني الأحمر ، لما لهذه الأحوال من تأثيرات مباشرة وغير مباشرة على شعر الطبيعة في هذه الفترة .

وجاء **الفصل الثاني** لتنتظم فيه عناصر الطبيعة الصامتة والصائتة ممثلة في مقطعات ، وقصائد شعرية ، ومطولات ، كما اشتمل الفصل على تتبع هذه العناصر منفصلة عن بعضها بعضا، أو منسجمة متناغمة مع كل عناصر الطبيعة من حولها .

اما **الفصل الثالث** فقد تناول شعر الطبيعة معانقا أغراض الشعر الأخرى وأبرز دور عناصر الطبيعةفي إثراء كل من هذه الأغراض .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وخصص **الفصل الرابع** لدراسة البناء الفني والأساليب اللغوية التي استخدمها الشعراء الغرناطيون في شعر الطبيعة في ظل بني الأحمر، وقد توصلت الدراسة إلى نتائج من أهمها ما يلي:

- استمرارية شغف الشعراء الغرناطيين بشعر الطبيعة على الرغم من الحروب والنزاعات والقلاقل التي مرت بها الأندلس في هذه الفترة .

- قلة هذا الشعر إذا ما قورن بشعر الطبيعة في القرن الخامس الهجري الذي شهد تربع شعر الطبيعة على قمة الأغراض الشعرية .

- قلة شعر وصف الطبيعة في مقابل غزارة الشعر المرتبط بها، مما يدل على قدرة شعر الطبيعة على الارتباط بأهم أغراض الشعر، والانسجام مع أدق تفاصيل الحياة .

- ورد شعر الطبيعة عند الشعراء الغرناطيين في مقطعات مستقلة، وأحيانا كان يأتي مقدمات لقصائد المدح والغزل والرثاء منافسا بهذا المقدمات الغزلية والمدحية .

- استطاع شعر الطبيعة أن يلفت النظر إليه ، بل أصبح لا مناص من وجوده . حيث وجدت قصائد كاملة انفردت في هذا الغرض .

- اعتمد الشعراء الغرناطيون في وصف الطبيعة على خاصية التصوير الحسي إذا ما وصفوا عناصرها ، أما إذا ما تفاعلوا معها فهم يميلون إلى تشخيصها وتجسيدها لمحاورتها والاندماج معها .

- الصورة الشعرية عند الشعراء الغرناطيين عميقة تلامس الأذهان والأعماق في حالة التفاعل ، بينما في حالة الوصف فالصورة سطحية ، حسية تميل إلى الوصف المجرد .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بسم الله الرحمن الرحيم

****

المـــقـــدمـــــة

لم تكن هذه هي المرة الأولى التي أتنزّه فيها بين ربوع شعر الطبيعة الأندلســية ، فقــد سبق أنْ قدمتُ رسالتي في الماجستير في موضوع (**وصف الطبيعة في الشعر الأندلســي فــي عصر الخلافة (٣١٦ – ٣٩٩ هـــ)** وقد غمرني إنجاز ذلك العمل بالسعادة ، ومــرت الســنين وفي القلب والعقل حلم لم يفارق الخيال ، وتأتي هذه الدراسة تحقيقا للحلم ، فطالما انتظــرت أن تُسنح لي فرصة التنزه بين ربوع شعر الطبيعة في عصر آخر، وكان هذا لما وقع اختياري على دراسة هذا الشعر في عصر بني الأحمر، هذا العصر الذي شهد غروب الأنــدلس ، وذاق فيــه الشعب– بما فيهم الشعراء– مرارة النكبات ، وتجرع سمَّ الهزيمة، لكن شعراء الدولة النصرية لم تثنهم الصعاب عن قرض الشعر ، فتركوا لنا شعراً يستحق الدراسة والتحليــل ، وكأنــه مــرآة صقيلة تعكس تفاصيل الحياة كلها آنذاك، وهذا حال شعر الطبيعة في عهد بني الأحمــر ، فمنــه نستطيع أن نتخيل طبيعة الأندلس برياضها وجناتها وأنهارها وحــدائقها ، وأطيارهــا، وبعــين الدارس المتفحص نستطيع أن نعرف الكثير عــن حيــاة الأندلســيين؛ السياســية والاقتصــادية والاجتماعية، وإذا ما تهيأ لنا أن ندرس شعر الطبيعة دراسة حقيقية فسنجد أن هذا الشعر عــانق كل أغراض الشعر الأخرى وارتبط بها .

ولم تشأ الظروف أن يجمع شعر الطبيعة في عصر بني الأحمر ، وأن يُــدرس دراســة تحليلية مفصلة ، فاغتنمت الفرصة لأتتبع الطبيعة في الشعر الأندلسي في هذا العصــر واضــعة نصب عيني ما بذله الآخرون من جهود في دراسته وتحليله ، وكانت هذه الجهود تسير في ثلاثة اتجاهات :–

أولا : أن ما قام من دراسات كان يدرج دراسة شعر الطبيعة في هــذه الفتــرة ضــمن دراسات عن أدب ذلك العصر بشكل عام، مثل كتاب الدكتورة حسناء بوزويتة الطرابلسي "حيــاة الشعر في نهاية الأندلس"، وكتاب للدكتور عبد الحميد الهرامة بعنوان "القصيدة الأندلسية خــلال القرن الثامن الهجري" وكتاب لقاسم الحسيني، وعنوانه "الشعر الأندلســي فــي القــرن التاســع الهجري" ، ورسالة محمد السرميني المعنونة بـــ"خصائص الشعر الأندلسي في عصر غرناطــة"

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد عدد الباحث أغراض الشعر وأدرج شعر الطبيعة تحت غـرض الوصـف ، لكـن دون أن يتعمق فيه بالدراسة وذلك لما تقتضيه طبيعة البحث ، أما الدكتور يوسف شكري فرحات فكـان في كتابه "غرناطة في ظل بني الأحمر" منصرفا إلى استعراض الحركة الأدبية فـي عصـربني الأحمر بشكل عام .

والاتجاه الثاني : هو وجود حديث عن شعر الطبيعة يقف عنده الباحثون في أغـراض الشعر الأخرى البارزة في عهد بني الأحمر كالغزل أو الرثاء أو الجهاد بحكم قدرة الطبيعة على التغلغل في معظم هذه الأغراض والانسجام معها، حتى غرض الرثاء الذي قد يستهجن الـبعض ارتباطه بشعر الطبيعة٠ ومعظم هذه الدراسات هي رسائل جامعية أذكر منها رسـالة دكتـوراه لسَراب يازجي بعنوان "الغزل في الشعر الأندلسي في ظل بني الأحمر" ،ورسائل في الماجستير لكل من:حمزة محمد عبد الهادي ظاهر، بعنوان "صورة المرأة في الشعر الأندلسي في ظل بنـي الأحمر" ، وجمال عبد الجابر عبد المعطي بعنوان "شعر الجهاد في الأنـدلس فـي ظـل بنـي الأحمر" ، وفاطمة مفلح مرشد بن عبدالله بعنوان "شعر الرثاء في الأندلس في ظل بني الأحمر"، ويتفاوت الحديث عن شعر الطبيعة في هذه الرسائل ما بين سطور قليلة ،و صفحات معدودة.

أما الاتجاه الثالث : فهو توقف بعض الدارسين لشعر أحد الشعراء البارزين فـي عهـد الدولة النصرية عند شعر الطبيعة باعتباره أحد الموضوعات التي تناولها هؤلاء الشعراء ، ومن هذه الدراسات دراسة لحمدان حجاجي بعنوان"حياة ابن زمرك وآثاره، وقد أفرد الفصل السـادس من دراسته لهذا الغرض ، بينما أتى الدكتور علي محمد النقراط على مقتطفات تحدث فيها عـن شعر الطبيعة في كتابه "ابن الجياب الغرناطي ، حياته وشعره " .

وترسخ الاعتقاد لدي بضرورة المضي في دراسة الطبيعة في الشعر الأندلسي في ظـل بني الأحمر ، واستجلاء جوانبها ، فهي ملتصقة كل الالتصاق بأحداث العصر وتطوراتـه، كمـا كان من الضروري أن تبين الدراسة أن شعر الطبيعة كـان دائمـا مطلبـا احتاجـه الشـعراء الأندلسيون في حالتي الرخاء والشدة ، والقوة والضعف، وحضور الطبيعة في شـعر الشـعراء الغرناطيين رغم المحن والقلاقل والاضطرابات السياسية أكبر دليل على ذلك٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وانتظمت الدراسة في مقدمة وتمهيد وأربعة فصول وخاتمة ، وقد جاء التمهيد لإعطاء القارىء صورة متكاملة إلى حد ما عن تطور شعر الطبيعة في الأدب العربي، وعن أهم مميزاته منذ بداياته إلى أن وصل إلى عصر بني الأحمر ، وقد يُنتقد أن يُختزل مثل هذا التطور الكبير في صفحات معدودة . لكن قناعتي بضرورة هذا التمهيد استحقت مني المجازفة في كتابته خاصة أن فترة البحث هي نهاية الحكم الأندلسي .

وفي الفصل الأول كان لا بد من الحديث عن أحوال مملكة غرناطة في عصر بني الأحمر ، فهذه الأحوال بكل جوانبها سوف تساعد على تجلية الطبيعة في الشعر الأندلسي آنذاك. .

أما الفصل الثاني فقد خُصص للحديث عن الطبيعة الصامتة متمثلة في الرياض والأزهار والثمريات والمائيات والثلجيات، وعن الطبيعة الصائتة مجسدة في وصف الحيوانات والحشرات ووصف الطيور .

وجاء الفصل الثالث مشتملا على حديث مطول عن تغلغل شعر الطبيعة في أغراض الشعر المختلفة ومنها : المدح والغزل والجهاد والرثاء .

واحتجت في نهاية المطاف أن أقف على دراسة الخصائص اللغوية والأسلوبية ، والصورة الفنية لشعر الطبيعة في تلك الفترة .

وأخيراً أوجزت في خاتمة البحث ما توصلت إليه الدراسة من نتائج ، وما تركت في الذهن من اعتقادات وأفكار ، وفي القلب من تنهدات على عصر مضى وتاريخ جميل كان لنا في ربوع الأندلس ، وسؤال قفز إلى الذاكرة من جديد يلوح لي ساخرا : هل من عودة بعد الغياب؟!! .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بسم الله الرحمن الرحيم
****

التمهـــيـــد:-

إذا كان وصف الطبيعة " يقصد به أحيانا إلى كشف جمال الكون "(١) كما يقول الـــدكتور إحسان عباس فإنه في الأدب العربي كان جديراً بهذه المهمة حقاً ، فقد تفنن شعراء العـــرب فيـــه وأكثروا من ضروبه ، وللطبيعة سلطان منذ الأزل على العربي ، ســـلطان يُخضـــع الموهبـــة الشعرية له لتنطلق قريحة الشاعر العربي في وصف الطبيعة وصفاً شعرياً يعّبرعن تأثره البـــالغ بها ، فهي التي كانت دوماً تحتضنه منذ كان شاعراً جاهليا مفتوناً ببيئته الصحراوية هائماً بهـــا ، " فإذا خرج البدوي إلى الحضر قال الشعر حسرة على الدهناء ورمالها وسهلها وجبلها ، وأقســـم أن رياح الصحراء تثير الغبار أحب إليه من رياح الحضر تهز الأشجار ، وتمنى أن يبيت ليلـــة واحدة في الصحراء " (٢) .

إن شعر الطبيعة من أقدم فنون الشعر العربي ، فمنذ جادت قريحة العربـــي بالشـــعر ، حاول أن يُبرز تفوقه على الآخر في براعة الوصف الذي تستثيره طبيعة هذا الكون وموجوداته، فكل ما فيه مشرع ذراعيه للشاعر ليستقي صوره وتشبيهاته في مختلف أغـــراض الشـــعر مـــن غزل، ومدح ، ورثاء ، وفخر ، وهجاء، ووصف ... إلخ .

لقد وصف الشعراء الجاهليون الإبل والخيل وكواسرالسباع وجوارح الطيور،وتفـــاعلوا مع كثير من عناصر الطبيعة الحية في بيئتهم ، كما حركت فيهم عناصرها الصامتة كثيـــرا مـــن مشاعرالإعجاب بها، والميل إلى مناجاتها فوصفوا النباتات والأزهار ،وتأملوا السماء وما فيهـــا من نجوم وكواكب وسحب وبروق ورعود ،أما وقوفهم على الأطلال وذكرهم المرابـــع وتعفيـــة الرياح للرسوم ففيه انسجام وتناغم مع إيقاع البيئة المحيطة بهم ٠

---

(١) عباس ، إحسان ، (١٩٧٦ م) . دراسات في الأدب الأندلسي ، ص٤٨ ، ليبيا ، تونس : الدار العربية للكتاب .
(٢) نوفل ، سيد ،(١٩٤٥م). شعر الطبيعة في الأدب العربي ، ص٢٩ ، مصر : دار المعارف .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إن من يتأمل شعر امرئ القيس مثلا ، تستوقفه عناصر الطبيعة التي بدا وصفها في شعره وصفاً محكما كل الإحكام ، دقيقاً كل الدقة ، ينبض بالصورة ويزدهي بالألوان ، تعتريه البساطة ويتملكه الصدق ، فإذا ما وصف الفرس أو الناقة أو حمار الوحش مثلا أبدع مفتوناً بطبيعة بيئته التى كانت تشحذ حسه ليصطفي من مفرداته أجزلها ، وتُعلي ذوقه لينسج منها أدق الصور وأبدعها ، وتتلون أمام ناظريه ليختار الألوان الملائمة لأجواء قصيدته أدق اختيار،ومن أشعاره في وصف الخيل أبياته الشهيرة التي يقول فيها:-

مكر مفر مقبل مدبر معا كجلمود صخر حطه السيل من عل

كميت يزل اللبد عن حال متنه كما زلت الصفواء بالمتنزل (١)

وجاء الإسلام واستولت الحياة الإسلامية على الشعر كما استولت على غيره من جوانب الحياة ، وكرّس الشعراء شعرهم لخدمة الدعوة الدينية ، ولما تُوفي الرسول صلى الله عليه وسلم ، وسادت الخلافة الراشدية ، حافظ الشعر على نهجه في اتخاذ الشعر وسيلة لتأييد الدين وتمكين مبادئهِ في النفوس ، وهكذا بقي الشعراء يقلدون طريقة الجاهليين في نظم شعر الطبيعة، ومع مجيء الخلافة الأموية وانتقال الخلافة إلى دمشق التي تنطق فيها الطبيعة جمالاً يفتح القرائح ويطلق عنان الكلمات ، بقي حال شعر الطبيعة كما هو، فقد حصره الشعراء بالأوصاف القديمة الجاهلية نفسها فركب الأخطل ناقته وشبهها بحمار الوحش (٢) ، ووقف الفرزدق على الأطلال كما وقف امرؤ القيس حتى لكأنه سرق عباراته (٣).

ويُفسر النقاد هذه الظاهرة بأن الأمويين وجدوا في الشعر الجاهلي تمثيلا لماضيهم ، فأصبحوا يعتزون به ويتشددون في روايته ، ومن ثم يسعون إلى تقليده ، وبعضهم يذهب إلى أن حياة البداوة الماضية هي التي ساقت إليهم النصر ، وملكتهم زمام الفرس والروم ، لذلك تمسكوا بأهدابها وحنّوا إليها ، وساعد في ذلك نهوض الرواة وعلماء اللغة إلى البحث عن هذا الماضي الجاهلي ، وعناية الخلفاء به ، وحبهم له فجهد الشعراء الأمويون في أن يقلدوه إرضاء

---

(١) الكندي ، امرؤ القيس بن حجر الكندي ، (ت١٣٠م). الديوان ، ص ٢٧ ، (تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم) ، دار المعارف ، مصر ، ١٩٥٨ م .

(٢) الأخطل ، غياث بن غوث التغلبي ، (ت ٩٢ هـ) . الديوان ،ج١، ص ٢٥٦ ، (نشر الأب أنطون صالحاني اليسوعي) ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت، ١٨٩١م .

(٣) الفرزدق ، همام بن غالب ، (ت ١١٤ هـ) ، الديوان ، ج٢ ، ص٣٨١-٣٨٢ ، دار صادر ، بيروت ،١٩٦٦م .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

للعلماء والخلفاء ومن بيدهم سلطان الذوق الأدبي ، ومن ثم كان الجمود والوقوف عند معاني الجاهليين حيناً ، والتمسك بألفاظهم حيناً آخر ، وعادت الحياة الجاهلية ثانية إلى دنيا الأدب ، وحمل هذا اللواء القديم كبار الشعراء في هذا العصر (١) .

وجاء العصر العباسي ، وانتقلت عاصمة الخلافة من دمشق إلى بغداد ، وكان القرن الأول من حكم العباسيين يمتاز إلى حد كبير بمميزات العهد الأموى الأساسية ، وكان الشعر يسير دائما مع الحياة الاجتماعية والسياسية سيراً وثيقاً ، ولما اشتدت صلة الحكام بالفرس وحضارتهم وزاد اتصالهم بالتقاليد الأعجمية كان على الشعراء أن يسيروا مع هذا التيار الجديد على الرغم من أن اندفاعهم إلى الحنين إلى العرب ولغتهم ومعانيهم القديمة كان يغالبهم دائما ، فكأن الشعر عامة وشعر الطبيعة خاصة كانا يعيشان طور انتقال من المعاني البدوية إلى المعاني الحضرية ، أو كأنه كان في حالة صراع أو تنازع ، فظلوا في بعض الأبواب يقلدون وراحوا في بعضها يجددون ، ويجسّد العصر العباسي الثاني تطوراً واضحا في شعر الطبيعة ، ولم يكن " تطوراً جزئياً لم يخرج عن الحدود العامة القديمة التي لازمها ، ودار في نظامها " (٢) .

" وانما كان تطوراً كليا ، فقد بدأ شعر الطبيعة يرد في قصائد ومقطوعات مستقلة نظمها الشعراء في وصف الطبيعة ، وأكثروا من الابتداء بذكرها ووصفها والإشادة بجمالها في مقدمات قصائدهم ، وقرنوا صورة الممدوح ببعض مظاهرها وألوانها ، واستمدوا صورة المحبوبة من أشجارها وأزهارها ....وظهرت موضوعات جديدة كوصف الرياض والبساتين والأزهار والرياحين ، وأعياد الربيع والشتاء ، وهذه موضوعات لم يألفها الشاعر الجاهلي في بيئته البدوية الصحراوية " (٣) .

وقد ترسم الشعراء في العصر العباسي الثاني نهج القدماء ، فحافظوا على اللّحن المميز للقصيدة العربية ، من وقوف على الأطلال ، ووصف للصحراء ومشاهدها ، ومزج مشاهد الأطلال بالمديح والغزل ، ثم تجلت المحاولات التجديدية في شعر الطبيعة شيئا فشيئا في موضوعات الطبيعة الأرضية من وصف للربيع والأشجار والثمار ، ووصف للأنهار والغدران والسفن ، والعديد من مظاهر الحياة الحضرية الجديدة (٤) .

---

(١) الدهان ، سامي ، (١٩٦٣ م). الوصف ، ص ٤٩ ، مصر : دار المعارف .
(٢) نوفل ، شعر الطبيعة في الأدب العربي ، ص ١٩٢ .
(٣) حسن ، رشدي علي ، (١٩٨٨م) . شعر الطبيعة في العصر العباسي الثاني ، ط ١ ، ص ٢٤ ، بغداد : دار عمار.
(٤) لمزيد من التفاصيل انظر : حسن ، السابق ،ص١٧-١١٤ ، و من ص١٤٣- ١٥٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وعند دراسة شعر الطبيعة تلمع أسماء شعراء أبدعوا فيه ، وتركوا من بصماتهم كثيرا الذي يحسب لهم في تطويره ، وعلى رأسهم : أبو نواس ، وأبو تمام ، وابن الرومي،والبحتري، وغيرهم .كما نجد في أشعار ابن المعتز وكشاجم الرملي شعراً في الطبيعة يتميز بانسجامه مع أغراض الشعر الأخرى ٠ ويعد القرن الرابع الهجري الفترة التي اكتملت فيها ملامح شعر الطبيعة ، ومن الأسماء المرتبطة بهذه الفترة أبو بكر الصنوبري والسري الرفاء .

انتقل العرب إلى الأندلس ، فوجد العربي نفسه منجذباً بقوة إلى طبيعة بلاده الجميلة ، حيث أخذت تتفاعل معها نفسه ، وتستوحيها قريحته لذلك كان الشاعر الأندلسي يستجيب لدواعي ذاته ، وبواعث إبداعه ، ويحرص في الوقت نفسه على البقاء قريباً من ديوان العرب ، وطرائق نظمهم .

" لقد فاق الأندلسيون المشارقة في شعر الطبيعة كما وكيفاً ، وتوسعوا ونوعوا في موضوعاته توسعاً وتنوّعاً فاق كل اعتبار ، كما أنهم كانوا فيه أكثر براعة وابتكاراً وتجديداً ودقة وتصويراً " (١) .

وكان حنين الأندلسيين إلى المشرق "حنين حب و حنين رحلة و حنين علم و أدب ، وكان شعراؤهم يقتفون أثر الشعراء المشارقة ، لذلك كانت فنون الشعر تنضج في الأندلس بعد أن تكون قد بلغت أوجها في المشرق ، ففي القرن الرابع الذي بلغ فيه وصف الطبيعة ذروته في حلب ، وأصبحت مدارس الروضيات والزهريات والثلجيات والمائيات في أوج إبداعها (٢) كانت هذه الأغراض لا تزال تحبو في محاولات فردية على ألسنة شعراء الأندلس وقرائحهم"(٣) .

على أن الأمر لا يعني أن شعراء الأندلس لم يجيدوا وصف الطبيعة إلا متأخرين غاية التأخر ، فقد قام كثير من شعراء القرن الرابع الهجري بمحاولات موفقة في وصف الطبيعة مجملة في شكل رياض وبساتين ، ومفصلة في شكل ورود ورياحين وأزاهير وأثمار وأطيار وأنهار وبرك وسواق(٤).

---

(١) عتيق ، عبد العزيز ، (١٩٧٦ م) ٠ الأدب العربي في الأندلس ، ط ٢ ، ص ٢٩١ ، بيروت : دار النهضة .
(٢) الشكعة ، مصطفى ، (١٩٥٨ م) . فنون الشعر في مجتمع الحمدانيين ، فصل الطبيعة ، مصر : مكتبة الأنجلو المصرية ، مطبعة المعرفة .
(٣) الشكعة ، مصطفى ، (١٩٨٦ م) ٠ الأدب الأندلسي ؛ موضوعاته وفنونه ، ط٦ ، ص ٢٤٩ ، بيروت : دار العلم للملايين .
(٤) للاستزادة راجع : أبوعودة ، نادية ،(١٩٩٥ م) ٠ وصف الطبيعة في الشعر الاندلسي في عصر الخلافة ، رسالة ماجستير ، غير منشورة ، الجامعة الأردنية ، عمان ، الأردن .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد ظل الأمر كذلك " حتى كان القرن الخامس الهجري ، وأصبح الشعراء يتكلمون باسم البيئة والجو ، فنظروا نظرة جديدة إلى طبيعة البلاد الأندلسية ، ولذلك كانوا فئتيين ؛ فئة تعيش مع المشرقيين في المعاني والألفاظ ، وفئة تشق طريقها إلى معان طريفة فيها كثير من التجديد " (١) .

ويُمثل شعر ابن عبد ربه ، وابن هانئ وابن شهيد وابن دارج القسطلي وآخرين شعراً مشرقياً في أسلوبه ومعانيه ، ويقول سيد نوفل إن من التجوز أن يُسمى هؤلاء الشعراء ، شعراء أندلسيين " لأنهم من الجماعات الشرقية التي استولت معاني الوطن عليهم ، وكان لهم من عنصر المحافظة والتقليد ما يحول بينهم وبين التمتع بالمباهج الغربية ، كما كان عنصر القلق سائدا في البلاد مما لا يهيئ للأدب استقراراً واطمئناناً " (٢) .

وظل أسلوب المشارقة واضحاً كل الوضوح في تمسك ابن شهيد بوصف البادية والأطلال والخمر والنجوم ، ومثله ابن هانئ الذي وصف الظعن والأطلال والبرق والحمام والمدامة على أساليب المشرقيين أيضا .ولكن ما كان لمثل هذا الحال أن يدوم بحكم تأثير عوامل البيئة الجديدة ، وظروف الحياة المستحدثة التي طرأت على الشاعر في تلك الربوع الأندلسية ، كما أنه لم يكن من اليسير على التيار القديم المحافظ أن يتلاشى ويندثر من قرائح الشعراء ، وعلى الرغم من ذلك كان لابد للسمة الأندلسية المحلية أن تتجّلى كلّما ازداد رسوخ أقدام العرب في الأندلس ، ولعل أبرز ثمرة من ثمار البيئة الأندلسية الجديدة في الشعر العربي انعطاف ذلك الشعر في الكثير من نماذجه إلى الطبيعة وتصويره مشاهدها ، وما كان من تغلغل مظاهرها في كثير من أغراض الشعر الأندلسي (٣) .

لما اكتملت الحضارة في الأندلس في القرن الخامس الهجري ، وانقطعت صلة الشعب بالبداوة وبيئتها ، فعاشوا في القصور والحدائق والبساتين قرب الأنهار والبرك والأحواض ، يتراقص الزهر والنور أمام عيونهم ، وتداعب الموسيقى العذبة آذانهم ، **بدأت** مظاهر التجدد والابتكار تظهر في أشعار الأندلسيين ، ولمعت أسماء لا تُنسى لشعراء يقترن ذكرهم بشعر الطبيعة في الأدب العربي عامة ، وفي الأدب الأندلسي خاصة ، وعلى رأسهم ابن زيدون

---

(١) الدهان ، الوصف ، ص ٩٧ .
(٢) نوفل ، شعر الطبيعة في الأدب العربي ، ص ٢٥٠ .
(٣) الدقاق ، عمر ، (١٩٧٥ م) . ملامح الشعر الأندلسي ، ص ٢٠٥ – ٢٥٥ ، بيروت : دار المشرق .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وابن حمديس وابن خفاجة ، وقد ساهموا جميعاً في تشكيل ملامح شعر الطبيعة في الأدب الأندلسي .

وتعد قوة التشخيص من أهم مظاهر التجديد عند شعراء تلك الفترة حيث يخلع الشاعر صفات الأشخاص على بعض مظاهر الطبيعة (١) ، ويبدو هذا واضحاً كل الوضوح في قصيدة الجبل لابن خفاجة ، إذ بلغ في تشخيصه الجبل إلى الذروة (٢) ، ومن مظاهر التجديد والابتكار عند الأندلسيين أنهم كانوا يصوغون الشيء الواحد مرات عدة ، بطرق مختلفة ، وهذا دليل القدرة الفنية ، كما صنع ابن صارة الشنتريني في وصف النار (٣) ، وأبو القاسم العطار في وصف الأنهار (٤) ٠ كمايمكن اعتبار مناجاة ابن خفاجة وردة صغيرة ذكّرته بعهد صباه ، أحد مظاهر التجديد عند الأندلسيين حيث أرسل ابن خفاجة للوردة نظرة حانية أفصحت عما يُضمر لها من حب ، وتخيل فيها حنين الربيع إليه على النوى ، وتحياته على البعاد ، فكأنهما يتبادلان الحب والشوق والهيام كما يقول الدكتور سعد شلبي (٥).

ومما يلفت النظر أن البهجة والمرح والنشوة قد صبغت بألوانها الزاهية معظم الصور والمعاني في شعر الطبيعة الأندلسية ، ومرد ذلك بالدرجة الأولى إلى العامل النفسي ، إذ كانت نفوسهم مفعمة بمشاعر الرضى يلفها التفاؤل وتغمرها الطمأنينة فتفيض قلوبهم من أنسها على الطبيعة ، وتضفي على مشاهدها مرحاً وحبوراً (٦) .

من هذا القبيل ما نظمه ابن حمديس في كثير من أشعاره ، فقد كان مفتوناً بالطبيعة الحية ، و" عاش في عصر أقبل الشعراء فيه على مباهج الطبيعة يمتعون النفس بها ، ويملؤونها بشراً باستجلاء محاسنها ، وينظمون نزهات لهذا الغرض (٧) .

---

(١) منصور ، حمدي ، (٢٠٠٣ م) ٠ الطبيعة في الشعر الأندلسي في عصر المرابطيين ، ط ١ ، ص ٢٨٧ ، عمان : دار الجوهرة .
(٢) الركابي ، جودة ، (١٩٦٠ م). في الأدب الأندلسي ، ص ١٠٨ ، مصر : دار المعارف .
(٣) الأصبهاني ، أبو عبد الله عماد الدين ، (ت ٥٩٧ هـ). خريدة القصر و جريدة العصر ، قسم شعراء صقلية والمغرب والأندلس ، م ٢ ، (تحقيق عمر الدسوقي وعلي عبد العظيم) ، القاهرة ، دار نهضة مصر ، مطبعة الرسالة ، ١٩٦٤م . وانظر : ابن خاقان ، الفتح بن محمد بن عبد الله ، (ت ٥٢٨ هـ). قلائد العقيان في محاسن الأعيان ، ص ٢٦٥ ، القاهرة ، ١٣٢٠ هـ .
(٤) الأصبهاني ، خريدة القصر ، القسم الرابع ، ج٢ ، ص٥٨٥ – ٥٨٦ ٠ وانظر : ابن خاقان ، قلائد العقيان ، ص ٢٨٤ .
(٥) منصور ، الطبيعة في الشعر الأندلسي في عصر المرابطين ، ص ٢٨٩ ، نقلا عن شلبي ، أسعد اسماعيل، (١٩٧٨م). البيئة الأندلسية وأثرها في الشعر ، عصر ملوك الطوائف ، ص ١٦٤ ، القاهرة : دار نهضة مصر ، الفجالة .
(٦) الدقاق ، ملامح الشعر الأندلسي ، ص ٢٦١ – ٢٦٤ .
(٧) نوفل ، شعر الطبيعة في الأدب العربي ، ص ٢٧٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولعل من أبرز ملامح شعر الطبيعة في تلك الفترة اتسامه بالغزارة ثم استقلاله في كثير من الأحيان بقصائد خالصة لوجه الطبيعة ، فقد استوى شعر الطبيعة في الأندلس شعراً مستقلاً، وغرضاً مميزاً لا يحتل موضعه بين أغراض الشعر فحسب ، بل يتبوأ منزلة الصدارة بين هذه الأغراض (١) وأما المقطعات التي نظمها شعراؤهم في وصف صنوف الأزهار فبعضها يمثل (بطائق) المهاداة بين الأصدقاء وليس لديهم من غاية سوى طلب الصورة المبتكرة (٢) .

وإذا كان من الطبيعي أن يمتزج شعر الطبيعة بعدد من أغراض الشعر ويتداخل في أكثر المناسبات مع أبيات حب وغزل وشراب ومنادمة ، فإن من غير الطبيعي أن شعر الطبيعة الأندلسي قد أحسّ بقوته وانتشاره وسطوته قدسَّ أنفه في فنون أخرى من الشعر قد يبدو الارتباط بينها وبينه أمرا لا بأس فيه مثل مزج المديح بالطبيعة مزجاً يكاد يخرج القصيدة عن هدفها الأصلي وهو أمر قد تقبله على علاّته ، إلا أن شعر الطبيعة كان يزحف ليكسب أرضاً جديدة حين يشارك في قصائد شعر الشكوى والتحسّر ثم لا يكتفي بذلك بل ينطلق مقتحماً ميدان الرثاء آخر معقل يمكن أن يتوقع الدارس الوصول إليه .

ونخلص إلى القول إن الشعراء الأندلسيين في حقب زمانية كانوا يقلدون إخوانهم المشارقة في غرض وصف الطبيعة كما فعلوا في غيره من الأغراض ، إلا أنهم لم يلبثوا طويلا حتى استقلوا بأنفسهم في هذا الفن بالذات استجابة لبيئتهم الأندلسية الساحرة التي أخذت عليهم ألبابهم ، فأبدعوا في أشعارهم وبرعوا في قصائدهم ، واستوت الطبيعة فناً شعرياً يستهوي قرائح الشعراء الذين أفردوا جل قصائدهم واشعارهم لها وجعلوها تعانق سائر أغراضهم الشعرية .

---

(١) الدقاق ، ملامح الشعر الأندلسي ، ص ٢٦٥ .
(٢) عباس ، تاريخ الأدب الأندلسي ، عصر الطوائف والمرابطين ، ص ١٢٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصـــل الأول

أحـــوال ممـــلكة غـــرنـــاطـــة
في ظـــل بـــني الأحـــمر

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أولا : الحيـــــاة الــطبيعية

ثانــيا : الحيـــاة العــمرانية

ثالــثا : الحــيــاة الســياسية

رابعــا: الحــيــاة الاجتماعية

خامسا : الحــيــاة الاقتصادية

سادسا : الحــيــاة الفكـــرية

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أولا : الحياة الطبيعية :-

تقع مملكة غرناطة (١) النصرية في الزاوية الجنوبية الشرقية من شبه الجزيرة الأيبيرية، على ساحل البحر الأبيض المتوسط جنوباً أي من جبل طارق حتى المرية وجبال رندة وإلبيرة (٢) وتُحيط بها سلسلة من الجبال الشاهقة والوعرة في طرفها الشمالي ، على حدود نهر الوادي الكبير (٣).

وقد ضمّت المملكة ثلاث ولايات رئيسة (٤) هي : غرناطة ، المرية (٥) ومالقة (٦) وعدداً آخر من المدن والقرى والثغور ٠

---

(١) غرناطة: أوغرناطة، أو أغْرناطة، وهو اسم أعجمي لمدينة كورة إلبيرة، وكانت إلبيرة قاعدة الملك في القدم، إلاّ أن رسمها قد درس، وصارت غرناطة كرسياً لملك بني الأحمر. انظر ابن الخطيب،لسان الدين،(ت ٧٧٦هـ)٠ الإحاطة في أخبار غرناطة،ط٢، م١ ، ص٩٩ - ١٠١، (تحقيق محمد عبد الله عنان) ،الشركة المصرية للطباعة والنشر،مصر،١٩٧٣م٠ وانظر ابن الخطيب ،لسان الدين ، اللمحة البدرية في الدولة النصرية ،ط٣، ص٢١، دار الآفاق الجديدة، ، بيروت ، ١٩٨٠م ٠ وقد ذكر ياقوت الحموي أن معنى غرناطة رمانة ، وسُميت بذلك لحسنها. انظر الحموي ، أبو عبد الله ياقوت ،(ت٦٢٦هـ)٠معجم البلدان، ج٤ ، ص ١٩٥ ، دار صادر ،بيروت ، ١٩٧٧م٠ والمقري، شهاب الدين أحمد بن محمد التلمساني ،(ت١٠٤١هـ)٠نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب،ط١، ج ١ ، ص١٤٧، (تحقيق إحسان عباس) ، دار صادر ،بيروت ،١٩٨٨م٠

(٢) في وصف هذه المملكة ومعالمها وسكانها ، العمري ،ابن فضل الله،(ت٧٥٥هـ)٠ مسالك الأبصار وممالك الأمصار ، ط١، با ب ١٤،ص١٦٥،(تحقيق مصطفى أبو ضيف أحمد)،مطبعة النجاح الجديدة،الدار البيضاء ،١٩٨٨م٠ و ابن الخطيب ، الإحاطة ، ج١ ،ص٩١-١٣٩ ٠ والحميري ، محمد عبد المنعم ،(ت٧٢٧هـ)٠ الروض المعطار في خبر الأقطار، ص٢٤،مادة غرناطة ،طبعة لجنة التأليف والترجمة و النشر ، القاهرة، ١٩٣٧م٠

(٣) انظر حدود مملكة غرناطة عند الحجي ، عبد الرحمن علي ،(١٩٧٨م)٠ التاريخ الأندلسي من الفتح حتى سقوط غرناطة ، ط٣،ص ٥١٨ ، دمشق :دار القلم ،و بروكلمان ، كارل ،(١٩٨٦م)٠ تاريخ الشعوب الإسلامية، ط٥ ،ص٣٣ ، ترجمة نبيه فارس ومنير بعلبكي ، بيروت: دار العلم للملايين ٠ وحتاملة ، محمد عبده ، (١٩٧٧م)٠ محنة مسلمي الأندلس عشية سقوط غرناطة وبعدها ، عمان: مطابع دار الشعب ٠

(٤) عنان ، محمد عبدالله ،(١٩٨٧م)٠ نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين ، ط٤،ص٥٥ ، القاهرة: مكتبة الخانجي ، مطبعة المدني ٠ والطوخي ، أحمد محمد،(١٩٩٦م)٠مظاهر الحضارة في الأندلس في عصر بني الأحمر ،ص ٤٨-٦٨ ، الإسكندرية : مؤسسة شباب الجامعة .

(٥) المرية :- من مشهور مدن الأندلس ، وهي على ساحل البحر ولها القلعة المنيعة المعروفة بقلعة خيران ، بناها عبد الرحمن الناصر ، وعظمت في دولة المنصور بن أبي عامر، وولى عليها مولاه خيران ، ومن أبوابها باب العقاب عليه صورة عقاب من حجر قديم عجيب المنظر٠ انظر المقري ، نفح الطيب ، ج١ ، ص ٨٥٦ ٠ والحميري ،محمد عبد المنعم،(ت٧٢٧هـ)٠ صفة جزيرة الأندلس منتخبة من كتاب "الروض المعطار في خبر الأقطار" ، ص١٨٣-١٨٤ ، (عُني بنشرها وتصحيحها ليفي بروفنسال)، دار الجيل ، بيروت ،١٩٨٨ م .

(٦) مالقة :- مدينة على شاطئ البحر ، عليها سور صخر ، والبحر في قبلتها ، وهي حسنة عامرة آهلة ، كثيرة الديار ، وفيما استدار بها من جميع جهاتها شجر التين المنسوب إليها ، ولها وادٍ يجري في زمن الشتاء ٠ الحميري ،صفة جزيرة الأندلس،ص ١٧٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

(أ) إقليم غرناطة : – وأهم مدنه غرناطة قاعدة بلاد الأندلس وعروس مدنها(١)، وتقع إلى الجنوب الشرقي من قرطبة (٢) وهي مبنية على جبل (٣).

(ب) إقليم مالقة :– المعروفة قديماً " بريـة "(٤) ، تقع بين الجزيرة الخضراء والمرية(٥) ، وهي في غاية الحصانة والمنعة (٦) .

(ج) إقليم المرية :– وكانت المرية مقرّاً للأسطول الإسلامي ، ومركز انطلاقه ، وتعدّ أشهر مراسي الأندلس وأعمرها (٧) .

وفي وسط المملكة (جبل شلِير) أو (سيير نيفادا) ، وهو بارتفاع قممه يشرف على معظم مدن المملكة (٨) ، وقد عُرف عند العرب بجبل الثلج لأنه "لا يفارقه الثلج صيفاً ولا شتاءً، وهو يرى من أكثر بلاد الأندلس لارتفاعه وشموخه ، وفيه أصناف الفواكه من التفاح والعنب والتوت والجوز والبندق .."(٩) ٠

اخترقت المملكة أنهارعدة أهمها؛ نهر شِنِيل ونهر أندرش ونهر المنصورة ، وكثرت بين ربوعها الجداول والينابيع وعيون الماء مما جعلها قطعة من الجنة تزدهي بالبساتين والرياض وتلفها الغابات ، وقد ساعد على ذلك تربتها الخصبة الغنيّة بالمعادن، ونسيمها العليل

---

(١) ابن بطوطة ، محمد بن عبد الله ،(ت ٧٧٩هـ)٠ ، رحلة ابن بطوطة ، ط١ ،ص ٦٧٩ ، (تحقيق طلال حرب)، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٨٧ م ٠ وابن جبير ، محمد بن أحمد ، (ت٦١٤هـ)٠ رحلة ابن جبير ، ج٢ ،ص٧٦٨ ، دار صادر ودار بيروت للطباعة والنشر، بيروت ، ١٩٥٩م ٠

(٢) قرطبة :– قاعدة الأندلس و أم مدائنها ، ومستقر خلافة الأمويين فيها ، وآثارهم بها ظاهرة ، وهي على سفح جبل مطل عليها يُسمى جبل العروس ، وفيها المسجد الجامع المشهور ، تغلب عليها النصارى ، وحكموها سنة ٦٦٣هـ ٠ الحميري ، صفة جزيرة الأندلس ، ص ١٥٣ .

(٣) الغزال ، محمد بن مهدي ،(١٩٨٤م)٠ نتيجة الاجتهاد في المهادنة والجهاد ، ص١٩٩–٢٠٠ ، (تحقيق اسماعيل العربي) ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر، ١٩٨٤م ٠

(٤) ابن سعيد، نور الدين أبو الحسن علي بن موسى ،(ت٦٥٨هـ)٠ المغرب في حلى المغرب ، ج٢ ، ص١٩٣ ، (تحقيق شوقي ضيف) ،دار المعارف ،مصر،١٩٦٤م .

(٥) الحموي ، معجم البلدان ، ج ٥ ،ص٥٢ .

(٦) الحميري ، الروض المعطار ، ص ٥١٧ – ٥١٨ .

(٧) الحميري ، السابق ، ص ٥٣٧ .

(٨) البكري ، أبو عبيد ، المسالك والممالك ؛ جغرافية الأندلس وأوروبا ، ص ٩٤–٩٥ ، (تحقيق دي سلين) ، الجزائر، ١٨٥٧م .

(٩) القزويني ، زكريا بن محمد بن محمود ، (ت١٢٨٣ م). آثار البلاد وأخبار العباد ، ص ٥٠٥ ،بيروت ،١٩٦٠م .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومناخها المعتدل ، و " فحصها (١) الأفيح المشبه بالغوطة – حديث الركاب وسمر الليالي– قد دحاه الله في بسيط تخترقه الجداول والأنهار ، وتتزاحم به القرى والجنات " (٢) .

وكان من الطبيعي أن تؤثر هذه الطبيعة الفاتنة على الغرناطيين ، فتجتذب أنظارهم، وتخلب لباب عقولهم ، وتفتح قرائحهم مثيرة في نفوسهم أدبا يعبرون به عن حسنها وجمالها، ويشيدون بما أنعمه الخالق عليهم من خير قلّما يحظى به آخرون .

ثانيا : الحياة العمرانية :-

تعد غرناطة من أهم الحواضر الإسلامية في الأندلس منذ الفتح الإسلامي، لذا فإن الأثار العمرانية الموجودة فيها ليست محصورة ببني نصر ، لكنهم أخذوا على عاتقهم مهمة الحفاظ على تلك الآثار العمرانية وتطويرها ، بل أضفوا عليها الروعة والجمال ، كما أنهم برعوا في التعبير عن هويتهم وخصوصيتهم بما أشادوه من قصور وأبنية وجوامع ومساجد، وكلها آثار تحمل في تصاميمها وهندستها وبراعتها عظمة الفن العربي الإسلامي الأصيل .

" ولم يكن بناء بني نصر للمساجد إلاّ نتيجة للتوسع الاجتماعي الذي فرضته هجرة سكان المدن التي سقطت تباعاً في أيدي النصارى ، وحتى هذه المساجد ، كانت تزخر بالزخارف التي تلهي المسلم عن صلاته ، وتجعل منها قصوراً خياليّة تسبح في زخارفها وتنسيقاتها الأبصار دون ملل " (٣) .

من أهم مساجد المملكة (المسجد الجامع) بالحمراء ، وقد بناه السلطان أبو عبدالله محمد الثالث حفيد بني الأحمر (٤) بالقرب من قصر الحمراء ، وأنفق عليه وتألق في زخرفته وهندسته، و "جعل سقفه تعتمد على أعمدة كثيرة بديعة الصنع تيجانها وقواعدها من الفضة"(٥).

---

(١) الفحص : ما استوى من الأرض ، والجمع فحوص ٠ ابن منظور ، لسان العرب ، مادة : فحص ٠
(٢) ابن الخطيب ، اللمحة البدرية في الدولة النصرية ، ص ١٣.
(٣) سالم ،السيد محمود عبد العزيز، (١٩٥٨م)٠ المساجد والقصور الإسلامية بالأندلس ، ص١١٢ ، مصر: دار المعارف.
(٤) ابن الخطيب ، الإحاطة ، ج ١ ، ص ٥٤٦ – ٥٤٧ ٠ و سالم ، المساجد والقصور الإسلامية باللأندلس، ص١١٠ .
(٥) خفاجي ،محمد عبد المنعم ، (١٩٥٦م)٠ قصة الأدب في الأندلس ، ج١ ،ص٥٩ ، الأزهر : المطبعة المنيرية .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد اقتضت سياسة إسبانيا المتعصبة "أن تقلب كل مساجد المسلمين إلى كنائس" (١) وتمحو ملامح المدن الأندلسية ، لكن تبقى غرناطة "غنية بماضيها الإسلامي ، ولا يزال اسم عجيب مقترنا باسمها ، كلما جاء ذكرها ، وهو اسم الحمراء" (٢) .

وأهم معلم حضاري في غرناطة ، الحمراء ، "فهو ذلك الصرح الذي يُمثل عصراً بأسره، وحضارة بأسرها " (٣) ، وأبرز ما فيه قصر الحمراء لأنه "معجزة لفن العمارة العربي ، وآية في إبداع نقوشه وشموخ أبراجه واتساع باحاته ، وردهه الأنيقة ، وقببه العالية ....(٤) .

لقد أبدع الصناع فيه أيما إبداع ، وازدانت جنباته بالنقوش والزخارف ، ونقشت الأبيات الشعرية في رَدَهاته ، حتى يُخيّل للناظر أنه يحتوى ديوان شعر ، يتغنى بجماله ، وروعة بنائه (٥) .

وتعد (المدرسة اليوسيفية) (٦) أو (مدرسة غرناطة) التي تقع قرب الجامع الكبير صرحاً حضارياً تُدرس فيه العلوم المختلفة ، حتى إنها كانت تُسمى (بالجامعة النصرية) (٧) .

ومن الجدير بالذكر الإشارة إلى حرص الغرناطنيين ، وملوك بني نصر على بناء الحصون والقلاع والقواعد الحربية ، وتشييد الخطوط الدفاعية ، حتى يضمنوا لمملكتهم سيادة أطول وملكا أرسخ .

---

(١) عنان ، محمد عبدالله ، (١٩٣٠م)٠ ديوان التحقيق والمحاكمات الكبرى ، ط١ ،ص ٤١ ، القاهرة :مطبعة دار الكتب المصرية .

(٢) بروفنسال ، ليفي ، (١٩٥١م)٠ سلسلة محاضرات عامة في أدب الأندلس وتاريخها ،ص٥٦ ، ترجمة محمد عبد الهادي شعيرة ، القاهرة : المطبعة الأميرية ٠

(٣) عنان ، نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين ، ص٥٤٦ .

(٤) خليفة ، حسن ،(١٩٦٦ م)٠ تاريخ العرب في إفريقية والأندلس ، ص ٢٥٨ .

(٥) انظر في وصف قصر الحمراء : عنان ،نهاية الأندلس ،ص ٢٩٤ -٢٩٨ ٠ وأمين ، أحمد ،(١٩٦٩م)٠ ظهر الإسلام، ط٣ ،ص٢٩٦ ، بيروت : دار الكتاب العربي . وجرار، صلاح، (١٩٩٩م)٠ديوان الحمراء ، ط١ ،بيروت : المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

(٦) نسبة إلى بانيها (يوسف أبو الحجاج) سنة ٧٥٠هـ ، ١٣٤٩ م .

(٧) ابن الخطيب ، اللمحة البدرية ، ص ٩٦ ٠ وانظر أوصافها العمرانية عند : بروفنسال ، سلسلة محاضرات في أدب الأندلس وتاريخها ، ص ٦٧ ٠ وانظر أوضاعها الحالية عند : عنان ، محمد عبد الله ،(١٩٦١م)٠ الآثار الأندلسية الباقية في اسبانيا والبرتغال، ط٢، ص ١٤٤ ، القاهرة : مؤسسة الخانجي .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد اهتدى السلطان الغني بالله (١) في فترة حكمه الثانية الى إنشاء المارستان (المستشفى النصري) سنة (٧٦٧هـ) ، وهو بناء ضخم ، ذو موقع مميز، يضم العديد من الساحات والغرف والمرافق العامة (٢) .

ثالثا : الحياة السياسية :-

تميز الوجود العربي في الأندلس بالقوة والسيادة في بداياته ، واستمر الوضع كذلك في عهد الولاة ، وعهد الخلافة الأموية ، لكن مع بداية عهد ملوك الطوائف دب الضعف في أوصال الدولة العربية في الأندلس ، بسبب الصراع بين أمراء المروانيين على الخلافة ، وقد قلل هذا الضعف من هيبة الدولة في الداخل والخارج بل أغرى الطامعين فيها وجرأهم عليها .

وكان كل من يأنس في نفسه القدرة من رؤساء الطوائف من العرب والموالي يستقل بإمارته ، فما إن بلغت الدولة الأموية نهايتها ، وانفرط عقدها ، حتى استحالت إلى دول كثيرة صغيرة ، ومع قدوم المرابطين إلى الأندلس لم يتحقق النصر المرجو ، فقد ظلت بلاد الأندلس تترنح تحت أشنع ضروب الخلافات والانقسامات .

وفي أعقاب دولة المرابطين قامت دولة الموحدين الذين استطاعوا أن ينزعوا الحكم ويمسكوا بزمام الأمور ، إلا أن الهزيمة التي لحقت بهم إثر معركة (العقاب) (٣) سنة (٦٠٩هـ) ، جعلت الأندلس في مهب الريح ، يتنازعها الولاة والحكام ، و"حل بها من الروم ما يلين له القاسي ، وتنهّد له الجبال الرواسي"(٤) .

ولا بد من إشارة سريعة لمراحل تاريخ الدولة النصرية ،التي قدر لها أن تدوم نحو قرنين ونصف من الزمان ،على الرغم من أمرين:الصراع غير المتكافئ وقتذاك بين النصرانية

---

(١) الغني بالله محمد الخامس بن أبي الحجاج يوسف اسماعيل ، أحد ملوك بني نصر، حكم من (٧٥٥ – ٧٦٠ هـ) في المرة الأولى ، ومن (٧٦٣ – ٧٩٣ هـ) في المرة الثانية .

(٢) ابن الخطيب ، الإحاطة ، ج٢، ص ٥٠ –٥١ ، و المقري ، نفح الطيب ، ج٣ ،ص ١٥١ .

(٣) تقع بين جيان وقلعة رباح ، انظر أخبارها عند المقري ، نفح الطيب ، ج٤، ص ٣٨٣ ، والحجي ، التاريخ الأندلسي ، ص ٤٩٠-٤٩٦ ، و عنان ، نهاية الأندلس ، ص ١٩ .

(٤) المراكشي ،ابن عذاري أبو عبدالله أحمد بن محمد ، (ت٦٩٥هـ)٠ البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ، ج٣ ، ص ٣٢٣، (تحقيق ومراجعة كولان وليفي بروفنسال) ، دار الثقافة ، بيروت .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والإسلام ، والحروب الداخلية التي عانت منها مملكة غرناطة، تلك التي تعاقب الحكم فيها من أبناء محمد بن يوسف بن نصر (١) وأحفاده عشرون ملكا ٠

عصر التأسيس :-

قامت مملكة غرناطة على إثر انهيار دولة الموحدين في الأندلس ، وتأسست على يد الشيخ محمد بن يوسف بن نصر الذي استطاع السيطرة على قرطبة واشبيلية .

إلا أنه عاد وخضع لأبي عبد الله بن هود (٢) الذي استقل بشرق الأندلس ، وخرج عن طاعة الموحدين آنذاك (٣) .

وعندما قتل ابن هود في المريّة عام (٦٣٥هـ) (٤) عاد محمد بن يوسف بن نصر ودخل غرناطة في أخريات رمضان سنة (٦٣٥هـ) بعد أن أُخذت له البيعة (٥) ، وبنى بها حصن الحمراء(٦) لتكون عاصمة ملكه ، وقد استطاع ابن الأحمر أن يستميل ملوك العدوة و إفريقيا ، وأن يكسب الدعم المادي والمعنوي من السلطان العباسي ، حتى اشتد عوده ، وأرسى دعائم مملكته ، ووطد أركانها إلى أن توفي سنة (٦٧١هـ) ، ودُفن بالمقبرة الجامعة العتيقة بالسبيكة(٧).

وتولى الحكم من بعده ولده أبو عبدالله محمد المعروف "بالفقيه" ، وكان والده قد عقد له البيعة لولاية العهد في حدود عام (٦٦٢هـ) (٨) ليقرر وراثة الحكم من بعده .

---

(١) يرجع نسبه إلى سعد بن عبادة من الخزرج ، وقد بويع له عام ٦٢٩هـ ، وقد عرف بابن الأحمر ، ولُقب بأمير المسلمين ، وذلك في سنة ٦٣٥هـ ، ١٢٣٧ م ، وقد غلب هذا اللقب على خلفائه من بعده ، وهو من ذرية سعد بن عبادة سيد الخزرج ، وأحد كبار صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ٠ابن خلدون ، عبد الرحمن بن خلدون المغربي،(ت٨٠٨هـ)٠ العبر وديوان المبتدأ والخبر ،ط٣ ،ج٤،ص٣٦٧ ،دار الكتاب اللبناني ، بيروت ،١٩٦٦م٠ و ابن الخطيب ، اللمحة البدرية ، ص ٣٠ ، والإحاطة ج٢ ، ص ٩٢ ، والمقري ، نفح الطيب ، ج١ ،ص ٤٤٧ .

(٢) ابن الخطيب ، الإحاطة ، ج٢، ص ٩٤ ٠ و القلقشندي، أبو العباس أحمد بن علي ،(ت٨٢١هـ)٠ صبح الأعشى في صناعة الإنشا ، ج٥، ص ٢٥١ ، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي بمصر ،القاهرة، ١٩٦٣م٠ وانظر المقري ، نفح الطيب ، ج١، ص ٤٤٨ ٠و الفاسي، علي بن أبي زرع ،(د٠ت)٠ الأنيس المطرب بروض القرطاس ،ص٢٧٦، دار المنصور للطباعة والوراقة ، الرباط ، ١٩٧٢م .

(٣) انظر ابن الخطيب ، الإحاطة ، ج١ ، ص ١٢٩ ٠ والمقري ، نفح الطيب، ج١ ، ص ٤٤٧ .

(٤) المقري ، نفح الطيب، ج٤، ص ٣٦٧ ٠ وابن الخطيب، الإحاطة ، ج ٢ ،ص ١٣٢ .

(٥) ابن الخطيب، اللمحة البدرية في الدولة النصرية ، ص ٤٧ .

(٦) القلقشندي ، صبح الأعشى ، ج٥ ، ص ٢٥١ ٠ والمقري ، نفح الطيب ، ج١ ، ص ٤٤٨ .

(٧) ابن الخطيب ، اللمحة البدرية ، ص ٣٦ ٠والفاسي ، الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية ، ص ١٣٦ ٠

(٨) ابن الخطيب ، اللمحة البدرية ، ص٣٦ ، والإحاطة ، ج٢ ، ص ٩٩ ٠و المراكشي ، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ج٣، ص ٤١٥ ٠وقد ذكر فيه المراكشي أن البيعة تمت للفقيه عام ٦٦٥ هـ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وأثناء استمرارية هذه المملكة مدة قرنيين ونصف من الزمن استطاعت أن تحقق انتصارات عدة على الإسبان بفضل مساندة بني مرين سلاطين المغرب لها (١) ، وعلى الرغم من الخوف الذي كان يداخل قلب الفقيه من ازدياد النفوذ المغربي في الأندلس ، إلا أنه استطاع أن يحافظ على العلاقة الطيبة بين الدولتين إلى أن توفي سنة (٧٠١هـ) ، وتولى الحكم بعده أبو عبدالله محمد الثالث الملقب بالمخلوع (٢) وقد استمر هذا السلطان في مقارعة النصارى ، وبنى المسجد الأعظم بحمراء غرناطة(٣).

كما أقام هذا السلطان علاقات ود وتحالف مع القشتاليين والأراغونيين ، وتخلى عن سياسة الاستنجاد ببني مرين ، بل ساءت علاقاته بهم ، فاستولى على سبتة ، وضمها إلى ملكه سنة (٧٠٥هـ) (٤) .

وأرغم السلطان محمد الثالث على توقيع وثيقة خلعه ، والتنازل عن العرش لأخيه أبي الجيوش نصر سنة (٧٠٨هـ) (٥) ، الذي لم يحسن قيادة البلاد ولم يوفق في تدبير أمور المملكة لضعفه ، و"كانت أيامه كما شاء الله أيام نحس مستمرة"(٦) فثارت الفتن والثورات داخل البيت النصري ، وشغب على أبي الجيوش ابن عمه أبو الوليد إسماعيل الأول بن فرج (٧) الذي استقرت أمور المملكة في عهده إلى أن قُتل على يد ابن عمه وهو في غمرة انتصاراته أثناء استقباله في الحمراء (٨) .

---

(١) الفاسي ، الذخيرة السنية ، ص ١٤٠ و١٤٣ فيهما بعض كتب ابن الأحمر التي استنجد فيها ببني مرين .
(٢) المقري ،شهاب الدين أحمد بن محمد،(ت١٠٤١هـ)٠أزهار الرياض في أخبار عياض ، ج٢ ، ص ٣٤١ ،(تحقيق مصطفى السقا وآخرين) ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، مصر،١٩٣٩م٠ وذكر فيه أنه حكم البلاد من ٧٠١هـ – ٧٠٨ هـ .
(٣) ابن الخطيب ، اللمحة البدرية ، ص ٦٠-٦٢ .
(٤) ابن الخطيب ، الإحاطة ، ج ١ ، ص ٥٥٢ ٠ و اللمحة البدرية ، ص ٥٣ .
(٥) انظر الخبر مفصلا عند : ابن الخطيب ، اللمحة البدرية ، ص ٥٤ ٠ وقد استمر حكم أبي الجيوش من ٧٠٨ -٧١٣هـ.
(٦) ابن الخطيب ، الإحاطة ، ج٣ ، ص ٣٣٤ – ٣٣٥ ٠ وابن الخطيب ، اللمحة البدرية ، ص ٥٧ .
(٧) ابن الخطيب ، اللمحة البدرية ، ص ٨٥ .
(٨) ابن الخطيب ،السابق ، ص ٧٤ – ٧٥ ٠ و ابن الخطيب ، الإحاطة ، ج١ ، ص ١٤٨ وص ٤٠٢ ٠ و العسقلاني ، أحمد بن حجر، (ت٨٥٢هـ)٠ الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة ، ج١،ص٤٠٢، (تحقيق محمد سيد جاد الحق)، دار الكتب الحديثة ، القاهرة ٠ يقول : توفي في ذي القعدة ٧٢٦ هـ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

عصـــر القـــوة :-

كان عهد أبي الوليد اسماعيل بداية عصر القوة والتألق، فقد عرف بالشجاعة والحـــزم ، وتميّز بمقدرته على النهوض بأعباء الملك (١) ، وتولى الملك من بعده ابنه أبـــو عبـــدالله محمـــد الرابع سنة (٧٢٥هـــ) (٢) ، وكان فتى صغيراً ، ومع ذلك "كان معدوداً فـــي نـــبلاء الملـــوك ، صرامة، وعزة وشهامة ونُبلاً (٣) ، فهو الذي استطاع أن يخلص جبل الفـــتح (٤) مـــن الإســـبان بمساعدة من المرينيين سنة (٧٣٣هـــ) وقد قتل هذا السلطان على يد جماعة من المتآمرين ســـنة (٧٣٣هـــ) (٥).

ولي العرش من بعده أخوه أبو الحجاج يوسف الأول (٦) ، وفي عهده نعم الناس بـــالأمن والرخاء ، واستطاع بفضل حنكته السياسية القضاء على نفوذ بني أبـــي العـــلاء قتلـــة أخيـــه ، والاستيلاء على الحكم بمساعدة سلطان قشتالة (٧) .

اغتيل أبو الحجاج في يوم عيد الفطر ، أثناء صلاة العيد عام (٧٥٥هـــ) (٨).

آل الحكم بعد ذلك إلى ولده محمد الغني بالله (٩) الذي حاول جاهـــداً أن تـــنعم المملكـــة بالرخاء والأمان، لكن هذا الأمان زعزعه تدخل النساء في السياسة والحكم(١٠) ، وثـــار عليـــه أخوه إســـماعيل واستولى على الحكم . فشعر الغني بالله بمؤامرة تحيق به ، فجاز إلى المغرب

---

(١) العسقلاني ، الدرر الكامنة ، ج١ ، ص ٤٠١ – ٤٠٢ .
(٢) محمد بن اسماعيل بن فرج بن اسماعيل بن نصر الخزرجي ، السلطان السادس للمملكة ، وقد حكم البلاد بعده أبيه من سنة ٧٢٥ هـــ – ٧٣٣ هـــ ، انظر ابن الخطيب ، اللمحة البدرية ، ص ١٠٩ .
(٣) ابن الخطيب ، اللمحة البدرية ، ص ٧٧ .
(٤) جبل طارق .
(٥) ابن الخطيب ، لسن الدين ، (ت٧٧٦هـــ)٠ أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام وما يجر ذلك من شجون الكلام، ص ٢٩٨ ، (تحقيق ليفي بروفنسال) ، دار المكشوف ،بيروت ١٩٥٦م٠ وعنان ، نهاية الأندلس ، ص ١٢٥ .
(٦) السلطان السابع للمملكة ، حكم من ٧٣٣ – ٧٥٥ هـــ ٠ ابن الخطيب ، اللمحة البدرية ، ص ١٠٩ .
(٧) السخاوي ، شمس الدين محمد بن عبد الرحمن ، (ت٩٠٢ هـــ)٠الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ،ج١،ص٦٨،مكتبة القدسي ، القاهرة ، ١٣٥٤ هـــ .
(٨) ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، ص ٣٠٦ .
(٩) حكم الأندلس من سنة ٧٥٥ – ٧٦٠ هـــ ٠ وقد خلع بعدها. السخاوي ، الضوء اللامع ، ج ١٠ ،ص ٦٨ .
(١٠)ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، ص ٣٠٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مصطحباً معه وزيره لسان الدين بن الخطيب ــ تلبية لطلب أبي سالم المريني سلطان المغرب، الذي أجل قدومه ، واستقبله بكل حفاوة وتقدير (١).

ولم يدم سلطان اسماعيل الثاني طويلا ، فقد قتل بعد سنة واحدة من تسليمه الملك ، على يد صهره (٢) وبعد مقتله سعى السلطان الغني بالله لاسترداد ملكه ، وبدأت المرحلة الثانية من حكمه وامتدت ما بين (٧٦٤هـ – ٧٩٣هـ) ، وقد اتسمت علاقات غرناطة مع النصارى في عهده بالمسالمة ، لذا فقد عاشت غرناطة عصراً مليئاً بالسؤدد والرخاء والدّعة ، حتى توفي عام (٧٩٣هـ) (٣) وخلفه ولده أبو الحجاج يوسف الثاني (٤) الذي كان ضعيفاً ما لبث أن طلب الهدنة من ملك قشتالة ، بل أطلق عدداً من الأسرى الإسبان الذين أسروا خلال المعارك السابقة ، كل ذلك في مقابل الحصول على الأمن والاستقرار، الأمن الذي يولده الضعف ، وليس الأمن الذي تكتنفه القوة !!! .

واستلم الحكم بعد ذلك ولده محمد بن يوسف بن محمد الغني بالله (٥) ، ومن بعده أخوه يوسف الثالث (٦) وقد كان هؤلاء السلاطين يدافعون عن وجود دولتهم ويستغيثون بالدول الإسلامية الأخرى ليعينوهم على دحر النصارى ، والحد من انتشار مرض الطاعون (٧) .

إن عصر بني الأحمر أسوأ عصر مني به المسلمون بالأندلس ! ففيه كثرت الفتن والانقلابات ، وفيه حروب مقدسة متصلة بين أبناء الديانتين ، تنحسر فيها رقعة المسلمين على أرض الأندلس شيئا فشيئا أمام المد المسيحي !

وفيه نجدة من ملوك المغرب وتونس لإخوانهم مسلمي الأندلس حيناً ، وقعود منهم عن هذه النجدة أحيانا ، وفيه سلاطين أقوياء من بني الأحمر وقفوا في وجه العدو وقهروه ،

---

(١) الناصري ، أبو العباس أحمد السلاوي ، (ت١٨٩٧هـ)٠ االاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ، ج٤ ، ص ٨ – ١٢،(تحقيق جعفر ومحمد الناصري) ، مطبعة دار الكتاب ، الدار البيضاء ، ١٩٦٥م٠

(٢) ابن الخطيب ، الإحاطة ، ج٢ ،ص ٢٩ – ٣٠ ٠ وابن الخطيب ،لسان الدين ، (ت٧٧٦هـ)٠ نفاضة الجراب ، ص ١٠٣، (تحقيق أحمد مختار العبادي) ، دار الكاتب العربي ، القاهرة ، ١٩٦٨م٠

(٣) القلقشندي ، صبح الأعشى ، ج٥ ، ص ٢٥٣ ٠ والمقري ، أزهار الرياض ، ج٢ ، ص ١٨٢ .

(٤) حكم من (٧٩٣ – ٧٩٧ هـ) .

(٥) حكم من (٧٩٧ – ٨١٠ هـ) .

(٦) حكم من (٨١٠ – ٨٢٠ هـ) .

(٧) التنبكتي ، أبو العباس أحمد بابا الصنهاجي السوداني ، (١٠٣٦هـ)٠ نيل الابتهاج بتطريز الديباج ، ص ٢٠٧، طبع عباس بن عبد السلام بالقحامين ، مصر ، ط١ ، ١٨٩٩م.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وآخرون ضعفاء تخاذلوا أمامه ودخلوا في طاعته وتنازلوا له عن بعض أملاكهم ، كما فيه صراع ضارٍ على الحكم بين سلاطين بني الأحمر دفع بعضهم إلى موالاة أعداء الأمة والإسلام في سبيل تحقيق مطامعهم الشخصية وانتصاراتهم على منافسيهم .

عصر الضعف :-

ويُعد هذا العصر من أحلك مراحل التاريخ الأندلسي ، فقد تعرض عرش غرناطة منذ مطلع القرن التاسع الهجري وحتى نهايته للانهيار، وحكمت المملكة طائفة من الأمراء الضعاف، وأصبحت المدن الأندلسية تتهاوى وتسقط بيد النصارى كلما أودت " الفتن الداخلية بغرناطة في أواخر القرن الخامس عشر الميلادى ، وإنه كان لأسر بني الزعزى ، وبني سراج، وبني بنغاس ، اشتراك في تلك الفتن"(١).

وفي تلك الأونة فقدت غرناطة أقوى حلفائها ، دولة بني مرين التي انشغلت في حروبها الداخلية والطاحنة عن الجهاد في الأندلس ، ولم تستطع غرناطة الصمود في وجه اتحاد مملكتي قشتالة وأراغون عام (٨٨٣هـ) الذي تم بعد زواج (فرناندو) و(إيزابيلا) (٢) ، واحتل النصارى جبل طارق عام (٨٦٧هـ) ، وكان أبو عبدالله محمد آخر سلاطين العرب في الأندلس ، وقد ثار على أبيه بتحريض من أمه سنة (٨٨٧هـ) وخاض أبو عبدالله الصغير عدة معارك ضد إسبانيا حتى وقع في الأسر سنة (٨٨٨هـ) (٣) ، وحاصرت الجيوش النصرانية غرناطة وضيقوا عليها الخناق ، واتفق مع ذلك أن حاصرتها الثلوج وانقطعت عنها المؤن (٤)، وبهذا لفظت الدولة النصرية آخر أنفاسها، وغربت شمس الإسلام عن الأندلس ، وطويت الصفحة الأخيرة من صفحات التاريخ العربي في الأندلس .

---

(١) سيد يّو ، ل٠أ ، (١٩٤٨م)٠تاريخ العرب العام ، ص٣٦٨ ، ترجمة عادل زعيتر ، دار إحياء الكتب العربية .
(٢) عنان ، نهاية الأندلس ، ص ١٩٤ – ١٩٥ .
(٣) مجهول ، نبذة العصر في انقضاء دولة بني نصر ، ط١، ص ٣٧٩ ، (تحقيق محمد رضوان الداية) ، دار حسان للطباعة والنشر ، دمشق ،١٩٨٤م٠
(٤) انظر تفصيلات سقوط غرناطة وتسليمها للإسبان في كتاب نبذة العصر ، ص ١٢٤ وما بعدها ٠وانظر عنان ، نهاية الأندلس ، ص ٢٤٤ – ٢٥٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

رابعا : الحياة الاجتماعية :-

كان سكان الأندلس منذ الفتح الإسلامي يتكونون في الغالب من ثلاثة عناصر أساسية هي:العرب والبربروالمولدون ، وكذلك بقي الحال في مملكة غرناطة حيث شكل العرب العنصر الأساسي من سكانها ، وقد ذكر لسان الدين بن الخطيب العديد من الأنساب العربية التي ينتمون إليها (١) ٠

والمجتمع الأندلسي مجتمع طبقي فيه الأحرار والعبيد ، والخاصة والعامة ، والخاصة هم التجار وكبار الملاكين والمترفين ، أما العامة فهم العمال والفلاحون والأجراء، وغيرهم من السكان البسطاء الذين يشكلون الطبقة الفقيرة في المملكة (٢) ومذهب أهل غرناطة ، هو مذهب أهل الأندلس، المذهب المالكي (٣) ، "فأحوال أهل هذا القطر في الدين وصلاح العقائد أحوال سنيّة ، والأهواء والنحل فيهم معدومة ، ومذاهبهم على مذهب مالك بن أنس إمام دار الهجرة جارية (٤).

ورغم الشدائد والمحن والفتن الداخلية والانقسامات التي ذكرها التاريخ عن المجتمع الغرناطي، فإن ابن الخطيب يؤكد في وصفه سكان غرناطة بقوله : "وطاعتهم للأمراء محكمة ، وأخلاقهم في احتمال المعاون الجبائية جميلة" (٥) فقد عاش الشعب الأندلسي متآخياً ، متماسكاً ، يحاول أن يصمد أمام كل ما يهدده من الخارج، أما تلك الانقسامات فقد كانت نتيجة حتمية لخلافات وفتن كانت تحدث دائما بين أفراد الأسرة الحاكمة ، وأكبر دليل على تماسك هذا المجتمع ، أن الغنى كان أكثر شيوعاً من الفقر ، كما قال ابن الخطيب " الغنى بمدينتهم طاش"(٦)، كما أنشئت في مملكتهم دار لرعاية العجزة (٧) ، ورغم تعدد الديانات في هذا المجتمع

---

(١) ابن الخطيب ، الإحاطة ، ج١ ، ص١٣٥ . واللمحة البدرية ، ص٢٦-٢٧.
(٢) فرحات ، يوسف شكري ،(١٩٨٢م)٠ غرناطة في ظل بني الأحمر ، ط١ ، ١١٨-١١٩ ، بيروت : المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع .
(٣) ابن الخطيب ، الإحاطة ، ج ١ ، ص ١٤١ .
(٤) ابن الخطيب، اللمحة البدرية ، ص ٢٧ .
(٥) ابن الخطيب ، الإحاطة ، ج١ ، ص ١٣٤ ٠ اللمحة البدرية ، ص ٢٧ ٠
(٦) ابن الخطيب ، الإحاطة، ج١ ، ص ١٣٧ ٠
(٧) فرحات ، غرناطة في ظل بني الأحمر ، ص ١٦٤ ٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إلا أن كل جماعة كانت تستوفي حقوقها حسب ما يقتضيه الشرع ، كما أن الجماعات التي كانت لا تدين بالإسلام تستبعد عن وظيفة الجباية لما لها من مدلول ديني ، وقد جُعل لليهود مثلا شارة يُعرفون بها عبارة عن "شواشي صفر" لتُستوفى حقوقهم (١).

ومن أهم طبقات المجتمع الأندلسي طبقة العلماء والفقهاء ، فقد كان العالم "موضعاً للتكريم من جيرانه ، كما كان يُراعي جانبه إذا ما أراد ابتياع سلعة أو شراء شيء من أغراض الحياة"(٢) .

وكان للفقهاء خاصة حضورٌ مميز في غرناطة ، يشاركون في الحكم ، ويصوغون القرارات ، وكان الحكام يهتمون ببعض رجال الدين ، والتبرك بهم ، فجعفر الخزاعي (٣) كان متصوفاً على طريقة الحسين بن منصور الحلاج ، وكان له جماعة يشايعونه ، "... وربما استدعاهم السلطان إلى مقره في لطايف نعيمه ، باخشيشانهم ، مبدياً التبرك بهم " (٤) .

ومملكة غرناطة كانت كثيرة الخيرات ، فقد رأى ابن بطوطة العنب في مالقة " يُباع في أسواقها بحساب ثمانية أرطال بدرهم صغير "(٥) ، وكانت أسواق الغرناطيين الداخلية تعج بالناس ، وتكثر فيها عمليات البيع والشراء بنقود فضية وذهبية مثل؛الدرهم ونصفه القيراط ، ونصفه وهو الربع ، وكانت مسكوكاتهم تُرصع بعبارة "لا إله إلا الله ، محمد رسول الله " من ناحية، وفي الناحية المقابلة بعبارة "لاغالب إلا الله" وهي شعار الدولة النصرية ، وقد تنقش على هذه النقود وهذه المسكوكات آيات من القرآن الكريم ، أو أسماء سلاطيين المملكة ، وهذه المسكوكات كانت تحت إمرة وتصرف دار الملكية في المملكة (٦).

وقد عرف عن الغرناطين اهتمامهم بأناقتهم ، واختيارهم لألبستهم اختياراً يتناسب مع طبيعة الفصل الذي هم فيه ، فقد " كانوا يلبسون الملف المصبغ شتاء"(٧) . و"الكتان والحرير

---

(١) ابن الخطيب ، اللمحة البدرية ، ص ٤١ ، والإحاطة ، ج١ ، ص ٣٩٦ ، والشواشي عبارة عن غطاء يوضع على الرأس .
(٢) المقري ، نفح الطيب ، ج١ ، ص ٢٢٠ .
(٣) هو جعفر بن أحمد بن الخزاعي ، توفي عام ٧٦٥ هـ .ابن الخطيب ، الإحاطة ، ج١ ،ص ٤٦٧-٤٦٨ .
(٤) ابن الخطيب ،السابق ، ج١ ،ص ٤٦٨ .
(٥) رحلة ابن بطوطة ، ص ٦٧٠ .
(٦) ابن الخطيب ، الإحاطة ، ج١ ، ١٣٧-١٣٨ .
(٧) ابن الخطيب ، اللمحة البدرية ، ص ٣٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والقطن والمرعزي والأردية الإفريقية والمقاطع التونسية، والمآزر المشغولة صيفاً " (١) .

أما أهل غرناطة فـ "صورهم حسنة ، معتدلة أنوفهم ، بيض ألوانهم ، مسدولة غالباً شعورهم ، متوسطة قدودهم ، فصيحة ألسنتهم " (٢) .

ويشير المقري إلى أن أهل الأندلس " أشد خلق الله اعتناء بنظافة ما يلبسون وما يفرشون، وفيهم من لا يكون عنده إلا ما يقوته يومه ، فيطويه صائما ويبتاع صابوناً يغسل به ثيابه " (٣) .

أما المرأة الغرناطية في عصر بني الأحمر ، فقد كان لها حضور مميز يؤهلها في بعض الأحيان لتحلّ محل زوجها القاضي إذا جاءه بعض المتخاصمين فلم يجدوه ، وكانت تحسن فعل ذلك فتفصل بينهم كما يجب (٤) كما كانت تشارك في المناسبات العامة كاستقبال السلاطين في زياراتهم للأقاليم (٥) ، ورغم ما عرف عن هذه المرأة من تبرج زائد ، وتماجن في أشكال الحلي (٦) إلا أنها كانت في المقابل تعتني بما تقدمه لعائلتها من طعام متنوع ، تتفنن في صناعة مختلف صنوفه ، وتحسن ادخار الطعام والمؤن ، وتجفيف الفواكه لتؤكل في غير فصولها(٧) .

ومن مظاهر الحياة الاجتماعية في مملكة غرناطة ، مبالغة أهلها في احتفالهم وتكريمهم للموتى ، ويحدثنا ابن الخطيب عن جنازات نفر لها الناس من كل أوب ، وجنازات كان يشارك بها السلطان أحياناً في تشييع الموتى ، (٨) ومن اللافت أن أهل الأندلس كانوا يلبسون ملابس بيضاء للتعبير عن حزنهم (٩) ، كما انتشرت عندهم بعض البدع السيئة مثل التبرك بالجنائز والتوجه إلى القبور (١٠) .

---

(١) ابن الخطيب ، اللمحة البدرية ، ص ٣٩ .
(٢) ابن الخطيب ، السابق ، ص ٣٨ .
(٣) المقري، نفح الطيب ، ج١ ، ص ٢٢٣ .
(٤) التنسي ، ابو عبد الله محمد بن عبد الله ، (ت ٨٩٩ هـ)٠ نظم الدرر والعقيان في شرف بني زيان ، ق٤،ص٣١٤-٣١٥، (تحقيق نورى سودان) ، مطبعة فرانس شتاينر بفسبادن ، ١٩٨٠ م٠
(٥) ابن الخطيب ، لسان الدين ،(ت٧٧٦هـ)٠ مشاهدات لسان الدين ابن الخطيب في بلاد الأندلس والمغرب ،ص٥٠، وهي مجموعة رسائله ، (تحقيق أحمد مختار عبادي)، جامعة الإسكندرية ، ١٩٨٠ م .
(٦) ابن الخطيب ، الإحاطة ، ج١ ، ص ١٤٥ .
(٧) السابق، ص ١٣٧ ٠وابن الخطيب ،اللمحة البدرية ، ص ٢٨ – ٢٩ .
(٨) ابن الخطيب ، الإحاطة ، ج٤ ، ص ١٤٧ .
(٩) المقري ، نفح الطيب ، ج٣ ، ص ٤٤٠ .
(١٠) ابن الخطيب ، الإحاطة ، ج٣ ، ص ٢٧٢ – ٢٧٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد انتشرت في المجتمع الغرناطي كثير من الهوايات ، منـــها المبارزة التي كانت تنظم في حفلات ، وتعقد بين الفرسان المسلمين والنصارى في أعــظم ساحات المـــــدينة (١)، كمـــا عرف الغرناطيون لعبة الشطرنج (٢) ، ولعبة مصارعة الثيـــران (٣) .

ويعد جلوس بعض القصاصين الذين كانـــوا يجمعـــــون النـــاس فـــي الأنديـــة العامـــة ويرددون لهم أخبـــار العرب ، وسير عظـــمائهم ، على شكل قصصي بمهـــارة فائقة (٤) أمـــرٌ بالغ الأهمية في تشكـــيل الحياة الاجتماعية فـــي المجتمـــع الغرنـــاطي ، وهنـــاك العديـــد مـــن الموضوعات والإشارات في طيات الكتب التي تتحـــدث عن هذه الفترة التـــي يمكـــن أن تفـــتح مجالاً للكثير من التفـــاصيل عن الحياة الاجتماعية ، ولا مجـــال للتوسع فيها في هذه الدارســـة.

---

(١) عنان ، نهاية الأندلس ، ص ١٤١ .
(٢) ابن الخطيب ، الإحاطة ، ج١ ، ص١٣٩ .
(٣) فرحات ، غرناطة في ظل بني الأحمر ، ص ١٣٧ .
(٤) فرحات ، السابق ، ص ١٤٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

خامسا : الحياة الاقتصادية :-

شهدت المملكة في عصر الدولة النصرية وضعاً اقتصادياً مستقراً ، استند على الموارد الطبيعية من جهة ، وعلى اهتمام سلاطينهم بالزراعة والصناعة من جهة أخرى ، ولولا متانة هذا الاقتصاد لانهارت المملكة عند أول حرب ، أو فتنة، أو انقلاب كان يعتري صفوفها .

و كانت الزراعة مصدراً رئيسياً من مصادر رزق المملكة ، وقد ازدهرت في عصر بني الأحمر ازدهاراً ملحوظاً ، اعتمد في صلبه على استغلال خصوبة أراضي المملكة ، واعتدال مناخها ، وتعدد مصادر الري فيها ، مما أدى إلى تمكينهم من إنعاش تلك الأراضي بزراعتها وإحالتها إلى جنات خضراء ، وبساتين تتراقص على أغصان أشجارها الفواكه التي "يعجزُ عنها الوصف حسناً "(١) .

وقد عملت يد الفلاح الأندلسي في خدمة الأرض والحدائق وتنقيتها من الأحجار والأعشاب الطفيلية ، كما عمل الفكر الفلاحي والهندسي في توزيع الري ، واختيار التربة للغراسة وتقليم الأشجار (٢) .

كما برع الغرناطيون في استغلال عقليتهم الاقتصادية التي هدتهم إلى تجفيف الفاكهة كي تؤكل في غير موسمها ، فقد كانوا "يدخرون العنب سليماً من الفساد الى شطر العام ، إلى جانب غيره من التين والزبيب والتفاح والرمان والقسطل والبلوط والجوز واللوز إلى غير ذلك مما لا ينفدْ ، ولا ينقطع مدده إلا في الفصل الذي يزهد في استعماله " (٣) .

وقد أشار ابن الخطيب إلى ذكاء الغرناطيين ومهارتهم في الحصول على مواسم متتابعة من الفاكهة والغلال طوال أيام السنة ، حيث قال : " ومن فضائلها أن أرضها لا تعدم زريعة ولا ريعاً أيام العام " (٤) .

---

(١) المقري ، نفح الطيب ، ج١ ص، ١٦٣ .
(٢) السائح ، الحسن بن محمد ، (١٩٨٧م)٠ منوعات ابن الخطيب ، ص٢٩، المملكة المغربية : وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية .
(٣) ابن الخطيب ، الإحاطة ، ج١ ، ص ٣٧ ، واللمحة البدرية ، ص ٢٨ – ٢٩ .
(٤) ابن الخطيب ،اللمحة البدرية ، ص ١٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويذكر أن الغرناطيين قد عنوا بتربية المواشي ، والاستفادة من لحمها وصوفها (١) ، كما تمتعت سواحل مملكتهم بثروة سمكية هائلة ، وصفها ابن الخطيب قائلاً بأن "حوت هذه السواحل أغزر من رمله ، تعدو القوافل إلى البلاد لحمله"(٢) .

ولعبت الصناعة دوراً كبيراً في تشكيل الحالة الاقتصادية للمملكة ، فقد استغل الغرناطيون تلك الثروة الضخمة من المواد الخام التي منحها الله لهم كالذهب والحديد والفضة والنحاس والرصاص والرخام وحجر التوتيا (٣) .

ويذكر الطوخي أن دور الصناعة في المملكة أثارت إعجاب الرحالة الأجانب آنذاك(٤)، فقد كانت تصنع الفخار المذهب العجيب ، ويجلب منها إلى أقاصي البلاد (٥) .

كما شكلت صناعة الحرير والكتان أعظم موارد المملكة آنذاك (٦) ، هذا بالإضافة إلى صناعة الأسلحة والذخائر المختلفة وهذا ما جعلها قوية عسكرياً ، وقادرة على مقارعة أعدائها، والصمود في مواجهتهم مدة طويلة (٧) .

كان من الطبيعي أن تنشط حركة التجارة في المملكة ، فأمام هذا الكم من المنتوجات الزراعية والصناعية ، كان لابد أن تُفعّل التجارة على صعيدها الداخلي والخارجي ، وقد ساعد موقع المملكة الجغرافي المتميز ، وقربها من الممالك الأوروبية والعالم الإسلامي ، على تنشيط هذه الحركة، "وقد ذكرت كتب الباحثين والمورخين أن تجارة الغرناطيين البحرية قد راجت كثيراً وتجاوزت السواحل الإفريقية المجاورة ، وامتدت حتى سواحل الشام والإسكندرية ، ووصلت إلى سواحل إيطاليا "(٨) .

---

(١) ابن الخطيب ،لسان الدين ،(ت٧٧٦هـ)٠ معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار ،ص٨٢، (تحقيق محمد كمال شبانة)، طبع الكتاب تحت إشراف اللجنة المشتركة لنشر التراث الإسلامي بين المملكة المغربية ، ودولة الإمارات العربية المتحدة، مطبعة فضالة المحمدية ، المغرب ، ١٩٧٧م٠

(٢) ابن الخطيب ،السابق ، ص ٨١ .

(٣) ابن الخطيب ، اللمحة البدرية ، ص ١٣ ٠

(٤) الطوخي،أحمد،(١٩٦٦م)٠مظاهرالحضارة في الأندلس في عصر بني الأحمر،ص١٤٤،الإسكندرية:مؤسسة شباب الجامعة٠

(٥) رحلة ابن بطوطة ، ص ٦٧ ٠

(٦) الحميري، صفة جزيرة الأندلس ، ص ٢٣-٢٤ ٠

(٧) المقري ، نفح الطيب ، ج١ ، ص ١٨٨ ٠

(٨) سرميني ،محمد وليد ، خصائص الشعر الأندلسي في عصر غرناطة ، ص١٥،رسالة ماجستير ،غير منشورة، جامعة حلب ، سوريا ، ١٩٨٦م ٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد سبق الحديث عن الأسواق التي كانت منتشرة في مدن غرناطة،وعن تعامل الغرناطيين بالنقد، كما تعاملوا في معاهداتهم واتفاقاتهم التجارية مع الدول المجاورة بكل صدق وأمانة،حتى اعتبرت وعودهم عقوداً موثقة يُعتمد عليها أكثرمن الاعتماد على العقود الموقعةمن الإسبان(١)٠وهكذا أصبحت غرناطة خلال القرنيين الثامن والتاسع الهجريين من أهم المراكز التجارية في أوروبا .

سادسا : الحياة الفكرية والثقافية :-

كان من الطبيعي أن تنشأ في ظل ذلك الرخاء الاجتماعي والاقتصادي حركة فكرية ثقافية مفعمة بالحيوية في كافة مجالات الثقافة والفن : وأهم ما يشار له في هذا المبحث ، هو الحديث عن ظاهرتين أدتا دوراً أساسيا في تنشيط الحركة الفكرية والأدبية ودفعها نحو الأزدهار، وهما التعليم أولا ، وتشجيع الملوك النصرين لأهل العلم والأدب من خلال ديوان الإنشاء ثانياً (٢) .

أ – التعليم :-

كان أهل الاندلس شديدوا الحرص على التعلّم "ومع هذا فليس لأهل الأندلس مدارس تعينهم على طلب العلم ، بل كانوا يقرؤون جميع العلوم في المساجد بأجرة"(٣) إلى أن تأسست المدرسة النصرية أو اليوسيفية (٤) التي أنشئت في عهد يوسف الأول عام (٧٥٠ هـ) ، وما خُصص لها من أوقاف قد ملأ الفراغ وأعاد مجانية التعليم (٥) .

---

(١) عنان ، نهاية الأندلس ، ص ٤٤٨ .
(٢) الطرابلسي ، حسناء أبو زويتة ،(٢٠٠١م)٠ حياة الشعر في نهاية الأندلس ، ص٥٩، تونس: دار محمد على الحامي ، صفاوة ، مركز النشر الجامعي ٠
(٣) المقري ، نفح الطيب ، ج١ ، ص ٢٢٠ ٠ ويستثنى من هذا التعميم سكان قرطبة الذين عرفوا مجانية التعليم في عهد المستنصر (٣٥٠ – ٣٦٦) عندما أمر باتخاذ المؤدبين لتعليم أولاد الضعفاء والمساكين القرآن حوالي المسجد الجامع وبكل ربض من أرباض قرطبة ، وأجرى عليهم المرتبات ٠المراكشي، البيان المغرب ، ج٢ ، ص ٢٤٠ .
(٤) ذكرتها الدراسة سابقاً ص١٦ .
(٥) ابن الخطيب ، اللمحة البدرية ، ص ١٠٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد تحدث ابن خلدون في مُقدمتة عن التعليم في الأندلس ، وذكر أن أهل الأندلس كانوا "يخلطون في تعليمهم للولدان بين رواية الشعر في الغالب ، والترسل، وأخذهم بقوانيين العربية، وتجويد الخط والكتاب "(١) .

ويُذكر أن "كل العلوم لها عند الأندلسيين حظٌّ واعتناء إلا الفلسفة والتنجيم ، فإن لهما حظاً عظيماً عند خواصهم ، ولا يُتظاهر بها خوف العامة" (٢) .

ويبدو أن تجنّب هذا العلم جاء كونه يُعَد عنصر خلاف وتفرقة ، وهذا ما لا يحتاجه الأندلسيون وهم يعيشون صراعا دائما مع النصارى مما يستوجب التحامهم وتوحّدهم لمواجهة كل ما قد يهدد أمنهم واستقرارهم (٣) .

ب – ملوك بني نصر وديوان الإنشاء :-

كان معظم ملوك بني نصر من محبي العلم والأدب والشعر ، ويمكن أن يستدلّ على حب الأمراء للأدباء والعلماء من خلال زيارة ابن خلدون الأندلس ، حيث "اهتز له السلطان ، وأركب خاصته لتلقيه ، وأكرم وفادته ، وخلع عليه ، وأجلسه بمجلسه الخاص ، ولم يدخر عنه براً ومؤاكلة ومطابية وفكاهة"(٤) .

وكان أمراء بني الأحمر نفسهم علماء ، ولذلك قاموا بتشجيع العلوم والآداب، وأجزلوا العطاء للعلماء والأدباء ، وعرفوا مقاديرهم ، وأجازوا الشعراء، ويُعد محمد بن الأحمر مؤسس الدولة النصرية من أشهر من عرفوا برعايتهم للعلوم والآداب ، فقد كان يستقبل الشعراء في بلاطه فينشدون أجمل قصائدهم (٥) .

---

(١) ابن خلدون ، عبد الرحمن المغربي، (ت٨٠٨هـ)٠مقدمة ابن خلدون، المكتبة التجارية ، ص٥٣٧– ٥٣٨، القاهرة ٠
(٢) المقري ، نفح الطيب ، ج١ ، ص ٢٢١ .
(٣) الطرابلسي ، حياة الشعر في نهاية الأندلس ، ص ٦٣ .
(٤) ابن الخطيب ، الإحاطة ، ج٣ ، ص ٤٩٩ .
(٥) ابن الخطيب ، اللمحة البدرية ، ص ٣١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وكان محمد الثاني الملقب "بالفقيه"، شاعرا بليغاً، عرف "ببراعة الخط وحسن التوقيع، وإيثار العلماء من الأطباء والمنجمين والحكماء والكتاب والشعراء، وقرض الأبيات من الشعر، وكثرة الملح وحرارة النادرة "(١).

وكان محمد الثالث الشهير بالمخلوع "يقرض الشعر ويُصغي إليه ويُثيبُ عليه"(٢)، ومثله محمد الرابع الذي كان محبا للشعر والأدب (٣).

والمدرسة اليوسفية شاهد عيان على تشجيع السلاطين على العلم لأهل غرناطة خاصة وللوافدين إليها عامة ، وكيف لا تكون كذلك وقد بنيت كما ذُكِر على يد يوسف الأول الذي كان "عالماً أديباً يشغف بالفنون" (٤) .

كما برز العديد من السلاطين الشعراء والأدباء الذين كانوا دائمي الاهتمام بالعلم والأدب، وبذلك عاشت الأندلس في عصر غرناطة حياة فكرية متعددة الجوانب ، وعلى الرغم من أن ظروف الدولة السياسية والعسكرية والجهد المالي المكثف الذي يفرضه واجب الجهاد وواقع المواجهة المستمرة مع إسبانيا المسيحية حال دون سلاطين بني نصر ، ودون بذل الهبات السخية للشعراء حسبما جَرت عليه العادة بين الأمير الممدوح والشاعر المدّاح ، فقد كانت المدائح تنهال عليهم في المناسبات وغير المناسبات ، وكان بلاطهم آهلا بالشعراء والفقهاء والأدباء(٥)، والسبب في ذلك هو (ديوان الإنشاء) الذي كان يُسمى (ديوان الرسائل والكتابة)(٦) وكانت مهمة الكتاب فيه لا تقتصر على تحبير الرسائل الديوانية فقد مد هذا الديوان الدولة النصرية بكتاب مترسلين وشعراء مدّاحين ، يتبارون في مدح السلطان دون أن يحتاج إلى إهدار أموال الدولة في الجوائز والهبات ، فهؤلاء جميعاً يكفيهم أنهم حظوا بانخراطهم بديوان الإنشاء ، وتمتعوا بشرف الانتظام في سلك كتّابه (٧) .

---

(١) ابن الخطيب ،اللمحة البدرية ، ص ٣٨ .
(٢) ابن الخطيب ،السابق ، ص ٤٨ .
(٣) السابق ، ص ٧٧ .
(٤) عنان ، نهاية الأندلس ، ص ٤٦١ .
(٥) الطرابلسي ، حياة الشعر في نهاية الأندلس ، ص ٦٦ .
(٦) القلقشندي ، صبح الأعشى في صناعة الإنشا ، ج١ ، ص ٩٤ – ٩٥ .
(٧) ابن فركون ، أبو الحسين ، مظهر النور الباصر في أمداح الملك الناصر ، ص١٢-١٣، إعداد محمد بن شريف ، سلسلة دواوين غرناطة ، المغرب ، ١٩٩١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد حاول سلاطين المملكة أن يعيدوا مجد العلم والحضارة والأدب الذي كان لقرطبة واشبيلية وغيرها من المدن الأندلسية الزاهرة (١) ، فأحاطوا أنفسهم برجالات العلم والأدب ، فوزراؤهم كانوا جميعاً من أهل القلم ، ومن أشهرهم الكاتب أبو عبدالله بن الحكيم (٢) الرندي وزير محمد الثاني وابنه محمد الثالث ، والشاعر الكاتب أبو الحسن علي بن الجياب (٣) وزير السلطان يوسف الأول أبي الحجاج ، والشاعر والمؤلف والمؤرخ أبو الطيب لسان الدين بن الخطيب (٤) الذي وزر ليوسف الأول ولابنه محمد الغني بالله من بعده ، والشاعر ابن زمرك (٥) وزير الغني بالله ويوسف الثاني وابنه محمد ، والفقيه الشاعر أبو يحيى محمد بن عاصم وزير السلطان يوسف الثالث (٦) .

وما كان لحركة التأليف إلا أن تنشط أمام هذا التقدير والاهتمام من السلاطين بالعلم والعلماء ، فحفل العصر بكثير من المؤلفات اللغوية والنحوية ، وقد حظي علم النحو بمكانة خاصة بين العلوم ، ومن لا يتقنه "فليس عندهم بمستحق للتمييز ولا سالم من الازدراء"(٧) ، وممن برعوا في هذا العلم أبو القاسم محمد بن حربي (٨) وقد ترك لنا ثروة مهمة من التفاسير والقراءات والأصول وعلوم العربية، وأبرز كتبه كتاب (الفوائد العامة في لحن العامة) .

---

(١) زمامة ، عبد القادر،(١٩٧٦م)٠ بنو الأحمر في غرناطة ، مجلة البحث العلمي ، الرباط ،١٣ (٢٦) ، ص١٠٤ .

(٢) هو من أوائل الكتاب والعلماء الذين ساهموا في تطوير الحركة الأدبية ، كان علما في الفضيلة ومكارم الأخلاق بليغا ، أديبا، شاعراً ، خطيباً ، وكذلك كان ولده . ابن الخطيب ، الإحاطة ، ج٢، ص ٤٤٤ ٠ وعند المقري ، أزهار الرياض ج٢ ، ص ٤١ .

(٣) الوزير الكاتب ابن الجياب (٦٧٣ – ٧٤٩ هـ) أشهر كتاب الدولة النصرية في القرن الثامن الهجري، وكان قائما على العربية ، إماماً في الفرائض والحساب ، عارفاً بالقراءات ، مجتهداً في الأدب والتاريخ ، انظر ابن الأحمر ،الأمير أبو الوليد إسماعيل ،(ت ٨٠٧ هـ) ٠ نثير فرائد الجمان في نظم فحول الزمان ، (تحقيق محمد رضوان الداية)، دار الثقافة للطباعة والنشر والتوزيع ، دمشق ، ١٩٦٧م ٠و المقري ، نفح الطيب ، ج٨ ،ص ٣٩٧ ، وابن الخطيب ، لسان الدين،(ت٧٧٦هـ)٠أوصاف الناس في التواريخ والصلات ، ص٥٧، (تحقيق محمد كمال شبانة)، ١٩٧٧ م .

(٤) هو الوزير الكاتب الشاعر أبو عبد الله محمد بن عبد الله سعيد التلمساني ، يلقب بلسان الدين ، ولد في لوشة من أعمال غرناطة سنة ٧١٣هـ ، نشأ بغرناطة ، كتب في ديوان الإنشاء ، ولما توفي ابن الجياب حل محله في الوزارة والكتابة ، فلقب بذي الوزارتين (ت٧٧٦هـ) له مؤلفات كثيرة أهمها :"الإحاطة في أخبار غرناطة"، و"اللمحة البدرية في الدولة النصرية " و "ديوان شعر " انظر ترجمته عند: ابن الأحمر ، نثير فرائد الجمان ص ٢٤٣ ٠ وابن خلدون ، العبر ، م٧ ، ص ٦٨٩ و ١٠٨ ٠وعند عنان في ترجمة خاصة له .

(٥) هو محمد بن يوسف بن محمد بن أحمد بن محمد بن يوسف الصريحي ، يُكنى أبا عبد الله ، ويعرف بابن زمرك أصل أسرته من شرقي الأندلس ولد في ٧٣٣ هـ في غرناطة ، وافقت حياته أجمل عهود غرناطة وأكثرها قوة وازدهاراً . انظر ترجمته في قسم كبير عند :المقري، أزهار الرياض ، ج٢ ،ص ٧ – ٢٠٦ .

(٦) من أشهر أعلام القرن التاسع في الفقه والأدب الوزير الرئيس قاضي الجماعة بغرناطة أبو يحيى محمد بن عاصم مؤلف " جنة الرضى في التسليم لما قدر الله وقضى " و "الروض الأريض في تراجم ذوي السيوف والأقلام والقريض " وكان يُدعى في الأندلس بابن الخطيب الثاني ، انظر ترجمته عند : التنبكتي ، نيل الابتهاج بتطريز الديباج ، ص ٥٣٧ ٠ و المقري ، أزهار الرياض ،ج١ ،ص ١٤٥ ٠و نفح الطيب ، ج٦ ،ص ١٤٨.

(٧) المقري ، نفح الطيب ، ج١ ، ص ٢٢١ .

(٨) أبو عبد الله محمد بن محمد بن أحمد بن جُزي ، من أهل غرناطة ، كان أديبا كاتبا ، مشاركاً في مختلف العلوم والآداب، رحل إلى المغرب ، دون رحلة ابن بطوطة ، ت ٧٥٧ هـ . ابن الخطيب ، الإحاطة، ج٢ ، ص ٢٥٦ ٠ و ابن الأحمر، نثير فرائد الجمان ، ص٢٩٢ ٠و المقري ، نفح الطيب ، ج٥ ، ص٥١٤، وأزهار الرياض ، ج٣ ، ص ١٨٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أما شيخ النحاة بالأندلس (ابن الفخار الإلبيرى)(١) فقد أثمرت جهوده مع تلاميذه ، حتى تصدى أحدهم لشرح ألفية ابن مالك وهو أبو اسحق الشاطبي(٢) الذي كان محدثا لغويا ومفسراً بيانيا ، ومن تلاميذه أيضا لسان الدين بن الخطيب ، وابن زمرك .

وظهرت مؤلفات عديدة في علوم مختلفة استند مؤلفوها على اطلاعهم الواسع والعميق على علوم الأوائل العقلية ؛ كالطب والهندسة والفلك والرياضيات، وانشغالهم بترجمة المؤلفات اللاتينية الإغريقية.

وانتشرت في عصر الدولة النصرية عادة الرحلة في طلب العلم، ومن اشهر الرحالة ابن الحاج(٣) الذي ارتحل إلى المشرق سنة(٧٣٧ هـ) فحج وقفل إلى إفريقية،واستقر ببجاية، ثم انتقل الى خدمة سلطان المغرب ، وحين عاد إلى غرناطة دوّن مشاهداته في رحلة سماها (فيض العباب)، كما يعد أبو البقاء البلوي الذي كان معاصراً لابن الخطيب من أهم مَن كتب في أدب الرحلات، ورحلته المعروفة برحلة البلوي مدونة في كتاب سماه(تاج المفرق في تحلية علماء المشرق) .

وأهم ما يذكر في أدب الرحلة مشاهدات ابن الخطيب في المغرب والأندلس وهي مطرزة في كتب هامة ، هي (نفاضة الجراب في غلالة الاغتراب)(٤) و(خطرة الطيف في رحلة الشتاء والصيف) و(معيار الاختيار في ذكر المشاهد والديار)(٥) .

---

(١) أبو عبد الله محمد بن علي بن أحمد الخولاني ، كان إمام أعلام البصريين من النحاة في عصره ، وشارك في غير علوم العربية من قراءة وفقه وعروض وتفسير ٠المقري ، نفح الطيب ، ج ٥ ، ص٣٥٥ ٠ والسّيوطي ، بغية الوعاة ، ج١، ص ١٧٤ ، ابن الخطيب ، الإحاطة ، ج٣، ص ٣٥ .

(٢) كان فقيها ، ثبتا ورعاً صالحاً زاهداً ، يدعو للرجوع إلى أصول الشريعة ، له مؤلفان جليلان هما " الموافقات في أصول الشريعة " و "الاعتصام" ٠ التنبكتي، نيل الابتهاج ، ص ٤٨ .

(٣) إبراهيم بن عبد الله النميري الغرناطي ، بعد وفاة سلطان المغرب ، عاد إلى غرناطة، وولي القضاء ببعض النواحي إلى أن توفي سنة (٧٦٨ هـ)٠ابن الأحمر ، الأمير أبو الوليد اسماعيل بن يوسف ،(ت٨٠٧هـ)٠ نثير فرائد الجمان في نظم فحول الزمان، ص٣١٣ وما بعدها ،دار الثقافة للطباعة والنشر والتوزيع ،دمشق ،١٩٦٧م .

(٤) أبو البقاء خالد بن عيسى البلوي من أهالي غرناطة زار مصر والحجاز وفلسطين كما طاف بأنحاء المغرب ، المقري ، نفح الطيب ، ج٢، ص ٥٣٢ ومابعدها٠ و ابن الخطيب ، الإحاطة ، ج١،ص ٥٠٠ وما بعدها .

(٥) هذه الرحلة لم تصل إلينا كاملة فقد ضاع الجزء الاول منها ، أما الجزء الثاني فقد رأى النور وقد حققه محمد مختار العبادي ، وبقي الجزء الثالث محفوظاً بالخزانة العامة بالرباط ، عني بتحقيقه محمد كمال شبانة ، ونشره المعهد الجامعي للبحث العلمي ، المغرب ، ١٩٩٧ م٠انظر: ابن الخطيب ،لسان الدين ،(ت٧٧٦هـ)٠ ديوان الصيب والجهام والماضي والكهام ، ط١، ص٦١، (تحقيق محمد الشريف قاهر) ، الشركة الوطنية للنشر،الجزائر .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد حاول الأندلسيون في ظل الدولة النصرية أن يجمعوا الكتب في مكتبات خاصة، وقد عُرف عن محمد بن أحمد بن جزي الكلبي أنه كان"جماعةً للكتب، ملوكي الخزانة" (١) ، كما عرف الأندلسيون تجارة الكتب ، وكانت مصدراً للرزق لبعضهم(٢) ، وكان للحديث الشريف نصيب وافرٌ من اهتمام علماء الدولة النصرية(٣) ، كما برع بعض العلماء في لغات غيرهم من الأمم(٤)، وفي الحديث عن الحالة الفكرية لهذا العصر، حري بنا أن نذكر التصوف ، فقد كان منتشرا بين العامة والخاصة، كما كان لطبقة الفقهاء والمتصوفة نفوذٌ قويٌ في مملكة بني الأحمر، وكانوا يؤدون دوراً سياسياً هاماً ، يتجلى في دعوتهم إلى الجهاد ، وحثّ المسلمين على الدفاع عن الأندلس، وعمل بعضهم كسفراء إلى البلدان الأخرى لاستنهاض الهمم وإثارة العزائم من أجل نجدة أبناء المملكة، كما شارك بعضهم في حركات الجهاد ضد الإسبان ، وبرزت هذه النزعة لدى شعراء تلك الفترة الذين كانوا يتغنون بجهاد ملوكهم، ويحرضون شعبهم لِقتال عدوهم(٥) .

وممّن يمكن ذكرهم على سبيل المثال ، العالم الجليل (ابن الزيات)(٦) فقد كان له ثمرة طيبة من المؤلفات الصوفية منها" اللطائف الروحانية، والعوارف الربانية"ومنها كتاب "لذّات السمع من القراءات السبع"، ويعتبر الولي الصالح ابن صفوان القيسى(٧) من أشهر المتصوفة الذين اتصلوا بسلاطين بني مرين ، ليبث فيهم روح الجهاد، ومن مولفاته "مطلع الأنوار الإلهية" و" بغية المستفيد"، كما كان لابن الخطيب كتابٌ في التصوف بعنوان "روضة التعريف بالحب الشريف"(٨).

---

(١) ابن الخطيب ، الإحاطة ، ج٣، ص ٢٠ .
(٢) ابن الخطيب ،السابق، ج٣، ص ٢٧ .
(٣) السابق ، ج٢ ،ص ١٧٦ .
(٤) السابق ، ج ٢ ،ص ١٤٠ – ١٤١ .
(٥) يازجي ،سراب ، (١٩٩٢م) ٠ الغزل في الشعر الآندلسي في ظل بني الأحمر، ص٣٦، رسالة دكتوراه، غير منشورة،جامعة دمشق، سوريا ، ١٩٩٢م ٠
(٦) أحمد بن عيسى الأموي المعروف بأبي جعفر الزيات ، (ت ٧٦٥ هـ)٠ وهو شيخ شهير من أهل الخير والصلاح مثابر على إتباع السنة عارف بطريقة الصوفية حريص على الشهادة . ابن الخطيب ، الإحاطة ، ج ١، ص ٢٨٧ .
(٧) أبو جعفر أحمد بن إبراهيم بن صفوان القيسي ،(ت ٧٦٣ هـ) ٠من أهل مالقة ، تولى الكتابة السلطانية في عهد محمد الثاني ، وإسماعيل الأول ، برع في النظم والنثر واللغة والحساب . التنبكتي ، نيل الابتهاج ، ص ٧٢ ٠ وابن الخطيب ، الإحاطة ، ج١ ، ص ٢٢١ .
(٨) استخدم أعداء ابن الخطيب هذا الكتاب ليبحثوا فيه عن عثراته وهفواته ، ويجمعوا سيئاته ونقائصه ، وكونوا له عريضة اتهام ، أمضاها السلطان " الغني بالله " الذي أثمرت عنده السعاية ، انظر رسالة القاضي النباهي في المقّري ، نفح الطيب ، ج١ ،ص ٤٩– ٥٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أما الشعراء الذين عاصروا دولة بني الأحمر ولهم دواوين شعرية فهم : أبو حيّان الغرناطي(١) وابن الجيّاب، وابن خاتمة الأنصاري(٢) ولسان الدين بن الخطيب، وابن زمرك،والسلطان يوسف الثالث ملك غرناطة (٣).

وهناك شعراء مشهورون في هذه الفترة ، ولهم دواوين شعرية، لكنها لم تصل لأيدي الدارسيين ومنهم مثلا : يحيى بن أحمد بن هذيل التجيبي(٤) ، وأحمد بن صفوان الذي جمع له لسان الدين بن الخطيب ديوان شعر سماه " الدرر الفاخرة واللجج الزاخرة" وصدّره بخطبة(٥) ، ومنهم خالد بن عيسى البلوي الذي ذكر في رحلته أن له ديواناً شعرياً(٦) ، لكنه بقي مفقوداً حتى الآن .

وقد ذكرت المصادر أشعاراً كثيرة لشعراء اشتهروا، وعرفوا بغزارة أشعارهم، وتدفقهم في قرض الشعر، ومع ذلك لم تُسمّ لهم دواوين، ومنهم ابن الزيات الذي كان يتدفق بالشعر تدفق البحر الزاخر(٧) ، وأبو عبد الله الساحلي(٨).

وأبو عثمان سعد بن ليون التجيبي(٩)، وأبو جعفر أحمد بن رضوان(١٠) وغيرهم.

---

(١) أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان الغرناطي ، عاش ما بين (٦٥٤ – ٧٤٥ هـ) كان نحويا ولغويا ومفسرا ومؤرخا وأديبا، وذكر ابن الخطيب أنه كان شاعرا مكثرا ٠ الصفدي، صلاح الدين بن أيبك الصفدي،(ت٧٦٤هـ)٠ الوافي بالوفيات، ج٥، ص ٢٦٧، (باعتناء ديدرينج) ،١٩٧٠م٠ والسيوطي، عبد الرحمن بن أحمد المنهاجي ،(ت٨٧٥هـ)٠ بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، ج١، ص ٢٨٠،(تحقيق محمد أبي الفضل ابراهيم)،القاهرة ٠ وابن الخطيب ، الإحاطة، ج٣، ص ٤٣ .

(٢) أبو جعفر أحمد بن خاتمة الأنصاري ، من أهل المرية ، كان شاعراً وكاتباً ، (ت٧٧٠ هـ) ، له ديوان شعر٠ ابن الخطيب ، الإحاطة ، ج١ ، ص ٢٤٠ ٠و ابن الأحمر ، نثير فرائد الجمان في نظم فحول الزمان، ص ٣٣١م٠ وانظر التنبكتي، نيل الابتهاج ، ص ١٠١ .

(٣) اكتشف احد العلماء ديوان هذا السلطان ، وكان قبل ذلك ديوانا مجهول بالنسبة لافتقاد الصفحة الأولى منه بعد التحقيق اتضح أن الديوان أندلسي وأنّ صاحبه ملك ، وبذلك زفت بشرى وجود ملك شاعر، وعرف الدارسون ان الملوك الشعراء لم ينقرضوا بانقراض المعتمد بن عباد لمزيد من التفاصيل عن هذا الملك الشاعر ، انظر: ديوان ابن فركون "فهو مصدر أساسي فيما يتعلق بحياته من يوم اعتلائه العرش إلى وفاته" نقلا عن الطرابلسي، حياة الشعر نهاية الأندلس، ص ١٣٠.

(٤) يكنى أبا زكريا، شيخ ابن الخطيب، كان إلى جانب اشتغاله بالفلسفة والطب وسائر العلوم العقلية، شاعراً له ديوان "السليمانيات والعربيات" ٠ابن الخطيب، الإحاطة ،ج٤ ، ص ٣٩٠ ٠والمقّري ، نفح الطيب ، ج٥ ، ص٤٨٧ .

(٥) ابن الخطيب ، الإحاطة، ج١ ، ص ٢٢٧ – ٢٢٨ .

(٦) انظر: رحلته " تاج المفرق في تحلية علماء المشرق " .

(٧) ابن الخطيب ، الكتيبة الكامنة ، ص ٣٤ – ٣٥ .

(٨) كان النظم سهلاً عليه ، ينظم في أمداح النبي- عليه الصلاة والسلام – من المقطوعات والمطولات ما دُونت فيه الدواوين ، وملئت منه الطروس ٠ابن الخطيب ، الإحاطة ، ج٣ ، ص ٢٣٩ ، والكتيبة الكامنة، ص ٤٥ .

(٩) معظم أشعاره مقطوعات في الحكم ، أورد المقري جانباً هاما منها ، في نفح الطيب ، ج٥ ، ص ٥٤٤ و٨٠٣ ٠ ابن الخطيب ، الكتيبة الكامنة ، ص ٨٦ ٠ والتنبكتي ، نيل الابتهاج ، ص ١٨٧ ، والمقري ، نفح الطيب ، ج٥ ، ص ٥٤٣.

(١٠) نشأ بالبادية ، ولم يطلب العلم ، ومع ذلك نبغ بالشعر الجّيد الذي يندر وقوعه من كبار البلغاء وصدور الطلبة٠ابن بطوطة ،رحلته ، ص ٦٧١ ٠ والتنبكتي ، نيل الابتهاج ، ص ٢٢١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وبذلك تكون غرناطة في عصر بني الأحمر قد عاشت حياة فكرية ثقافية مميزة وزاخرة بشتى أنواع العلم والأدب ، واستطاعت أن تجسد الحضارة العربية الإسلامية تجسيدا يحمل كل معاني التحدي والصمود أمام محاولات الإسبان التي لم تعرف الكلل أو الملل طوال فترة حكم العرب في الأندلس ، تلك المحاولات التي تهدف بلا شك إلى طمس الحضارة العربية الإسلامية الأندلسية ،ولكن هيهات، فرغم انقضاء زمن بعيد على اندثار تلك الحضارة من إسبانيا، ورغم محاولات الإسبان طمس كل ملامحها..... إلا أن الآثار الأدبية والعمرانية التي خلفها الأندلسيون مازالت تحدث دويا في آذانهم حتى وقتنا هذا.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفـصـل الثـــانـي

الطبيعة محور القصائد والمقطوعات

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أ – الطـــبيعة الصـــامتة :-

أجمع علماء الطبيعة على أن "الإنسان ابن بيئته ، والبيئة هي كل ما يحيط بالإنسان مـــن طبيعة واجتماع ودين وتقاليد ... " (١) لذا فإن من يدرس التراث الأدبي الأندلسي يجد نفسه أمـــام لوحات تعبيرية صادقة ترسم طبيعة الأندلس الساحرة وتجسد بيئتهـــا الجميلـــة ، إذ "إن بـــأرض الأندلس من الخصب والنضرة وعجائب الصنائع ، وغرائب الدنيا ما لا يوجد مجموعه غالباً في غيرها" (٢) .

وعلى الرغم من القلق الذى عاناه الأندلسيون جراء هموم الحـــرب والمعـــارك والفـــتن الداخلية التي مرت على الأندلس إلا أن "جمال الطبيعة كان له أثرٌ بالغٌ فـــي تهـــذيب أذواقهـــم ، واعتدال أمزجتهم ، وبعث قرائحهم ، وحث القدرة على الإبداع"(٣) . وبما أن البيئة الطبيعية هي عامل من جملة عوامل أخرى يقوم عليها الإبداع الفني (٤) ، فإن الإبداع الفنـــي الـــذى تســـتفزه طبيعة غرناطة الخلابة – المحاطة بالبساتين العريضة المستخلصـــة ، والأدواح الملتفـــة التـــي "يصير سوارها من خلف ذلك كأنه من دون سياج كثيفة" (٥) – لا بد أن يكون إبـــداعاً مميـــزاً ، فهل تحقق هذا التميز في الإبداع عند شعراء هذه الفترة ؟؟

أولاً : وصف الرياض والربيع :-

في مملكة خضراء غناء كغرناطة لا تكاد تخلو فيها بقعة من روضة أو حديقة أو متنزه، يبدو أن الولع بالطبيعة كان ولعاً شعبياً عاماً لكن الشعراء كانوا الأقدر على التعبير عـــن ذلـــك الجمال الطبيعي الذي فاق حد التصور ، فقد أحسوا به في كل جزء في وجدانهم ، واستلقوا بـــين أحضانه ، وتنشقوا عبقه وتفيؤوا ظلاله ، وألهب مشاعرهم ، وفتح قرائحهم ... وقد جمعوا كـــل ذلك في قصائد ومقطعات جميلة ، ومنها أبيات يصف فيها ابن خاتمة روضة تراءت لـــه امـــرأة جميلة كاملة الصفات فيقول :-

---

(١) سعد ،الأب بولس ، (١٩٥٢م)٠تأثير الطبيعة في الخلق الفني ، مجلة الكتاب المصرية ، ١١ (٧) : ص٥٠٨ ٠
(٢) أرسلان ،الأمير شكيب ، الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية ، ج١،ص ٢٢٩، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت ، ١٣٥٥ هـــ ٠
(٣) حسين ،طه وآخرون ، كتاب التوجيه الأدبي ، ص ١٠،القاهرة :لجنة التأليف والترجمة ٠
(٤) أبو ريان ، محمد علي ، (١٩٦٤ م)٠ فلسفة الجمال ونشأة الفنون الجميلة ،ط١ ،ص١١٢-١١٣ ، الإسكندرية:الدار القومية للطباعة والنشر٠
(٥) ابن الخطيب ، الإحاطة في أخبار غرناطة ، ص ١١٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إذا أتيتَ أثيلاتِ (١) الحمى فـقِـفِ ... وعُجْ يميناً تجاه الروضة الأنُفِ(٢)
فثَمَّ مغنى جَمالٍ راق رونَقُهُ ... عليه معنى جلالٍ واضحُ الشرفِ
قامت سماء العلا منه على عمدٍ ... واحتل طير المنى منه على شرفِ
روض وشته يد الإبداع فانتظمت ... فيه المحاسن من بدءٍ الى طرفِ
قد صنف الحسن منه كلَّ مُتّفق ... وألف السعد منه كل مختلفِ
ماشئت من قمر سعدٍ ومن كرمٍ ... رغدٍ ومن حَسَبٍ عِدٍّ ، ومن ترفِ (٣)

وتشير الأبيات إلى أن الشاعر تنسم نفحات عطره من خلال الرموز البدوية فهو يقف عند أثيلات الحمى ، ويعرج على الروضة الأنُفِ مسترسلاً في وصف جمالها ، ثم يخلص من هذا الوصف الرائق إلى وصف حسان مصونات زانهن الجمال ، وقد برع ابن خاتمة في المزج بين صورة الروضة الجميلة وصورة الحبيبة المعشوقة حتى أصبحا في أبياته شيئا واحداً، فبينما تنجذب إلى الأبيات متتبعاً أوصاف هذا الروض يسترسل الخيال فيرسم في الذاكرة روضا وشته يد الإبداع ، وتحلق في أجوائه الطيور ، فإذا بالصورة تنقلب في الأذهان لتحتل المرأة الجميلة ذات الحسب والنسب والرفعة اللوحة ، لقد أحب ابن خاتمة الطبيعة لذاتها ، وعشقها لأنها امتزجت بنفسه، وأثمر هذا الامتزاج عن انسجام وتناغم معها، ولهذا فهو يدعو من حوله للتمتع بسحر الطبيعة ، ويحثهم على قضاء الوقت بين ربوع روض مَريع قد اخضرت فيه بنيات الربيع فيقول في أبيات له :-

هلُمَّ إلى الرياض فقد تردَت ... بأرديةٍ من الأوراق خضر
وبات القطرُ يمشطها فوشّى ... بلبات الغصون عقود درٍّ
وغنت فوقها الأطيار سجعاً ... فأغنَتّ إذْ شَدَت عن كلِّ زَمر
وقامت كالعروس تروم كفؤاً ... تروق النفس في مرأىً وخُبرْ
ولا كفءٌ كحسنك فلتُجبْها ... وإني ضامن إحضار مَهر (٤)

---

(١) أثيلات : تصغير الأثلات ، وهذه جمع أثيلة ، واحدة الأثل ، وهو نوع من الشجر .ابن منظور ،لسان العرب ،مادة أثل .
(٢) الروضة الأنف : التي لم يرعها أحد .
(٣) ابن خاتمة ، أحمد بن علي ، (ت ٧٧٠هـ). الديوان ، ط١، ص٦٣،(تحقيق محمد رضوان الداية)، دار الفكر المعاصر، بيروت ، ودار الفكر ، دمشق ، ١٩٩٤م .
(٤) ابن خاتمة ، السابق ، ص ١٣٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لوحة جميلة يرسمها الشاعر مأخوذا بجمال الطبيعة ، يريد التعبير عنها ، فتقفز المرأة الجميلة إلى خياله دون تخطيط ، ويصبح الروض الجميل مرة أخرى امرأة جميلة ترفل بثياب أنيقة كما يرفل هو بأوراقه الخضراء ، وتغدو الأزهار التي ترصع الروض عقود دُرَ تزين عنق تلك المرأة ... إن روضاً بأبهى حلله هو عند ابن زمرك عروساً لا مناص من إحضار مهرها بأسرع وقت .

ونجد مثل هذا المعنى عند ابن الجياب الذي غمرته بهجة الربيع وملأته بالغبطة ، فوصفه وقد أتى بنشر حسنه وجماله في كل مكان ، ودعانا إلى التمتع بنعمة الخالق ، وسط جنة تجلو محاسنها كما تجلو العروس ليلة زفافها :-

هذا الربيع أتاك ينشرُ حسنَه ... فافسحْ لنفسك في مداه مجالَها
واخلعْ عذارك في البطالة جامحاً ... واقرن بأسحار الهنا آصالَها
في جنة تجلو محاسنها كما ... تجلو العروس لدى الزفاف جمالَها (١)

وتستوقفنا قصيدة لابن زمرك ، وهي إحدى المطولات الكثيرة التي نظمها في مدح الغني بالله سلطان غرناطة وتهنئته ومصافاته ، وهي قصيدة بلغ عدد أبياتها مئة وسبعة عشر بيتاً كان نصيب الطبيعة فيها أربعين بيتاً نظمها ابن زمرك ملء قلبه وجوارحه مأخوذا بجمالها ،وقد عبر عن ذلك بقوله :-

قف بالسبيكة(٢) وانظرْ ما بساحتها ... عقيلةٌ والكثيبُ القردُ جاليها
تقلدت بوشاح النهر وابتسمتْ ... أزهارها وهي حَلي في تراقيها
وأعينُ النرجس المطلول يانعةٌ ... ترقرق الطلّ دمعاً في مآقيها
وافترّ ثغرٌ أقاح من أزاهرها ... مُقبِّلا خدَّ وردٍ من نواحيها
كأنما الزهرُ في حافاتها سَحَراً ... دراهمٌ والنّسيمُ اللدْنُ يَجبيها
وانظر إلى الدوح والأنهار تكنفُها ... مثل الندامى سواقيها سواقيها
كم حولها من بدورٍ تجتنَي زهراً ... فتحسب الزهرَ قد قبّلن أيديها (٣)

---

(١) المقري ، نفح الطيب ، ج٥ ، ص ٤٣٧ .
(٢) السبيكة ، من أجمل منتزهات غرناطة ، وتقع إلى الجنوب الشرقي من حمراء غرناطة ، وتشكل مع مدرج نجد وجنة العريف أجمل المناظر الطبيعة بالمملكة . المقري ، نفح الطيب ، ج ١٠ ، ص ٣١-٣٢ .
(٣) ابن زمرك ، محمد بن يوسف ، (ت٧٩٧هـ)، الديوان ، ط١، ص ٥٠٠، (تحقيق محمد توفيق النيفر) ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ،١٩٩٧م .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولا بد أن نعترف بأن شعر الطبيعة في هذه القصيدة جاء شعراً متقناً ، أبدعه ابن زمرك، وجدّ في نظمه ، فهو لم يكن شعراً تقليديا لمجرد الدخول إلى صيغة التهنئة أوالمدح ،وقد استخدم الشاعر فيه أسلوبا كثير التردد على ألسنة الشعراء الغرناطيين ، حتى غدا محور اهتمامهم ، وهذا الأسلوب يتمثل في وصف الطبيعة بالاعتماد على صورة العروس ،حيث وظفه ابن خاتمة وابن الجياب ، وها هو ابن زمرك يعتمد عليه في وصف غرناطة فيشبهها بعروس جميلة وشاحها الأنهار وحليها الأزهار وعيونها النرجس المطلول، أما ثغرها فلا أجمل ولا أحلى من أن يكون أقاح تقبل "خد ورد من نواحيها" ٠

ويستهل ابن زمرك رائية له في مدح السلطان الغني بالله أيضاً (١) ، بمشهد من أجمل المشاهد في الطبيعة ، ويعرضه لنا كأنه مشهد تمثيلي أبطاله عناصر الطبيعة ، مشهد أخرجه ابن زمرك معتمداً على حركة مدروسة ؛ فالنسيم يهب على الرياض فتستيقظ الأزهار فإذا بها منثورة بشكل منتظم لا يقل رتابة عن انتظام حبات الندى التي انتظمت هي الأخرى بفعل هبات النسيم ، إن التقاطه لهذا المشهد أبرع من التقاط عدسة "كاميرا" حديثة له ، فقد أبدع الشاعر في تفعيل عنصر الحركة بدقة ليرسم مشهدا يبهج من رآه ، وسيبهج كل من سيستمع إلى ما قاله ابن زمرك في وصفه كما لو كان المشهد ماثلا أمام عينيه ، وفي هذا يقول ابن زمرك :-

هب النسيم على الرياض مع السَّحر ... فاستيقظت في الدوح أجفانُ الزهَرْ
ورمى القضيب دراهماً من نَوْرِهِ ... فاعتاض من طَلِّ الغمام بها دُررْ
نثر الأزاهرَ بعد ما نظمَ الندى ... يا حسنَ ما نظم النسيمُ وما نَثرْ (٢)

وهذا ابن خاتمة يستهل قصيدة له في وصف مجالس الخمر بوصف الربيع الذي يرسل تحيته عن طريق إظهار الأرض بأحلى حللها وأبهى ألوانها ، حيث يرى الشاعر أن جمال الربيع لا تدانيه إلا لذة الخمرة ، وأن أزهاره العبقة لا تُبذلُ إلا للسلافة المعتّقة ، يقول الشاعر:-

حيا الربيعُ بنرجسٍ وبَهار ... فاردْ تحيته بكأس عُقار
لا تجن زهرته لغير سلافة ... تصريفك الدينار بالدينار(٣)

---

(١) ابن زمرك ، الديوان ، ص ٤٠٩ – ٤١٢.
(٢) ابن زمرك ، السابق ، ص ٤٠٩ .
(٣) ابن خاتمة ، الديوان، ص ٧٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وأنـف لأيـام الـربـيـع وفضلهـا ... فضـلا سـوى الأكـواس والأوتـار
أوما تـرى وجـه الزمان قد اكتسى ... كـعـذار آس أو كـآس عـذار
والأرض قد لبست مطارف نبتهـا ... وتوشـحـت بـصـوارم الأنـهـار
والدوحُ أمثالُ المنـابـر فـوقـهـا ... خطـبـاء بالإسـحـار في الأسـحار(١)

إن فكرة التفاعل بين تحية الربيع وتحية الشاعر تتطور في أبيات ابن خاتمة إلى حد مطالبته كل طرف بتقديم وإظهار أجمل ما لديه، والاستعداد لاستقباله استعدادا لا يقل عن استعداد الآخر ٠

ويتميز شعر وصف الطبيعة في هذه الفترة بكونه غير مستقل بذاته، فهو يأتي عادة كما ذُكر في مقدمة لغرض شعري غير الوصف ، ومع ذلك فقد استطاع الشعراء أن ينقلوا من خلال مقدمات بعض القصائد تأثرهم الواضح بالطبيعة وإتقانهم لتصوير محاسنها .

وبين أيدينا قصيدة للشاعر ابن الجياب يهنىء فيها الوزير أبا عبد الله بن عبد الحكيم بعيد الفطر يقول فيها :-

حـلّـت الشـمـسُ بـرأس الحَمَـل ... واكتسـى الروض بـديع الـحُـلَـل
فـكـلّ تلعـةٍ غُـصـنُ نـقـا ... يتثنى كتَـثَـنـي الـثـمـل
وبـكـلّ ربـوةٍ نـاجـمـةٍ ... مـن جَـنَـىً زَهْـرهـن الخَـضِـل
من أقـاح بـاسـم ونرجـس ... وجِـلٍ وياسـمـيـنٍ خَـجِـل
فـالـسـماء والـريـاضُ اشتركتا ... شـبـهاً يغرُ عـيـنَ المجـتـلـي (٢)

وبعدما وصف الشاعر جمال الأندلس وسحر طبيعتها ، وعدد أنواع الأزهار الموجودة فيها من أقاح ونرجس وجلنار وياسمين ، أبدع في وصف الربيع الذي أشرقت بمقدمه الأرض وتبسمت ، وازدانت الروابي والوهاد بقدومه فيقول :-

---

(١) ابن خاتمة ، الديوان ، ص ٧٦ .
(٢) ابن الجياب ، أبو الحسن علي بن محمد ، (ت٧٤٩هـ)٠ الديوان ،ص ٣٧٢ – ٣٧٣ ، رسالة ماجستير ،غير منشورة ، الجامعة الأردنية ، الأردن ، ١٩٨٣م .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

حبذا فصلُ الربيع مَلِكاً جاءنا من حسنه في جَحْفَلِ
فترى اللؤلؤ والياقوتَ قد نُظِما في تاجِهِ المكلّلِ
نُشِرَت أعلامُهُ مُدّهَبَةً في غُصونٍ مثل سمر الأسَلِ (١)

ومن اللافت للنظر أن وصف ابن الجياب للربيع جاء متأثرا بلغته المدحية فهو لم يجد أنسب من تشبيه الربيع بملك له هيبته يأتي في جحفل جرار، وعلى رأسه تاج مكلل مرصع باللؤلؤ والياقوت ،كما وصف انتشار الربيع وسطوة زينته على أرجاء الأرض كأنه انتشار جحفل سطا بأعلامه ورماحه على أعدائه،وقد جاءت هذه الصور التي توالت في ذهن ابن الجياب في وصف الربيع صوراً مبتكرة فقد أحسن اختيارها وأجاد تنسيقها في تتابع لطيف يأخذ بعضه برقاب بعض .

ثانيا : وصف الورود والأزهار :-

لقد أبدع شعراء الأندلس في وصف الورود والأزهار فقد أوقعتهم كثرتها في حبها والافتتان بها ، وقد شهد القرن الخامس الهجري قمة إبداعات الشعراء الأندلسيين في وصف الأزهار والورود التي كان الملوك والرؤساء والأمراء والوزراء أنفسهم يسهمون في وصفها ويولعون في نظمها (٢) .

أما شعراء مملكة غرناطة في عصر بني الأحمر فقد كان اهتمامهم بالأزهار والورود والنوريات حاضراً لكنه لم يكن في حقيقة الأمر يضاهي اهتمام من سبقوهم من الشعراء ، ومع ذلك فقد فُتنوا في وصف وُرودهم وأزهارهم التي أعجبوا بها ، فحاولوا أن يبتدعوا الأوصاف الباهرة والتشبيهات المبتكرة .

وأثناء الحديث عن وصف الورود والأزهار في هذه الفترة يجب أن يشار بالبنان إلى الشاعر ابن زمرك ، فقد أشار إليها مرات عديدة في شعره ، وأبدى ميولا بالغة إلى روائحها وألوانها وأنواعها ونضارتها ، كما كان دائم الإعجاب بالورود والأزهار أينما شاهدها ومتع العين بها ، سواء أكانت زهراً يرصع الروض ، أم نَوْراً كاسياً للأشجار ، إنها كما يراها زينة

---

(١) ابن الجياب ، الديوان ، ص ٣٧٣ .
(٢) رحيم ، مقداد ، (١٩٨٦م)٠ النوريات في الشعر الأندلسي ، ط١ ، عالم الكتب : بيروت ٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

هذه الطبيعة في الحـــالتين دون شك ، يقــول :-

وكم خَـرَّق الــزهــر مــن جيــوب وكـــلّـــلَ الـقُضُـــبَ بـــالــدرر(١)

وقد تعددت أغراض وصف الأزهار ما بين الوصف والمــدح والإهــداء والاســتهداء والتحية ...الخ . وهذه أبيات لابن خاتمة بعث بها مع باكورة ورد إلى أخيه ، صداقةً ووّداً حيث اعتبر الشاعر أن هذه الأزهار البكر التي بدأت تلوح في وسط الروض تنبئ بمجـــيء الربيــع ، وكأن الآس الذي يلف الروض خمارٌ يحجب محاسن امرأة جميلة ، أو كأنه خد تلفه لحية طويلــة إذ يقــول :-

جـــاءتـــك منبـــــئـــــة بـــــإقـبـــــال الـربـــيـــع لـــهـــــا ابـتـــــدارُ
محـــــفـــــوفـــــة بـــــــالآس منـــــه علـى محـــــاسنـــــهـــــا خمـــــارُ
فـكـــأنـــهـــا مـــا بـيـنـــه خـــدٌ أحـاط بـــــه عـــــذارُ (٢)

وتعتبر عادة استقبال بواكير النواوير أول وقتها عادة قديمــة عنــد الأندلســيين ،فهــم يستقبلونها استقبالا يليق "بولعهم بها وحبهم إياها ، وبقدر ما تسمح لهم أذواقهم في هذا الشــأن ، وكأنهم أرادوا بذلك أن يدللوا على قدوم الأزهار ، وحلول أوانهــا ، ويطلبــوا مــن الآخــرين المشاركة في التنعم بوجودها ،والتلذذ باستخدام الحواس إزاءها "(٣)٠

وفي كثير من الأحيان كان الشعراء يذكرون الأزهار في محيط تتداخل فيــه مكونــات أخرى ، كالندى والغمام والنسيم والبلابل ، وكل منهم " يترقبها عن كثب ويترقب حركاتها عنــد مداعبة النسيم لها وكأنه بهذا الاستقصاء يريد أن يكشف أسرارها ويذيعهــا انتقاماً له منها كمــا جعلته عبداً لجمالها " (٤)، وهذا ابن زمرك يصف منظــراً جــميلاً للــزهر الذي يزين الروض محاكيا النجوم التي تزين السماء ،ويصف الندى الذي احتضن الأزهاربعقد نظيم فيقول :-

---

(١) ابن زمرك ، الديوان ، ص ١٠٨ .
(٢) ابن خاتمة ، الديوان ، ص ١٢٦ ، ١٢٧ .
(٣) رحيم ، مقداد ، (١٩٨٦م) ٠النوريات في الشعر الأندلسي ، ط١، ص٩٦،بيروت :عالم الكتب ٠
(٤) مصطفى ، عدنان صالح ، (١٩٨٧م)٠ في الشعر الأندلسي ، ط١ ،ص٣٤-٣٥ ،بيروت : دار الثقافة ٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

للـزهـر في عطـفـهـا رقـوم تلوح لـلـعـيـن كـالنجـوم
وللندى بيـنـهـا رسـوم عـقـد النـدى فوقـه نـظـيـم (١)

أ – وصف الخيري(٢) : –

ورغم شغف شعراء هذه الفترة بالطبيعة ، فقد كـان حضـور الزهريـات والنوريـات حضورا باهتا خافتاً أقرب إلى الغياب ، فقد حضرت في بعض الدواوين دون بعضها الآخـر ، وابن خاتمة من الشعراء الذين خصصوا عدداً من النتف والمقطوعات لوصف بعـض الأزهـار خاصة الخيري والبهار والورد ، وقد حظي الخيري عنده باهتمام ، ربما لأن هذا الزهر ينغلـق نهاراً ويتفتح ليلاً فيتضوع شذاه إذ يقول :–

سل نفحة الخيري في غسق الدَّجـى ما بالُـه لـبـس الظـلام ردَاءَ
حقـاً لـعَـمـركَ إنـه ذو ريـبـةٍ أوْ لا فـفـيـمَ يـحـاذِرُ الرقـبـاءَ ؟
كالصـبِّ يخفـي شجوهُ حـتـى إذا جن الظـلام تنـفـس الصُّـعـداءَ (٣)

وفي الأبيات السابقة يشبه الشاعر وضعَ الخيري بين الأزهار بوضع العاشق بين الناس، فجعل هذه الزهرة التي تنغلق نهارا وتتفتح ليلا عاشقا يخشى أن يفتضح أمره بين الناس فيطوي ضلوعه على عشقه منتظرا حلول الليل وانصراف الناس ليتنفس الصعداء ويكشف عـن بعـض شجوه ، وبهذا يكون تفاعل الشاعر مع الطبيعة المحيطة به والانسجام معها ميزة ينبض بها شعر الطبيعة في هذه الفترة .

ويؤكد ابن زمرك على تميز هذا الزهر ورفعته وبراعة منظره ، كما يشير إلى تفاؤلـه بهذا النوع من الأزهار حين قال "أهدى خيره" ، والأندلسيون كانوا يتفاءلون بـالخيري دائمـا ، ويستخرجون من اسمه لفظ "الخير" ومن أجل ذلك فهم يكرمونه ويميلون إلى استهدائه ، وإن دل

---

(١) ابن زمرك ، الديوان ، ص ٥٣٢ .
(٢) الخيري : هو النبات المعروف في المشرق بالمنثور ، وله زهـر مختلـف كـالأبيض والأصـفر وللأندلسـيين ولـع بوصفه٠الحميري ، أبو الوليد اسماعيل ،(ت٤٤٠هـ)٠ البديع في وصف الربيع ، ص١٠٩-١١٥ ، (نشره وصححه هنري بيرس) ، لرباط ،١٩٤٠م
(٣) ابن خاتمة ، الديوان ، ص ١٢٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

على شيء فإنما يدل على أن تفاعل الشعراء مع الطبيعة بلغ حد اتخاذ بعض عناصرها واسطة من وسائط النظر إلى بعض شؤون الحياة وتحديد الموقف منها ، يقول ابن زمرك :-

انظر الى الخيريِّ قد أبدى لنا مُبْتَسِمَ الزَّهر وأهدى خَيْرَهُ
إن البديع والرفيع ما ترى ليس البديع والرفيع غيرهُ (١)

ب – وصف النرجس :-

شخص ابن زمرك النرجس في مقطوعة يهدي فيها تحياته إلى من أهداه نرجسا جميلاً ألحاظه تفوق جمالاً ألحاظ الحسان الغيد ، يقول :-

يا من فَخَرَبه الزمانُ وأهلُهُ فبطارفٍ من مجده وتلـيدِ
أهديتنيه نرجسا ألحاظه تزري بألحاظ الحسان الغيد (٢)

ج – وصف القرنفل :-

ويذكر ابن زمرك القرنفل في ظروف بلغ بها حدّاً بعيداً من التنميق ، وقد حدث ذلك يوم زيارة الغني بالله جبل الفتح ، وارتجل فيها أبياتاً لم تحفظ لنا ، وقد أعجبت هذه الأبيات ابن زمرك إعجاباً عظيماً فشكر ممدوحه على توفقه في هذا الشأن وأقبل بدوره على وصف هذه الأزهار مخصصا لها ثلاث مقطوعات تجمعت فيها ثلاثة عشرة بيتا، فأكثر فيها صوراً غزلية لاستمالة سيده(٣) فقال :-

أتَوْني بنوّارٍ يروق نضارةً كخد الذي أهوى وطيب تَنَفسِّه(٤)

---

(١) ابن زمرك ، الديوان ، ص ٢٦٤ – ٢٦٥ .
(٢) ابن زمرك ،السابق، ص ٨٧ .
(٣) حجاجي ،حمدان ،(١٩٨٤م) ٠ حياة وآثار ابن زمرك "شاعر الحمراء" ،ص١٧٤، الجزائر : ديوان المطبوعات الجامعية.
(٤) ابن زمرك ، الديوان ، ص ٤٣٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وجـــاؤوا بـــه من شاهـــقٍ متـــمـــنع ... تَمنَّـــع ذاك الظّـــبـــي فـــي ظـــلٍّ مكنَسهْ
رعى الله مِـــنِّـــي عاشقـــاً متقنعـــاً ... بزهـــرٍ حكى فـــي الحُســـن خدَّ مُؤَنِّسِـــهْ
وإن هـــبّ خفـــاق النّســـــيم بنفحةٍ ... حكت عـــرفـــهُ طـــيـــباً قضى بتأنُّسِهْ (١)

والملاحظ أن المرأة والطبيعة توأما روح الشاعر الأندلسي كغيـــره مـــن الشـــعراء، إذا وصف الطبيعة تراءت له امرأة ، وإذا وصَف امرأة اقتبس أجمل ما في الطبيعة ليشبهها به ، لذا فإن ابن زمرك يرى نضارة نوار القرنفل كنضارة خدّ محبوبه ، وصعوبة اجتنائه من جبل الفتح ذكرّته بتمنعه ، وقال في المناسبة ذاتها واصفا القرنفل أبياتاً أخرى لكنها تحمل نفـــس المعـــاني تقريبا، يقول ابن زمرك :-

وما أبْـــصرت عَـــيني كزهر قرَنْفُلٍ ... حكى خدَّ من يـــســـبـــي الـــفؤادَ وَعرْفَهُ
تَمـــنَّـــعَ فـــي أعلى الهضاب لمُجتَنٍ ... تمـــنَّـــعـــــه مِـــنِّى إذا رُمـــتُ إلقـــــهُ
وفي جبـــل الفتح اجتنـــوْه تفـــاؤلاً ... بفـــتـــح لبـــابِ الوصلِ يَمنحَ عطفه (٢)

د - وصف البهار :-

وُجدت مقطوعة واحدة في وصف البهار وهي في الحقيقة وصفٌ لجميلة تاحفت ابن خاتمة بزي بهي فتراءت أمامه نوار بهار يتألق حسنا ، و يفوح عبقا ويتمايل ليونة فقال :ــ

أهلا بـــنور (٣) بهارٍ قد حَبـــتكَ بـــه ... شقـــيـــقـــةُ الروض في حسن وفي عبق
حكى لنـــا طـــيـــب ريّـــاها ومَبْسِمِها ... فارشـــقهُ إن شـــئت أو إن شئتَ فانتشقِ
أوْفى عـــلـــى قـــضُبٍ في لِيْن قامتها ... لو أن في ضَـــمِّـــهـــا رَوْحـــاً لمُعتنِق (٤)

---

(١) ابن زمرك ،الديوان ، ص ٤٣٥ .
(٢) ابن زمرك ، السابق ، ص ٤٤٣ .
(٣) النَّور : زهر الشجر ، الأبيض منه خاصة ، جمعه أنوار ، والنُّوار واحدته نـــوارة ٠ الزبيـــدي ، محمـــد مرتضـــى ، (ت١٢٠٥هـــ) ٠ تاج العروس من جواهر القاموس ، ج١٤ ، ص ٣٠٦ ، (تحقيق عبد العليم الطحـــاوي) ، مطبعـــة حكومة الكويت ، الكويت ، ١٩٧٤م ٠
(٤) ابن خاتمة ، الديوان ، ص ١٢٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويبدو أن الشعراء الأندلسيين ، أو العشاق منهم يجدون في الأزهار والنوريات "معادلا موضوعيا لحبيباتهم ، فيلتقون بها ، ويتنشقون عطرها ، وتبهرهم ملابسها ، ويكلمونها ، ويتسلمون رسائلها ، ويتبادلون الشكوى ، ويفسرون ما يصدر منها من حركات وعلامات ... وهكذا تصل الزهرة والحبيبة إلى حال من الاتحاد "(١) .

وهذا لسان الدين بن الخطيب يشبه نوارة بيضاء وسط ريحان بدرة مصونة مغلفة بالزبرجد ، وهي تلوح وسط حقل الريحان أخاذة براقة كما يلوح في "الخضراء لألاء فرقد" أما وجود هذه النوارة في غير أوانها فكأنه كتاب عاشق ولهان وصل إلى معشوقته في غير أوانه وموعده ،وتشبيه الأزهار والنوريات بالأحجار الثمينة لا يعني دائما سطحية الصور الحسية التي يستخدمونها ،فقد ابتكر ابن الخطيب صورة لامست الأذهان واقتربت من المشاعر، يقول :-

ودرة نورٍ في غلاف زبرجد ... كما لاح في الخضراء لألاءُ فرقَدِ
كأن فتاة جاءها من خليلها ... كتابٌ بشكْوى الحبِّ من غير موعدِ(٢)

ثالثا : الثمريات:-

لم تحظ الثمريات باهتمام شعراء غرناطة النصرية ، وما جاء في هذا الغرض قليلٌ جداً، ومن الأوصاف الطريفة وصف ابن خاتمة لدباءة (٣) وقد جعل لها جلباباً وحجابا خوفا من أن يقترب منها أحد ، وشبّهها لشدة جمالها ورشاقتها بساق امرأة جميلة حسنة الخلق فقال :-

لله خزيَّةُ الجلباب صوَّنَها ... طول الحجاب فلمْ يمدَدْ لها ظُفُرُ
حيّى بها الروض يندى جسمها ترفاً ... كأنها ساق خَوْدٍ غالُها قَدَرُ(٤)

كما نظم ابن خاتمة أيضا مقطوعة جميلة في وصف باقلاء(٥) يتخللّها شَقِر(٦) ، ويبدو أن

---

(١) رحيم ، النوريات في الشعر الأندلسي ، ص ٩٥ .
(٢) ابن الخطيب ، لسان الدين ، (ت٧٧٦هـ)، ديوان الصيب والجهام والماضى و الكهام ، ط٣ ،ص ٣٩٨ ، (تحقيق محمد الشريف قاهر) ، جامعة الجزائر ،١٩٧٣ .
(٣) الدباء : القرع .الدمياطي ، مصطفى ، (١٩٦٥م) ،معجم أسماء النبات ، مصر : الدار المصرية للتأليف والترجمة .
(٤) ابن خاتمة ، الديوان ، ص ١٢٩ .
(٥) الباقلاء : هو نبات عشبي من فصيلة القطانيات (وهو الفول) . الدمياطي ، معجم أسماء النبات .
(٦) الشقر : شقائق النعمان ، انظر الدمياطي ، السابق .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

هذا الحقل الجميل الذي نبتت فيها هذه الثمار مختلطة بزهور شقائق النعمان حركات في مخيلة الشاعر صوراً وتشبيهات رائعة جسدها في قوله :-

شقائق النعمان والباقِلا ... وجهٌ بكفٍّ الحسن قد رُقّشا
كأن هذي وجنةٌ خمِّشتْ ... وذا عِذارٌ فوقها قد وشى
وناظِرُ النَّوْرِ بها ناظرٌ ... يرومُ أن يُبصِرَ ما خُمِّشا(١)

وله بيتان من الشعر في وصف التفاح، و لم يستطع فيهما الشاعر إلا أن تلازمه فكرة تشبيه التفاح بالنهود ، كما شبه مذاقه العذب الذي يرضي كل الأذواق بطعم الوصل والرضى اللذين ذاقهما عاشق محروم أضناه الصد وطول البعد ، وعبر عن ذلك بقوله:-

ودونكَها مثلَ شكلِ النهودِ ... وقد ضُمِّخَتْ باحمرار الخُدودِ
كريحِ الحبيب ومرأى المريبِ ... وطعم الرضى بعد طول الصدودِ(٢)

وتشرقُ الفكرة من جديد فلا مناص من تلازم الطبيعة مع المرأة، و المرأة مع الطبيعة ، وهذا يشبه ما حدث تماما مع الشاعر ابن زمرك حيث وصف سلة ثمار اجتمعت فيها فواكه مختلفة من الأترج والنقل ، ويكاد هذا التلاقي في التشبيه وتوحد الصور يخفت من وهج التشبيهات والصور آحياناً ، فقد تبدو أحيانا واحدة لا تلفت الأنظار،وفي هذا يقول ابن زمرك :-

فيها من التفاح كلَّ عجيبةٍ ... تذكي بريّاها صَبا وشَمالا
تهدى لنا نهد الحبيب وخدّه ... وترى من الورد الجَنِيِّ مثالا
ولها من الأترجِّ شمس أطلعت ... من كل شطر للعيون هلالا
ويحُقّها ورقٌ يروق كأنه ... ورق النضارِ وقد أجاد نبالا (٣)

ومن اللافت أن وصف الثمريات عند شعراء هذه الفترة لم يكن غرضاً بحد ذاته بل جاء

---

(١) ابن خاتمة ، الديوان ، ص ١٢٩ .
(٢) ابن زمرك ، الديوان ، ص ٤٨١ .
(٣) ابن زمرك ، السابق ، ص ٤٨١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وصفها عرضـــيا وممتزجاً في معظم الأحيان بعرض المدح حيث يـــنظم الشاعـــــر الثمريـــات مادحا هدية ممدوحه ، أو يُقرن أبيـــاته بهديته لممدوحه التي غالبا ما تكون سلالا مملوءة بنـــوع واحد من الثمار أو أكثر ، ومثل ذلك ما نظمه ابن زمرك في وصف ثمار الكمثرى حيث شـــبّهها بحقاق الزبرجد ، وشبه زهرها بلؤلؤ استحال زمرداً فاق حسنه سرب العذارى النهـــدّ ، يقـــول الشاعر :-

أنبـــاتُ روض أم حقـــاقُ زبرجَـــــدْ ... في خـــضـــــرة شـــيبت بصفْرةِ عسجدِ ؟
ذوْبُ اللّجين وقـــــد كـــســـاه حُسنُهُ ... خُـــضْـــرَ الحُلَـــى للسندس الخضِلِ النّدي
كانت أزاهُرهـــا زواهِـــــرَ لؤلـــؤٍ ... ثم اســـتـــحـــالت بـــعـــدهـــــا لـــزمُـــرُّدِ
مثـــل الثـــدِيِّ نواهداً قـــد أخـــجـــلت ... مـــن حســـنِـــها سربَ العذارى النَّهدِ (١)

وفي أبيات أخرى لابن زمرك بعث بها مع هدية فيها ما لذّ وطاب من البطـــيخ واللـــبن واللحم ، يمكن الوقوف عند ما قيل فيها في وصف البطيخ وبعض الفواكه الصفراء والخضـــراء، فقد أراد إغراء ممدوحه بتذوق تلك الثمار وإثارة شهيته لا سيما وأنه صائم :-

وفاتحني مـــــنـــهـــــا بكـــل غـــريبـــة ... مُنَـــوَّعـــةٍ مـــن كـــــل مـــا يتخيـــلُ
بفاكهـــة تـــهـــدي إلـــى النفس ما اشتهت ... ولا سّـــيما والنـــفـــس بالصوم تَدْمَلُ
فمخضـــرةٌ أشـــكـــالـــهـــا مـــن زبرجـــدٍ ... ومصـــفَـــرةٌ من عســـجـــدٍ تتمَثـــــلُ
وقوراء قرص الشمس من دون حســـنها ... وإن قـــُسمت منهـــا الأهلة تخجلُ (٢)

ومن الثمار التي سحرت الشعراء بمنظرها، وأوحت إليهم بكثير من الصـــور الشـــعرية الرشيقة ، ثمرة النارنج وهي تتدلى على أغصانها وتحفّ بها أزهارها ، وقد قال أبو جعفر بـــن عبد الحق (٣) فيها :-

---

(١) ابن زمرك ، الديوان، ص ١٩٤ .
(٢) ابن زمرك ، السابق ، ص٢٤٦ .
(٣) هو أحمد بن عبد الحق الجدلي ، من أهل مالقة ، يكنى أبا جعفر ، ولد سنة ٦٩٨ هـ وتوفي ينة ٧٦٥ هـــ ،ابـــن الخطيب ، الإحاطة ،ج١،ص ١٨٠ ، المالكي ، ابن فرحون ، الديباج المذهب في معرفة أعيان المـــذهب ، ص٤١ ، (تحقيق محمد الأحمدي أبو النور) ، نشر دار التراث ، القاهرة .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وثـــمـــار نارنـــج تُـــرى أزهـــــارُهُ مع قانـــيء النـــارنـــــج فـــي تنضـــيـــدِ
فإذا نـــظـــرتَ إلى تـــآلـــفـــها أتـــتْ كمباســـمٍ أومَـــتْ لِلـــثـــمِ خـــدودِ (١)

وفي ثمرة الرمان جمال استرعى اهتمام الغرناطيين ، وأتوا على لونه الجميـــل ، ومـــا يحوى بداخله من حب ، وتركوا في تشبيه تلك الثمرة الطيبة صوراً عذبة ، ومن ذلك ما قاله أبو البقاء الرندي (٢) في وصف رمانة ذات منظر بديع ، فقشرها الجميل قد ضم في داخله حباً كأنه جواهر الياقوت :-

لله رمانـــةٌ قد راق منظـــرهـــــــا فمثلهـــا ببديع الحســـن مـــنـــعـــوتُ
القشـــر حـــق لهـــا قد ضمَّ داخـــله والـــشَّحـــم قطـــنٌ (٣) والحبّ ياقوتُ (٤)

رابعاً : المائيات و الثلجيات :-

إن الأنهار والأودية عناصر هامة في تكوين صورة الطبيعة عند الشـــاعر الأندلســـي ، ونهر شنيل هو النهر الذي لم يمل شعراء هذه الفترة من مشاهدته والإعجاب بـــه ، فهـــو نهـــر يلتحق بالوادي الكبير من ضفته اليسرى ، وللأنهار تحديداً ميزة ترفعها عن بقية عناصر الطبيعة الصامتة فهي العنصر الأكثر جمالا وحيوية ، والذي بإمكانه أن يســـتفز البراعـــة الفنيـــة عنـــد الشعراء ، ويستثير خصب أخيلتهم ، ومع ذلك فقد يستعمل الشعراء الصورة ذاتها التي ساقها ابن زمرك في تشبيه بسيط عادي قائلاً :-

والنهـــرُ كالصـــارع الصقيـــــــلِ فـــي حـــلـــيـــة الـــنـــــور يغمـــد (٥)

ومثل ذلك تشبيهه النهر وقد علاه الحباب في جريه، كمثل الحسام الذي يُسل تارة ويغمـــد تارة أخرى :-

---

(١) ابن الخطيب ، الكتيبة الكامنة ، ص ١٢٣ – ١٢٤ .
(٢) أبو البقاء الرندى : هو صالح بن أبي الحسن يزيد بن صالح بن موسى بن أبي القاسم بن علي بن شريف يكنى بأبي الطيب وبأبي البقاء ، كان فقيهاً ، حافظاً متفنناً في الفن والشعر، له مختصر في الفرائض ، وكتاب اسمه " الوافي في نظم القوافي " ٠ابن الخطيب،الإحاطة،ج٣،ص٣٧٥ ٠ الداية، محمد رضوان ، (١٩٨١م)٠ أبو البقاء الرندى شاعر رثاء الأندلس ، دمشق : مطبعة خالد بن الوليد .
(٣) كذا في الأصل ، ويستقيم الوزن لو قال : (والشحم قطنٌ بها) .
(٤) ابن الخطيب ، الإحاطة ، ج٣، ص ٣٧٠ .
(٥) ابن زمرك ، الديوان ، ص ١٢٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والنهـر قد سـلّ كمـثـل الحـسام حبابه تطـفـوُ وطـوراً تغـيـب (١)

وقد حاول الشاعر أبو جعفر بن شطرية القرطبي وصف النهر بشكل يختلف قليلا عـن وصف من سبقوه قائلاً :-

انـظـر إلـى الـنـهـر الـذي لا يـنـقضـي خفـقـانـهُ
أمـواجُـهُ فـي دوحِـهِ مـاجـت بـهـا أشجـانُـهُ
مرحـت بـه فـي ملـعـبٍ مـتـرادفٍ فـرسـانُـهُ
أمسـى جـمـوعـاً إذ غـدا بـيـد الـنـسـيـم عنـانـه
قد درعـتـه الـريـح إذ طـعـنت به أغـصـانـه (٢)

وتبدو اللوحة نابضة بالحيوية والحركة ومتنوعة تنوعاً يستوقف الدارس فالمشبه واحد ، بينما يختلف المشبه به في كل بيت عن الآخر ، وكأن كل شاعر كان يحاول أن يبذل قصـارى جهده لإشباع رغبة السامع واستثارة مخيلته ، فها هو أبو جعفر ينظم أبياتاً شعرية تحمـل بـين ثناياها صورا حسية ، حيث يشبه النهر محفوفا بالأزهار الملتفة والخمائل التي يعانق فيها الورد البهار، كأنه "مشرفي اكتسى بفرنده" ، أما اختفاؤه تحت ظلال الخمائل أثناء جريانه فكأنه السيف المردود إلى غمده ، يقول :-

ومنـمنـم الشطيـن منـه حَـمائل كالمشرفي(٣) قد اكتـسى بـفـرنـده
فخمائـل الديباج مـنـه خـمـائـل متعانق فـيها البهار بـورده
وقد اختفـى طـوق لـه فـي دوحة كالـسيـف رُدّ ذبـابـه فـي غمده (٤)

ويصف أبو البقاء الرندى النهر وهو يسيل كأنه الجمان ، وما يزين شواطئه من أزهـار كأنها النجوم ، ويلتقي مع بقية الشعراء في الصورة التي تكاد لا تنفصل عـن مشـهد تصـوير الجداول والأنهار حين يشـبه هذه اللوحـة بسيفٍ مرصع بالجواهر وهو يُستل مـن غمـده إذ يقول :-

---

(١) ابن زمرك ، الديوان ، ص ٥٥٣ .
(٢) ابن سعيد ، المغرب في حلى المغرب ، ج ١، ص ١٤٠ .
(٣) المشرفي : المنسوب إلى قرى من أرض العرب تدنو من الريف ٠ اسمها مشارف الشام ٠ ابن منظور ، لسان العرب، مادة شرف .
(٤) ابن الخطيب ، الإحاطة ، ج ١ ، ١٨٢ ٠ و الكتيبة ، ص ١٢٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وأزرق محفوف بزهرٍ كأنه ... نجوم بأكناف المجرةِ تزهرُ
يسيل على مثل الجُمان مسلسلاً ... كما سُلَّ عن غمدٍ حسامٌ مجوهرُ(٣)

وقد أجاد ابن زمرك في وصف الأنهار، فهو دائماً يطرب لمرآها وينعم بوجودها كغيره ممن حققت لهم الخصب والنماء ، ويتمتع بما تسببت فيه من المناظر النابضة بالحياة من الخمائل والجنّات، وهو من شدة إعجابه بشنيله لا يجد مشبها يليق به ويرضيه، ففكر في المجرة لما نعته فقال :-

وانظر الى الدوح والأنهار تكنفها ... مثل الندامى سواقيها سواقيها
حصبا ؤها لؤلؤ قد شف جوهرها ... والنهرُ قد سال ذوباً من لآليها
نهر المجرةِ والزهرُ المطيف به ... زهرُ النجوم اذا ما شئت تشبيها
يزيد حسنا على نهر المجرة قد ... أغناه درُ حباب عن درارِيها(٢)

وينكر ابن زمرك تعلّق الشعراء الأندلسيين بنهر النيل باعتباره أبرز فضائل المشرق، فهو يخالف أذواقهم ويرى في نهر شنيل صورة النهر الأجمل والأكثر حيوية ، ويبدو ذوقه مشمولا بعاطفة الحب والتعلُّق بالوطن وبتضاريسه فيقول مقارناً بين هذا وذاك مستخدما براعته اللغوية : -

شِنِّيلها مُد منه نيل ... والشين ألف لمستنيل(٣)

وهذا بيت لابن زمرك في وصف النهر مليء باستعارات مبتكرة تدل على عبقرية خيالية وظفها الشاعر لابتكار صور تستميل السامع وتستوقفه يقول : -

يجري على الحصباء وهي جواهرٌ ... متكسراً من فوقها مهما عَثَر(٤)

---

(١) ابن الخطيب ، الإحاطة ، ج٣ ، ص ٣٦٧ .
(٢) ابن زمرك ، الديوان ، ص ٥٠٠ .
(٣) ابن زمرك ، السابق ، ص ٥٣٢ ، ويوجد في ص ١١٥ من الديوان بيت يحمل نفس المعنى .
(٤) السابق ، ص ٤١٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وصدق من قال إن ابن زمرك شاعر الرقة والطبيعة، فهو لم يغفل عن وصف مشهد فيها، فها هو يصف البحر الذي لم يحظ باهتمام كثير من الشعراء أو ربما لم يكن اهتماما جديراً بالذكر حتى عند ابن زمرك نفسه، لكنه استرعى انتباهه في مرات قليلة حيث اهتدى اليه باستعمال صور عادية أخذها عمن سبقه من الشعراء أمثال المعتمد بن عباد أمير اشبيلية (١) فيقول مثلاً:

بـه البحر دفـاع الـعـبـاب تخالـه اذا ما انبـرى وفد النـسـيـم مـباريا
اذا ما جـلـتْ ايدي الصبا صفح متنه أرتنـا دروعاً واكتسـبـنـا الأيـاديا(٢)

وفي بيت آخر ذكر فيه مالقة وتعجب من بهائها، أشار ابن زمرك الى أبرز ما يميز هذه المدينة حيث امتد البحر على ساحلها، فكأنه مرآة صقيلة تنظر إليها مالقة وتتمتع بجمال منظرها:

والـبـحـر مرآتـك الـصـقيلـة تـشـف عـن ذلك الـجـمـالْ (٣)

ويعد منظر الثلج منظرا بهيجا ممتعاً ، يفرح القلب خاصة في جبل شُلّير(٤) الذي لا يفارقه الثلج ، لذا فقد كان لبعض الشعراء أبيات في الثلجيات التي "بدأت في الأندلس متأخرة تماما كحالها في المشرق"(٥) ، ومع وجود هذه الثلجيات إلا أنها قليلة اذا ما قورنت بالروضيات والمائيات.

وهذه أبيات لشاعر عاش في غرناطة وأحبها كل الحب ، وفي كل الأحوال و كل الفصول ، وقد قال أبياته هذه مستنكراً الضيق والبرم الذي أحس به أصحابه حين نزل الثلج بغرناطة ، وهذا الشاعرهو أبو بكر محمد بن شبرين السبتي(٦) ، وقد جاءت أبياته هذه مرصعة بجناس وتورية وحسن تعليل ، بقدر يغني النص ويثريه ، يقول:-

---

(١) حجاجي ، حياة وآثار ابن زمرك "شاعر الحمراء" ، ص١٨٧ .
(٢) ابن زمرك ،الديوان ، ص ٥٢٣ .
(٣) ابن زمرك ، السابق ، ص ٥٤٧ .
(٤) انظر الدراسة ، ص ١٤ .
(٥) الشكعة ، الأدب الأندلسي ؛ موضوعاته وفنونه ، ص ٣٣٠ .
(٦) السبتي : هو محمد بن أحمد بن محمد بن شبرين ، يكنى أبا بكر (ت٧٤٧هـ) قاض وفقيه كان أحد شيوخ ابن الخطيب ، وقد قدم على الأندلس ، وذو الوزارتين ابن الحكيم يبر ملكها ٠ابن الخطيب ، الإحاطة ،ج٢، ص٢٣٩ ٠والكتيبة، ص١٦٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

رعى اللهُ من غـرنـاطـةٍ مـتبوّءاً ... يـسر حـزيـنا أو يُـجـيرُ طـريـداً
تبـرم منـهـا صاحبي عندما رأى ... مسارحها بالثـلج عُدنَ جـلـيـداً
هي الثـغـر صان الله من أهِلت به ... وما خيـرُ ثغرٍ لا يكـون بَـرودا (١)

وقد يستغل شاعر رقيق يعشق الطبيعة مشهد نزول الثلج في غرناطة ، كما فعـل ابـن زمرك لينشئ أبياتاً رقيقة فيجمع بين وصف الثلج ومدح سلطانه في براعة تمثلت في قوله :-

يا مـن به رتب الإمارةِ تَعتـلـي ... ومعالم الـفـخـر الـمـشيدة تَبـتني
أزجرْ بهـذا الثـلـجِ فـألاً إنّـهُ ... ثلـجُ الـيـقـيـن بنصر مولانا الغني
بسط البياضَ كـرامـة لـقـدومـهِ ... وافـتر ثغـراً عن مـسَّـرةِ مُـعْـتن
فـالأرض جوهـرةٌ تلوح لـمـجتّلٍ ... والدوحُ مَزْهَـرَةٌ تفوحُ لمـجـتَـن (٢)

وهكذا يتَّضح أن الغرناطيين وصفوا الطبيعة الصامتة من حولهم بجزئياتهـا، ورسـموا لوحات تمتع العين بألوانها الزاهية يحلق فيها الخيال، وينبض فيها التخييل لكن المتأمل والدارس لهذا الشعر مع شعوره بالاستمتاع، ووقوفه على الابتكار والإبداع فيه لا يخفى عليه أن ما وقـع عليه من شعر في هذه الفترة ما هو إلا امتداد حسن لشعر الطبيعة الأندلسية ، والتحـاق موفـق بركبه ، أما الإبداع المطلق الذي يميز هذا الشعر عن شعر من سبقوا في هذا المجال أمثال ابـن خفاجة وابن حمديس وغيرهم ، فلم يصل إليه شعراء هذا العصر .

---

(١) المقري ، نفح الطيب ، ج ١ ، ص ١٦٦ .
(٢) ابن زمرك ، الديوان ، ص ٤٩٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ب – الطبيعة الصائتة :-

إذا كان وصف الطبيعة الصامتة برياضها وأشجارها وأزهارها وجبالها وسمائها...الـــخ قد استحوذ على اهتمام الشعراء منذ الأزل فإن وصف الطبيعة الحية كان ملازما لهذا الاهتمـــام على مر العصور٠ ويؤكد الدكتور شلبي على عناية الشعراء الأندلسيين خاصة بوصف الطبيعـــة الحية قائلا : (وكما عشق شعراء الأندلس الجمال الطبيعي الصامت ممثلا في الحدائق والأزهار والفواكه والمياه ، عشقوا الجمال الطبيعي الحي ممثلا في الخيـــل والزرافـــة والحمـــام والأســـد والذئاب والكلاب ونحوها من الحيوان ، ووصفوا النمل والنحل والعقرب وغيرها من الحشرات، ومن الزواحف وصفوا الحية والثعبان والسلاحف وغيرها ...) (١) ٠

إن وجود أشعار ومقطوعات شعرية في وصف الطبيعة الحية لدليل واضح على اهتمـــام الشعراء الغرناطيين في ظل بني الأحمر بهذا الجانب من الوصف ، فقد وقفـــت الدراســـة علـــى نماذج عديدة تتراوح مابين وصف للطيور وما بين وصف للحيوانات والحشرات٠

أولا : وصف الحيوان

أ – وصف الخيل :

لقد شغلت الخيل الشعراء العرب ، واحتل وصفها القسم الأكبر من النصوص الوصفية ، و " نالت اهتمام الشاعر الأندلسي ، وحظيت بحرصه عليها ، وتفاخره بها ، وبقوتها وســـرعتها ونجابتها ، لما تفجّر لديه من رموز ومعان كثيرة يتشبث بتحقيقها كالبطولة والشجاعة والرجولـــة والمجد " (٢) .

---

(١) شلبي ، سعد اسماعيل ، (١٩٧٨م) . البيئة الأندلسية وأثرها في الشعر ، ص ١٤٧ .
(٢) السعيد ، محمد مجيد ، (١٩٨٠م)٠ الشعر في عهد المرابطين والموحدين ، ص٤٥ ، بغداد : دار الرشيد للنشر .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويبدو أن وصف الخيل عند الغرناطيين له حضوره في شعرهم لكن الوقوف عليه لم يأت مطولا كما جرت العادة على وجوده في قصائد المدح خاصة ، حتى إن المقطوعات التي جاءت متخصصة في وصف الخيل كانت قليلة العدد عند أبرز شعراء هذه الفترة .

ففي قصيدة طويلة لابن خاتمة يبدأها بمطلع طللي فيه وقوفٌ على آثار الحبيبة، وترددٌ للنظر في ذلك الباقي من ديار قومها بعد رحيلهم ، يتمنى لو تنقله الخيل إلى ديار المحبوبة الجديدة فيذكر بعض الجياد التي يطمح أن تكون وسيلته في الانتقال السريع ، ثم يخرج لملمح حماسي يذكر فيه بعض مغامراته في ركوب الخيل ، وفي الأبيات يذكرالشاعر عددا من صفات الفرس المفضلة لديه فإما أن يكون أشقر (١) كالبرق ، أو أشهب (٢) كالشهب ، أو أحم (٣) يخترق المفاوز ، كما أنه يحب أن يكون فرسه أشوسَ ، نهداً ؛ حسنا جميلا جسيما لحيماً وقد عبر عن ذلك بقوله :-

يا هل تبلغنّي الجيادُ منازلاً ... قلبي نزيلٌ في حمى نُزَلائها
من كل أشوسَ للعواصف ينتمي ... في مَرِّها وكرورها وعدائها
ولرب ليلة انطوت مِنّي على ... مثل الصباح أجولُ في أرجائها
متبطنا نهداً أحمَّ رفعتُ من ... داجيهِ ما مزّقت من ظلمائِها(٤)

ومن القصائد النادرة التي خصصت برمتها لوصف الخيل عند الغرناطيين قصيدة في وصف جواد أهدي إلى ابن الجياب، وتعدّ من أجود قصائده ، ومن أروع قصائد الوصف لديه، فعلى غير عادته لم يخلص في نهايتها لغرض المدح – كما عرف الدارسون عنه(٥)– وربما أن الضمير المتصل في "جوادك" الذي يعود على الممدوح بالتأكيد كان سببا في عدم اللجوء إلى مدح الممدوح شخصيا ، فالإطراء على جواده يحمل ضمنا إطراءً ومدحا لذات ممدوحه ، يقول الشاعر في أول قصيدته :-

---

(١) أشقر : من ألوان الفرس وهو أن يحمّر لونه . ابن منظور ، لسان العرب ، مادة شقر .
(٢) أشهب : الأبيض من الفرس . ابن منظور،السابق ، مادة : شهب .
(٣) أحم : الأسود من كل شيء . السابق ، مادة : حمّ .
(٤) ابن خاتمة ، الديوان ، ص٨٤ .
(٥) انظر مبحث الوصف في كتاب النقراط ، علي محمد ،(١٩٢٤م)، ابن الجياب الغرناطي ، حياته وشعره ، ط٢ ، ص٢٦٧-٢٧٧ ، بنغازي : الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لله درّ جـــوادك الأصـــــــدا(١) بالحق أن يُـــهدى ويُـستـــهـــدى
مـــاشـئـــت مـــن خلـــق ومن خلق عـــتـــقاً وسبـــقـــاً جـــاوز الحـــدا
يـــختـــال من فـــرطِ المـــراحِ قمـــا أحـــــلاه هـــزلاً شـئـــب أو جـدا (٢)

ويتابع الشاعر واصفاً لون جواده المتلألىء وسرعته الفائقة قائلا :-

ما بين شـــقـــرتـــه وحـــمـــرتِـــهِ لـــونٌ تـــلألأ نـــــــوره وَقَـــــدا
مـــتـــوقـــد اللحـــظـــات تحـــسـبها مُـــلـــئت عـــلـــى أعـــدائـــه حـــقـــدا
يـــســـري علـــى الأعـــداء صـــاعقةً ولـــمـــن يحبك كـــوكـــبـــاً ســـعـــدا
ذو غرة سالـــت فـــتحـــســـبـــهـــا خـــيطُ الـــصـــبـــاح بـــوجهـــه امـــتدا
وحوافـــرٍ مثـــل الـــزمـّـــرد فـــي لـــونٍ وإن كانـــت صـــفـــاً صَـــلـــــدا
جارى جيـــاد الـــعـــدوتـــيـــن فمـــا عـــرفـــتَ لـــه صـــَـــدْراً ولا وردا (٣)

وفي قصيدة أخرى لابن الجياب في وصف موكب الملك (٤) يخصص الشاعر هذه المرة جزءا من قصيدته لوصف الخيل التي يركبها الجيش ، فيصـف الأشـهب والأدهـم والأصـفر والأشقر والكميت والأحمر ، وإذا بالألوان على اختلافها مجتمعة في تلك الخيول كأنهـا قـوس قزح إذ يقول :-

من كل نهدٍ ضامرٍ عـبلِ الشـوى(٥) مـنـــه إلـــى نـــحـــر الـــعدوِّ نـــهـــودُ
مـــن أشـــهـــب مثـــل الشهاب بناره يـــرمي رجـــيـــمٌ من عداك مَـــريـــدُ
وكأنه الـتَـحَـفَ الـصـباحَ ملاءةً فـقـمـيـصـه مـن نـوره مـقـدودُ
أو أدهـــمٍ حـــامي الذِمـــار(٦) فكأنما هـــو في بني حـــام إذاً مـــعـــــدودُ(٧)

---

(١) الصدأة: شقرة تضرب إلى السواد الغالب ، وفرس أصدأ أي إذا كان أسودا مشربا حمرة .
(٢) ابن الجياب ، الديوان ، ص٢١٨ .
(٣) ابن الجياب ، السابق ، ص ٢١٨ .
(٤) يقصد هنا أبا الحجاج حاكم غرناطة من (٧٣٣ – ٧٥٥ هـ)، وقد اتخذ ابن الجياب وزيرا له مع الإبقاء عليه في رئاسة الديوان ، قدّر ابن الجياب ورفع قدره فخصه بالكثير من قصائد المدح . ابن الخطيب ، الإحاطة، ج ٤، ص ٣١٨.
(٥) عبل الشوى : العبل :الضخم ،والشوى :ما كان غير مقتل من الأعضاء،أي الأطراف ، والمقصود أن هذا الفرس غليظ القوائم .
(٦) الذِمار : كل ما يلزمك حمايتهِ وحفظه والدفاع عنه ، وإن ضيعته لزمك اللّوم "الحرم ، الأهل" .ابن منظور ، لسان العرب، مادة ذمَرَ .
(٧) ابن الجياب ،الديوان ، ص١٩٩-٢٠٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أو أصـــفر سامـــي الـــتليل(١) كأنما ... جـيـدُ الغـزالـة منـه ذاك الـجيدُ
التـبـرُ لون والزبـرجـد حافـرٌ ... والطـرف كـالـمرآةِ وهـو حديـدُ
أو أحمـــرٍ راق العـيـون فـلونه ... لون الـخـدودِ يـزيـنـها الـتـوريـد
أو أشـقر كـالبـرق في لـون وفي ... سـبقٍ فـنـعـمَ الـمـطـلبُ المنشودُ
أما الـكـمـيـت فلا تسلْ عن عتقه ... ما فاتـه يـوم الـجـلادِ شـرودُ (٢)

إن هذا التركيز على وصف الخيل وقوتها وألوانها لم يأت اعتباطا وإنما جاء مرتبطا في أغلب الأحيان بإبراز دورها وأهميتها في ساحة المعركة ، فقد عاش شعراء غرناطة حياة مليئة بالحروب والنزاعات وعبروا عن القلاقل التي مرت بهم ،ومدحوا الفرسان والخيل لإعلاء الهمم وللحث على مواصلة الجهاد ولم يغفلوا عنصر الرهبة والخوف الذي يمكن أن يعتري الأعداء إذا عرفوا قوة الخيول وراكبيها٠

ولابن زمرك بيتان في قصيدة مدح له يستنكر أن تكون الجياد الصافنات الشديدة السرعة إلا لممدوحه الغني بالله فمثل هذه الجياد المميزة لا يستحقها إلا مثل ممدوحه الأجل ، وفي هذا يقول:-

لِـمَـن الجـيـاد الصافنات كأنها ... فـي الورد أسـرابُ الـقـطا الأرسالِ
مِـن كلِّ ملموم القُوى عَبلِ الشوى ... مُـرخى العـنـانِ محـفـزٍّ جـوالِ (٣)

ويشترك الشعراء الأندلسيون في هذه الفترة بميلهم إلى استخدام المفردات والتراكيب اللغوية ذاتها في أثناء وصفهم للخيل ، مثل :عبل الشوى والتوريد وأجرد، كما أنهم يتشابهون في تشبيهاتهم وصورهم إلى حد كبير ففي قصيدة طويلة لابن الخطيب في المدح يصف الخيل في ساحة الوغى بتشبيهات تحمل معاني مألوفة وألفاظا تردد استعمالها مرارا وتكرارا إلا أن هذا لا يعني خلوها من خصوصية قادرة على الإفصاح عن قائلها فهذا الشاعر الوزير يملك زمام اللغة كما ملك زمام الوزارة ، يقول:-

---

(١) التليل : كساء جيد الثلة ، ويقال مجازا للدلالة على الشعر أو الصوف .ابن منظور ، لسان العرب ، مادة ثل٠
(٢) ابن الجياب ، الديوان ، ص١٩٩-٢٠٠.
(٣) ابن زمرك ، الديوان ، ص ٤٦٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وأعـد أوزار الحـروب صـوافـنـا تـمـضـي عـلـى عـقبانهن أسـوده
مـن كـل أجـرد سابق عبل الشوى مـا إن تـحـط عـن الـحـروب لبوده
يُـرمى بـه الـغرضُ البعـيد فينثني بطـلابـه كـثـب الـمـزار بـعـيـده
ويـكـاد يـنـتـعل الهلال إذا سرى ويـقـلـد الـشـمـس الـمنيرة جيده
وقـواضـبـا بـيضا سقين دم العدا فـبـدا عـلـى صـفـحاتها توريده(١)

ولم يفت ابن الخطيب أن يصف ما حل بخيول الأعداء وقـد ضـاقت عليهـا الـدروب واضطربت ولم تستطع تحديد وجهتها من الخوف ، فقد كانت ملحمة أبدع فيها جيش أبي الحجاج الذي ترك فرسان العدوّ جزرا على صهوات جيادهم التي "غدت من تحتهم أوضاما":-

والخيـل لـمـا ضـاق رحبُ مجالها لم تـسـتـطـع خـلـفـاً ولا قدامـا
مـالت فـوائقهـا عـلى أعرافها أوهنَّ سـكرى ما عـرفـن مُـداما
فـتخـالهـمْ جزْراً(٢) على صهواتها وتـخالها من تـحـتـهـم أوضـاما (٣)

وفي معرض رثاء ابن الجياب لرئيسه أبي سعد فرج بن اسماعيل (٤) يصور لنا الشاعر الخيول الأصيلة التي كان قد أعدها فقيده ذخراً ليوم النزال تبكيه اشتياقا له كمـا تبكيـه تمامـا البيض وسمر العوالي ، وهو يقصد بذلك أن يبلور صورة فقيده الشجاع المجاهد ، يقول :-

ولتبكـه الخيـلُ العتـاق الـتـي أعـدهـا ذخـراً لـيوم الـنـزال (٥)

---

(١) ابن الخطيب ، ديوان الصيب والجهام ، ص٤٢٢ .
(٢) جَزَرَ جَزراً ، أي نحر وذبح ، والمقصود : أنهم مذبوحون ومقتلون . ابن منظور ،لسان العرب، مادة جَزَرَ.
(٣) ابن الخطيب ،ديوان الصيب والجهام، ص٥٨٣ . والأوضام : مفرد الوضم وهو خشبة الجزار التي يقطع عليها اللحم. ابن منظور ، لسان العرب ، مادة وضم .
(٤) هو الرئيس أبو سعد فرج بن اسماعيل بن يوسف بن نصر ، ولي مالقة (٦٧٧ هـ) ثم فتح سبتة عام (٧٠٥هـ) دعا لنفسه عام (٧١١هـ) ، وتوفي عام (٧٢٠ هـ) .ابن الخطيب ، الإحاطة ، ج٢ ، ص ٢٤١ ، واللمحة البدوية ، ص٣٥ و٧٥ .
(٥) ابن الجياب ،الديوان ، ص٤١٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ب – حيوانات أخرى :-

تـــرك لنا شعراء غرناطـــة بعض المقطوعات الشعرية التـــي قالوهـــا فـــي بعـــض الحيوانات، مثل؛ الحوت والقط والغزال والزرافة ، ومنها مقطوعة لابن زمرك قالـــــها متفكّهـــاً في قط :-

أمـــولايَ قـــطَّ الـــدار قـــد بُـــحَّ صوته ... لكثـــرة مـــــا قـــد صـــاح بالباب من (مِيوْ)
يُقـــال له (إسبِّ) من حيث مـــا أتـــــى ... و (إســـبِّ) فـــي علم القـــطـــوط كلامُ سَـــوْ(١)
فهلاَّ دَعَـــوْهُ (مشِّ مشْ مشْ) إذا دعـــوْا ... وإن لـــم يقـــولوا (مشِّ مشْ مشْ) يُقـــالُ (حَوْ)
ولا يـــسمعُـــوه لفـــظ فـــجٍّ فـــإنهـــا ... تقالُ لأرذال الـــكـــــلابِ إذا عَـــــــوَوْا
ويـــالـــيـــت قـــط الـــدار لـــوعادَ بُرطلاً ... يصيح بسقف الدارحيـــن يـــجـــوع جَـــوْ (٢)

ويبدو أن ابن زمرك كانت تسيطر عليه فعلا روح الفكاهة حتى إنها طغت على براعتـــه اللغوية، فجاءت المقطوعة خالية من الشاعرية ، ولا يريد الباحث تحميل النص فوق طاقتـــه إلا أن هذا القط قد يكون رمزاً ، وإن كل ما دار حوله ومعه من إيماءات تتعلق بموقف معين معنـــاه في بطن الشاعر .

ومما قيل في وصف الحوت مقطوعة لابن الجياب قالها ملغزاً ، حيث ألغـــز الشـــعراء الغرناطيون في العديد من الأمور، ومنها الإلغاز المتعلق بالحيوانات، لكن ما يُقال فيها لـــم يكـــن يُركّزُ تماماعلى وصفها ، بل على ما يتعلق بها من قصص ومايرتبط بها من صفات ، والملاحظ أن ذكر الشعراء الغرناطيين لهذه الحيوانات هدفه إظهار البراعة اللغوية فقط يقول ابن الجياب:-

مـــا حيـــوان فـــي اســـمـــه ... إن اعـــتـــبـــرتـــه فـــنـــــون
أحـــــرفه ثـــــلاثـــــــة ... والـــــكـــل مـــنـــهـــا نـــــون
إن أنـــت صـــحَّـــفـــت اسمه ... فـــما جنـــاه الـــمـــذنـــبون (٣)

---

(١) أي سوء لتخفيف الهمزة .
(٢) معنى البيت غير واضح ولعل فيه تورية أو كناية .ابن زمرك ، الديوان ،ص ٣٤٢ – ٣٤٣ .
(٣) ابن الخطيب ، الإحاطة ، ج٤ ، ص ١٤٦ . والمقري ، نفح الطيب ، ج٥ ، ص ٤٥٣ – ٤٥٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أو أبـيـــض أو أســـــود ... أوصـفةُ الـنـفـــس الخـؤون
قـلـب اسـمه مصـحـفـا ... عـلـيه دارت الـسّـنـــون
كانـت بـه فـيمـا مـضى ... عـبرة قـــــوم يعـقلـون(١)
أودع فـيـــه زمـنـــا ... سرٌّ مـن الـسّـــــر الـمصون
فـهـاكـه كالـنـار في الـ ... زنـدِ لـه فـيـهـا كـمـون (٢)

أما ابن زمرك فله سبعة عشر بيتاً من الشعر يلغز فيها في حوت ، وقد أبدع في نظم هذا اللغز لأنه استخدم كل موروثه اللغوي والثقافي، ووظفه توظيفا ذكيا ينم عن دراية ومهارة ودقةَ إحكام ، يقول ابن زمرك:-

حاحَيـتُـكَ مـا اسـمٌ لـه منـزلٌ ... فـي العَـالمِ الـعُـلـويِّ لمن يستبينْ ؟
واللهُ قـد عَّـددهَ نـعمـــةً ... لمنْ عـلـى الأرض من الـسـاكـنـين
قـد جاء فـي الـذكـر له موضعاً ... ن اثنـان ذكّـر بهمـا الذاكـريـن (٣)
كـلاهـمـا فـي آيـــــةٍ ... خـصّـتْ نَبَّـييْـن من المرسلين (٤)
تـصحـيـفـه قطـعُ فـلاةٍ لِـمَنْ ... يَـضـربُ في الأرَض من السـائحين (٥)
واسـم لـبـعـض الخيل في لونِها ... يـصـلـح للـضّـدين في كل حينْ (٦)
وجـمعُـه وصـف لـيـالٍ وقـدْ ... أوضـحـتُـه كالصّبح لـلـسـامعينْ
وإن تُصـحِّـفْ بـعـضَـه تُلْـفِـهِ ... ذنـبـاً نـعـاه الـوحيُ لـلـخـاطئينْ
وإن تـصحـفْ بعـض مـقـلوبهِ ... فـإنـه اسـم لـنـبّـي مكـيـنْ (٧)
أو فـعـلُ من يـفـضـحُ أسرارَه ... ولـيـسَ لـلـسِّـر مـن الكاتمينْ (٨)
مرادفُ اسـمٍ مـنـه حـرفٌ(٩)أتى ... فـي سـورتـي وحي لـنا مستبينْ (١٠)

---

(١) يشير الشاعر إلى قصة سيدنا يونس والحوت .
(٢) ابن الخطيب ، الإحاطة ، ج٤ ، ص ١٤٦ . والمقري ، نفح الطيب ، ج٥ ، ص ٤٥٣ – ٤٥٤ .
(٣) ابن زمرك ، الديوان ، ص ٢٣٢ .
(٤) يأتي ذلك في القصص ، في قصة سيدنا يونس ، وكيف ابتلعه الحوت ، وفي قصة سيدنا موسى وفتاه ، وكيف فَـرّ منهما الحوت .
(٥) يقصد (جوب) وهو قطع الفلاة وخرقها . ابن منظور، لسان العرب ، مادة جَابَ .
(٦) يقصد (جون) وهو من الأضداد .
(٧) الأرجح أنه يقصد سيّدنا (نوح) عليه السلام .
(٨) يقصد (بَوْح) .
(٩) مرادف الحوت : (النون) وهو حرف النون ، وجاء في سورتي (ن والقلم) و (ذا النون ..) .
(١٠)ابن زمرك ، الديوان ، ص ٢٣٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومن يتأمل القصائد السابقة يجد تشابها كبيراً في الأمور التي ارتكز عليها اللغزان لغويا وثقافياً.

ومما قاله ابن الجياب ملغزا أيضا مقطوعة في وصف الغزال ، حيث بدأ هذه المقطوعة بالتركيز على وصف حسن الغزال ومحاسنه، ثم عاد مرة أخرى للتركيز على لفظ اسمه إذا حُذف أوله أو ثانيه أو ثالثه٠٠ ، يقول:-

حاجيتكم ما اسمُ شيءٍ ... يروقُ في الوصفِ حسنا
له محاسن شتّى ... منها فرادى ومثنى
---------- (١) ... له بل الشعر أثنى
إن زال أولُ حرفٍ ... زال الذي منه يُعنى
أو زال ثانيه منه ... فالقتل أدهى وأفنى
أو ثالثه فهو ... وَ لَعْوُ صبٍّ مُعَنّي
أو زالَ رابعِه فالـ ... ـجهاد فيه تسنّى
فأوضحِ القصَد يا مَنْ ... قد فاق عقلا وذهنا (٢)

ومن أجمل ما قاله ابن زمرك في وصف الحيوان ، وصفه زرافة جلبت جمهورا غفيرا لمشاهدتها ، وكانت هدية من ملك السودان إلى السلطان أبي سالم ملك المغرب، حملها إليه وفد الأحابيش مع مجموعة من الهدايا ، فأمر السلطان الشعراء أن ينظموا في غرض وصف الزرافة، فاغتنم هذه الفرصة ليمدح الأمير القائم بقصيدة خصص فيها عشرة أبيات لذكر هذا الحيوان ، والجميل أن ابن زمرك وصف الزرافة بصور جاء أكثرها مقتبساً من الطبيعة ، فقد وصفها بعد المدح بقوله :-

وأتتكَ يا ملكَ الزمانِ غريبةٌ ... قيدُ النواظرِ نزهةَ الأبصارِ
موشيةُ الأعطافِ رائقةُ الحُلى ... رقمتْ بدائِعَها يَدُ الأقدارِ (٣)

---

(١) بياض في نفح الطيب .
(٢) المقري ، نفح الطيب ، ج٥ ، ص ٤٥١ – ٤٥٢ .
(٣) ابن زمرك ، الديوان ، ص ٤٣١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

راقَ العيونَ أديمُها فكأنّهُ ... روضٌ تفتّحَ عن شقيق بهارِ
ما بين مبيّضٍ وأصفرَ فاقع ... سال اللّجينُ به خلالَ نُضارِ
يحكي حدائقَ نرجسٍ في شاهقٍ ... تنساب فيه أراقمُ الأنهارِ
تحدو قوائمُ كالجذوع وفوقها ... جبلٌ أشمٌّ بنورهِ متواري
وَسَمتْ بجيدٍ مثل جذع مائلٍ ... سهل التعطّفِ ليِّن خَوّارِ
تستشرفِ الجدرانُ منه ترائباً ... فكأنما هو قائم بمنارِ
تاهَت بكلكلها وأتلعَ جيدُها ... ومشى بها الإعجاب مشيَ وقارِ
خرجوا لها الجمَّ الغفيرَ وكلَّهم ... متعجّبٌ من لُطفِ صنع الباريَ
كل يقولُ لصحبه قوموا انظروا ... كيف الجبالُ تقادُ بالأسيار (١)

وكان الشاعرفي بداية قصيدته قد ركزعلى فكرة غرابة هذا الحيوان و خلع عليه صفات ارتبط ذكرها بوصف الناقة مثل قدرتها على التحمل فقد قطعت الفلاة وتكبدت لفح الهجير(٢)، ويعود في الأبيات السابقة إلى معنى الغرابة مرة أخرى ، تلك الغرابة المتمثلة في شكلها الطريف الذي يجذب الأبصار فهو على حد تعبير الشاعر"نزهة الأبصار "، فأديمها متشح بالوشي والزخارف ، مرقوم ، وألوانه متباينة ومتنوعة ما بين الأصفر والأبيض والأسود ، أما الزخارف الغريبة التي عليه فقد تفنن ابن زمرك في تشبيهها وفي انتقاء الصور الحسية المناسبة لها ، فتارة يشبه هذا الأديم بروض "تفتح عن شقيق بهار" وتارة يشبهه "بحدائق نرجس في شاهق" تنساب فيه الأنهار، فيغدو أديم الزرافة في ذهن السامع حلة "رائقة الحلى" ٠

ثانيا: الطير

الطيور من أكثر عناصر الطبيعة الحية حيوية وجمالاً وتفاعلاً مع عناصر الطبيعة الأخرى ، وقد وصفها شعراء غرناطة ، وخصوا بعضها بوصف دقيق مثل البلبل وأم الحسن والشادي والبازي والصقر ، ففي مقطوعة يتجّلى فيها جو البهجة بأنوار الربيع المشرقة، يصف ابن خاتمة البلبل وسط مشهد ربيعي خصب ، فهذا هو البلبل الذي يصدح منتشيا بما أبرزته له الطبيعة من مفاتنها، وإن كان هو محور وصف الشاعر فإن بقية عناصر الطبيعة تساعده وتتفاعل معه كأنها جوقة متعددة الأطراف ، ومتجاوبة الأصوات ، يقول ابن خاتمة :-

---

(١) ابن زمرك ، الديوان ، ص ٤٣١ .
(٢) انظر مقدمة القصيدة في ديوان ابن زمرك ، ص٤٣٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ووردية الجلبابِ أعجَبَها الوَرْدُ ... فغنّتْ وما بالغانياتِ لها عَهْدُ
تُريك اضطرابَ الراقصات إذا انثنت ... وتسمعُ لحنَ المسمعاتِ إذا تشدو
أتتْ وبطاحُ الأرض تُجلي عرائساً ... وفي كل غصن من أزاهره عِقدُ
وقد أبدتِ الدنيا محاسِنَ وجْهها ... فمِنْ زهْرةٍ ثغرٌ ومنْ وردةٍ خدُّ
وساعدها طيبُ الهواءِ وفضلُهُ ... وفصلُ الربيع الغضُّ والمنزلُ السَّعدُ
فغنتْ غناءَ الشَّرْبِ(١)أنشَتهُمُ الطِّلا(٢) ... وحنّت حنين الصبِّ باحَ به الوَجْدُ(٣)

وقد اعتمد ابن خاتمة في وصف البلبل على أسلوب التشخيص الذي بعث الحيوية في النص ، كما أن الشاعر وضح كيف أسهمت الطبيعة الخلابة في رفع غناء البلبل إلى غاية الإبداع والكمال ، وكأنه أراد من ذلك كله أن يبرز عظمة الخالق، وقدرته في خلق عالم منسجم ومتناغم مع بعضه بعضا .

ويصف ابن خاتمة البلبل مرة ثانية في مقطوعة أخرى ، فها هو يقدم لنا مشهدَ عرسٍ بهيج ينتظم وسط الرياض كل طلوع شمس وغروبها ، يقيمه البلبل الشادي متألقا بين ربوع الطبيعة ، وفي هذا يقول الشاعر :-

وخرساءَ إلا زمانَ الربيعِ ... ففي سَجْعِها طرَبٌ للخليعِ
أتت تمدحُ النوْر فوق الغُصونِ ... كما يشكر الحرُّ حسنَ الصّنيعِ
تُقيم له عُرُساً في الريا ... ضِ عند الغروبِ وعند الطلوعِ
تُغنِّي مديداً ومهما يقل ... لها بدِّلي وقعتْ في السريعِ
ومن عجبٍ أن تسْجيعها ... بديعٌ ولم تدْرِ سَجْعَ البديعِ (٤)

ويبدو أن هذه الخرساء لم ينطقها إلا فصل الربيع بزهره ونوره ورياضه المشرقة ، وما تنطق به عندئذ هو "سجع البديع" وفي العبارة تورية : يقصد بها سجع بديع الزمان الهمداني في

---

(١) الشَّرْب : جمع شارب مثل : صحْب وصاحب .ابن منظور ، لسان العرب ، مادة شرب .
(٢) الطلا : الطلاء : الخمر .وفي الصحاح : ما طُبخ من عصير العنب حتى ذهب ثلثاه ، وبعض العرب يُسمي الخمر الطلاء . ابن منظور ، السابق، مادة طلى .
(٣) ابن خاتمة ، الديوان ، ص ١٢٣ .
(٤) ابن خاتمة ، السابق ، ص ١٢٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مقاماته كما يقصد بها البديع علماًمن علوم البلاغة ، والسجع من علوم البديع ، وذلك كجمعه في قوله "تُغنيِّ مديداً" و "وقعت في السريع" بين معنيي بحري المديد والسريع في العروض ، وما يتّصف به السجع من مدّ في الصوت حيناً، والإسراع فيه حيناً آخر٠

ومن الطيور التي وصفها ابن خاتمة أيضاً " أم الحسن" (١) وهو يشيد بحسنها الذي لا يقتصر على شدوها وجمال إيقاعها ، فالحسن فيها شامل ، فالمحيّا عجيب والسجع طروب أيضا إذ يقول :-

أحسنتِ أحسنتِ أمَّ الحَسَن ... لقد جئت بالحسن في كل فنْ
محيا عجيبٌ ، وشخصٌ طروبٌ ... وسجعٌ أديب وصوتٌ حسنْ
ألا بدّلي يا ابنة الحُسْنيين ... فصلِ الربيع ووجهِ الزمنْ
وهاكِ فؤادي خَلْعاً وما ... أراهُ يوفي ببعض الثمنْ
فَديتكِ من بلبل هاج مِنْ ... بَلابل(٢) وجدِيَ ما قدْ سَكنْ(٣)

إن أكثر ما يُميز هذه المقطوعات الشعرية هو تفاعل الشاعر مع الطبيعة ، وهذه سمة شعر الطبيعة على مر الزمن والعصور، ولكن شدو البلبل ونوح الحمام وتبديل الحسون وترجيع الدستبان .. عناصر حيوية قادرة أكثر من غيرها على التأثير على نفس الشاعر فهي تدخل البهجة أحيانا إلى نفسه ، وتثير الحزن والشجو في أحيان أخرى، وكل ذلك تبعاً لنفسية الشاعر ، فها هي أهم الحسن تثير بسجعها وساوس الشاعر وتهيّج شجونه .

وقد وصف الشاعر ابن زمرك طير البازي الذي أهدي إليه من طرف مولاه يوسف الثاني الملقب "بالمستعين" ، فقال مقطوعة يصف فيها البازي، ويشكر ما أهداه مولاه من صيده ، ومن الطبيعي أن دقة الوصف ورفعته عند ابن زمرك تحمل في ثناياها مدحا لصيد الملك، وبالتالي مدحا لشخصه ، يقول :-

---

(١) أم الحسن : أنثى الطائر المعروف بـ "الحسون" والذي يُسميه الأندلسيون :"أبا الحسن" ؛ وفي الحيوان للدميري : " الحسُّون " عصفور ذو ألوان بحمرة وصفرة وبياض وسواد وزرقة وخضرة ،وهو يقبل التعليم ٠ابن الكتاني ، أبو عبد الله الطبيب،(ت٤٢٠هـ)٠التشبيهات من أشعار أهل الأندلس ، ص٨ ،(تحقيق إحسان عباس) ،دار الثقافة،بيروت،١٩٦٦م.والدميري ،كمال الدين محمد بن موسى ، (ت٨٠٨هـ)٠ حياة الحيوان الكبرى ، مطبعة البابي الحلبي ، القاهرة ، ١٩٥٦م٠

(٢) بلابل : البلابل والبَلبال والبلبلة جميعاً بمعنى شدة الهم والوساوس .ابن منظور ، لسان العرب ، مادة بلبل ٠

(٣) ابن خاتمة ، الديوان ، ص ١٢٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ورمى البـزاةَ عـلـى القناةِ يصيدُهُ ... صـيـدَ الخلـيفـة شـاردَ الأعـداءِ
من كل خافـقةِ الجـناح إذا مشـت ... تـبدي اخـتـيالَ الغـادةِ الـعذراءِ
أبدت لنا سَـبـج العيون وطوقت ... أرجاءهـا بعـقـيـقةٍ حمـراءِ
واسـتـاقـت الياقوت في منقارها ... ومشت عـلـى الـمرجان في استحياء
وَوَشـت يد الأقـدار في أعـطافِها ... وشـيـا زرى بـالـحـلـةِ السِـيراءِ
مـلـك الطيور أتى إلى ملك الورَى ... فـاسـتـاقـها لمـؤمِّـل الخلفـاء (١)

وهذا المشهد الذي رسمه ابن زمرك فيه براعة في التصوير، ودقة في الوصف فهو تلوينٌ دون ألوان ، يسترق البصر قبل أن يسترق السمع ، مرصع بالأحجار الكريمة ومضمخ بألوانها ، فكأن البازي طيرٌ من طيور الجنة ، أتى خاضعاً ليسلم نفسه لهذا الممدوح بكل طيب خاطر ، ولقد أبدع الشاعر في المقاربة في الوصف بين مشية الطائر الجميل ، وبين اختيال الغادة العذراء ، كما أبدع في الإشارة للوشي المميز في أعطاف ذلك الطائر وجماله الذي فاق وشي الحلة السيراء ، ويعد ذكر الشعراء لأسماء بعض الكتب ، والتورية بها، عادة عرف بها الشعراء الغرناطيون في هذه الفترة ٠

وللشاعر ابن زمرك أيضا بعض الأبيات في وصف طير اقتنصه مولاه أبو الحجاج يوسف الثاني أيضا لكنه لم يبتكر في أبياته معاني جديدة وأوصافا مغايرة فجاءت المعاني ذاتها تقريبا في قوله :-

مـا كـنت أحسبُ أن البدرَ ذو قنصٍ ... حتى رأيتُ ولىَّ العهـدُ مـقـتـنِصا
مـن كل رافلةٍ في الريش قد لبستْ ... مـن وشـي صِنعاءَ في أعطافِها قُمُصا
قد طـوَّقـت بعقـيقٍ جـفن ناظرها ... وسـام مِـنـقارُها الياقوتَ أن رخُصاَ(٢)

وأخيرا يمكن الوقوف عند مقطوعة نظمها ابن الجياب ملغزاً في صقر ، لكنه لم يأت على وصفه إلا بصفة واحدة حين شبّهه بأنه من السّباع ، ثم ارتكز في لغزه على لفظة الصقر حين تكون مصحفة أو مقلوبة ... وبالتالي فإن الهدف لم يكن الوصف بحد ذاته بقدر ما هو عرض للمهارات اللغوية، ولخلق روح التشويق والدعابة ، يقول :-

---

(١) ابن زمرك ، الديوان ، ص ٣٦٦ .
(٢) ابن زمرك ،السابق ، ص٢٤٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

حاجَيـتـُكُمُ مـا اسمٌ لبعض السباعْ تصحيفـه مالك فـيـه انتـفـــــاعْ
وعكسـه إن شئـت عكسـاً لـــهُ يوجـــد لكـن عـنـــد دور السـمـاعْ
وإنْ تُـصحِّـف بعـد قـلـبٍ لـهُ فـمـذهبٌ يُـعزى لأهـل الـنـــزاعْ(١)
فـبـيِّـن الإلغـازَ وارفـع لـنـا بـنورٍ فكرٍ منكَ عـنـه الـقـــناعْ(٢)

والملاحظ في هذا الفصل أن وصف الخيل كان الأبرز والأكثر استحقاقاً للوقوف عنـده إذا ما توقف الدارسون على وصف الحيوان باعتباره أحد عناصر الطبيعة الحية في شعر هـذه الفترة ، أما وصف بقية الحيوانات فقد جاء عابراً غير متقن وهدفه الدعابة والمـرح والتفكـه أو الإلغاز ، وفي المقابل فإن وصف الشعراء للطير يستوقف الباحث إذا ما عمدَ الشـاعر لوصـفه متناغماً ومنسجماً ومتفاعلاً مع عناصر الطبيعة الأخرى ، أما وصفه لمجرد أنه قنص الـوالي ، أو للإلغاز فليس مما يحسب لشعراء هذه الفترة .

ثالثا : الحشرات :-

لم يغفل شعراء هذه الفترة عن وصف الحشرات كالبراغيث والنمل والبعـوض ، ومـن الحشرات التي حظيت بوصفهم "البرغوث " ، فهذا لسان الدين بن الخطيب يصـف لنـا تسـلط البراغيث عليه في أرض مجدبة في أثناء رحلة متعبة يصفها لنـا بقوله :-

بثْـنـــا نكابـدُهـمَّ القحط ليـلتنا وانجد السُّـهـدُ والـكـربُ البراغـيثا
وكان يحمـلُ ما كـنّـــا نكابـــدُهُ من المـشـقـة لو أن البرى(١)غيثاً(٢)

ولم يفت لسان الدين أن يرصّع بيته بالتجنيس، وهو من ألوان البديع التي شُغف بها أدباء الأندلس فقد جمع بين كلمة "البراغيث" وجملة أخرجها مماثلة لأصوات هذه الكلمـة حـين قـال "البرى غيثٌ" على وجه الجناس التام .

---

(١) تصحيف صقر بعد قلبه هو " رفض " أي مذهب الرافضة .
(٢) المقري ، نفح الطيب ، ج ٥ ، ص ٤٥٣ .
(٣) البرى : التراب . ابن منظور ، لسان العرب ، مادة برى .
(٤) غيث : أصابه الغيث. ابن منظور، السابق ، مادة غيث . والبيتان في المقري ، نفح الطيب ، ج٩ ، ص ٢٠٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولابن الخطيب أيضا مقطوعة أخرى في وصف " البراغيث " التي تعتبر من الحشرات الملازمة للأماكن التي تقل فيها التهوية والنظافة ، ومع ذلك فقد عرفها الشاعر لأنه لم يحصر نفسه في حياة البذخ والقصور، بل كان كثير التنقل في البلاد سواء بالأندلس، في رحلات التفقد أو مرافقة السلطان ، أم في المغرب أيام المنفى الأول والمنفى الثاني (١) :-

زحفتْ إليَّ ركائبُ البرغوثِ ... نمَّ الظلامُ بركبها المحثوثِ
بالحبة السوداءِ قابلَ مقدمي ... لله أيَّ قِرىً أعدَّ خبيث
كسحتْ بهنَّ ذباب سرح تجلّدي ... ليلاً ، فحبل الصبر جدّ رثيث
إن صابَرَت نفسي أذاه تعبّدتْ ... أو صحتُ منه أنِفتُ من تحنيثي
جيشانِ من ليلٍ وبرغوثٍ فهلْ ... جيش الصباح لصرختي بمغيثِ(٢)؟!

وقد وظف ابن الخطيب التورية لتضفي على المقطوعة ملمحا طريفاً لطيفا، حيث ورى في البيت الثاني عن البرغوث بالحبة السوداء لصغره وسواده ، فكأن البرغوث أعدّ من الشاعر وليمة تضمنت طعاماً شهيّاً متبلاً . وقد اتحد ضد الشاعر جيشان ؛ جيش الليل بسهرهِ وأرقه وعذابه ، وجيش البراغيث .

ومن عناصر الطبيعة الحية البعوض الذي لفت انتّباه ابن زمرك حين كان يكثر من لسع وجه شارب خمر وتسبب في مضايقته ، فقال على لسانه :-

شربتُ دم العنقودِ من غير حِلِّهِ ... فقيضَ لي الأوباشَ تشربُ من دمي
بعوضٌ إذا جنّ الظلام انبريْنَ لي ... يعود بها جلدي مشوباً بعندم(٣)
ترنّ كما رنَّ الرّبابُ مطرّباً ... ويرمين عن قوس الرباب بأسهم (٤)

وفي الأبيات جو من المرح والدعابة اللتين كانتا سمة من سمات الشعر الأندلسي في هذه الفترة .

---

(١) المقري ، نفح الطيب ، ج ٥ ، ص ٨٤ ، ابن الخطيب ، اللمحة البدرية ، ص ١١٣ .
(٢) المقري ، نفح الطيب ، ج٩ ، ص ٢١٠.
(٣) العندم : دم الأخوين ، وهو نوع من النبات الأحمر كالدم ، انظر الدمياطي ، معجم أسماء النبات .
(٤) ابن زمرك ، الديوان ، ص٢٣٧٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وهذا ابن الجياب يلغز لنا في النمل لكن دون وصف له ، ويكتفي بأن يذكر أنه من الحشرات التي ذكرها القرآن الكريم ، ويعود كعادته في الإلغاز للتركيز على لفظة "النمل" إما مقلوبة أو مصحفة ، والهدف اللغوي واضح يحفه جو من إعمال العقل وإثارة الحفيظة ، ويحاجينا ابن الجياب بقوله :-

ما حيوانٌ اسمه قد جاء في الذكر الحكيمْ
وهو إذا قلبته لمَنْ به أنتَ عليمْ
وإن تصحف(١) اسمَه فبعضُ أوصاف اللئيمْ (٢)

ويبدو هذا الشعر أقرب إلى الكلام فليس في نظمه براعة شعرية لأن الهدف هو الإلغاز فقط .

إن ما مر من شعر الطبيعة الصائتة في هذه الفترة لا يشكل منه في حقيقة الأمر فنا مستقلا ، كما كان في منذ أوائل القرن الخامس وحتى منتصف القرن السادس " فلا يكاد الباحث يجد قصائد مستقلة تشكل مجموعة متميزة في الفترات السابقة أو اللاحقة للفترة التي ذكرت آنفا، وكل ما يلمحه الدارس أبياتا قليلة متناثرة في كتب الأدب والدواوين "(٣) .

ومن الجدير بالذكر أن هناك قصائد كاملة جمعت بين عناصر الطبيعة الصائتة والصامتة، لأنها منظومة أساساً من أجل هذا الغرض الشعري ، ولم ترتئي الدراسة تقسيم الأبيات وإدراجها منفصلة في كل قسم ، بل إن عرضها والتوقف عندها أجمل ما يمكن أن يختم به هذا الفصل ، ومن هذه القصائد قصيدة لابن خاتمة قالها في وصف الطبيعة الغناء بكل عناصرها الصامتة والصائتة ، وقصد التنبيه على مواقع النعماء ومورد الآلاء :

---

(١) يقصد اللئم .
(٢) المقري ، نفح الطيب ، ج ٥ ، ص ٤٥٣ .
(٣) خضر، حازم عبد الله ، (١٩٨٧م). وصف الحيوان في الشعر الأندلسي ؛ عصر الطوائف والمرابطين ، ص٢٤-٢٥، بغداد : دار الشؤون الثقافية العامة .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الأرضُ بيــنَ مُدَبَّــجٍ ومحــلَّــلٍ ... والــروضُ بــين مــتــوَّج ومكلّــلِ
والــزهــر بيــن مُوَرَّدٍ ومُــوَرَّسٍ ... والنــشــرُ بين مُمْسَّــكٍ ومــصــندَلِ
والمــاءُ قد صقــلَ النــسيمُ فرنده ... فتــوشحت منه الــريــاضُ بــمُــنصــلِ
لُويَــتْ مــذانبهُ علــى أدواحِــهــا ... فاخــتلن بين مُمــنطــقٍ ومــخــلخــل
ماذاك سجعُ نسيبه فــي ظِــلــّهــا ... لكنه وسواسُ هــاتــيــك الــحُــلــــي
أهــلا بأيــام الــربــيــع وطيبهــا ... أنــس الــخليع ونُزهــةُ الــمــتــبــتّلِ
زمنٌ أرق من الــودادِ شــمــائــلاً ... وألــذّ من عــصــــر الــشــبــابِ الأول
تــذكــي بــلابــلُــه البــلابلَ لوعةً ... ولــربَّ بــلــبــالٍ يــهــيــجُ لــبــلــبل
أعجــب به مــن مــهــرجــانٍ قائم ... بــين الــبــسيــطة والحــيــا المتهــلّل
حــشد الريــاضُ لــه جــنودَ جماله ... وأتــى بــحــافل جــنده فــي جــحفل
فــالطير تــشدو والغــديــر مصفّقٌ ... والــقــضــبُ تــرقــصُ والأزاهرُ تنجلي
وعــرائــس الأشجار تُجلَى في حُلىً ... خضْرٍ ، ولا وجهَ العروس إذا جُلــي!(١)

إن ابن خاتمة لم يستطع مقاومة كل هذا السحر الذي لامس روحه ، وفتح قريحته فترجم أحاسيسه ومشاعره في هذه القصيدة الجميلة التي وصف فيها الأرض وقد ازينت بزينة الربيــع وخضرته وألوانه وبدائعه وعطره ومياهه المتدفقة ويتوقف عند ساجعة مطربة تســتثير الوجــد والشوق , ومن أجمل أبيات هذه القصيدة بيت فيه ملمح لطيف فقد جعل ابن خاتمة بعض ما فــي الطبيعة يعشق بعضه الآخر لغرابته وفرط جماله ،وقد أشار إلى ذلك بقوله : –

عــجــباً وحتى الحسُن يعشقُ بعضُه ... بعــضــاً ، لقــد أزرى الهوى بالعذّلِ(٢)

---

(١)ا بن خاتمة ، الديوان ، ص ٤١ – ٤٢ .
(٢) ابن خاتمة ،السابق ، ص٤٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفـصـل الثـالـث

الطبيعة في أغراض الشعر المختلفة

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أولاً : الطـــبيعة في الغـــزل :-

للطبيعة أثرٌ واضحٌ في أعماق النفس البشرية ، ويتجلى أثرها في نفس الشاعر الشـــفافة الرقيقة عندما تحرك فيها الرغبة بما تشاهده العين من مواطن الجمـــال ، فيهـــيم بحـــب الغـــادة الحسناء التي يغرم بها كثيرا، فلا يقوى بعد ذلك على فراقها ، فيصيبه مثل ما يصـــيب الشـــمس عند الغروب إذ يصفر لونها حزناً واكتئاباً لفرقة حسن مناظر الطبيعة ، والشاعر الأندلسي كـــان الأكثر تأثراً بالطبيعة ، فبلاده قطعة من الجنة وكل ما فيها ينطق جمالاً ، ويوحي للشاعر فـــي كل أحواله النفسية والفكرية ، بالعديد من الصور والتشبيهات فكأن الطبيعة في الشعر الأندلســـي طاقة لا نفاد لها للتعبير عما يجول في خواطر الشعراء ، ويشبع رغبـــاتهم ، ويلـــم بمشـــاعرهم وأحاسيسهم ، حتى وجدوا أنفسهم إذا تغزلوا "صاغوا من الورد خدوداً ، ومن النرجس عيونـــاً ، ومن الآس أصداغاً ، ومن السفرجل نهوداً ، ومن قصب السكر قدوداً ، ومن قلوب اللوز وسرر التفاح مباسم ، ومن ابنة العنب رضاباً .." (١) .

ولقد أحب الشعراء الغرناطيون طبيعة بلادهم الجميلة واتخذوها صديقاً وأنيساً ، وكثيـــراً ما كانوا يستعيرون لمفاتن المرأة أجمل ما في الطبيعة من مباهج ومحاسن ، ترفدهم فـــي ذلـــك قريحة شعرية ، وخيال واسع ، وطبيعة فاتنة أمدتهم بمختلف الصور والألوان .

وبما أن الغرناطيين ليسوا الرواد في هذا الميدان ، فمن الطبيعي أن يقفوا على أوصاف جميلة لطبيعة بلادهم كانوا قد استفادوا في نسجها من موروثهم الشعري المشـــرقي والمغربـــي ، فرصعوا بتلك الصور والتشبيهات أشعارهم التي يلتقي بها خط الطبيعة مع خط الغزل، وأضافوا إلى ذلك إبداعاتهم وابتكارتهم حتى وصلت لنا نماذج رقيقة ممثلة في أبيات وقصائد ومقطوعـــات شعرية متعددة .

وشعراء غرناطة كغيرهم من شعراء الأندلس ، ارتبطوا بالشعر القديم المشرقي ارتباطـــاً ينم عن فخر واعتزاز بشيء مقدس يجب الحفاظ عليه والتعلق به، لذلك فقد كان لعناصر الطبيعة القاسية في المشرق حضورها ، فما بالهم يتكلمون عن الأظعان السائرة ، وعن ملاعـــب الحـــب ومسارحه ، ويصفون لنا الحدوج والأطلال ، وربما لم يشاهدوا في حياتهم أطلالاً ولا ظعائن ؟

---

(١) المقري ، نفح الطيب ،ج١ ، ص ٣٢٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ونراهم يذكرون بعض النباتات البدوية في أشعارهم ويذكرون الحداة والإبل والنوق والصحراء والبان والكثبان ، وربما لم يشاهدوا شيئا من هذا في بيئتهم ؟ .

لقد تمكن منهم هذا الفخر والاعتزاز ، فتركوا أجواء الحضارة الراقية وعادوا يتنسمون عبير تراثهم ، فهذا لسان الدين بن الخطيب يقول :-

تُنازعُ الغصنَ لدناً في تأوُّدِهِ وتخصِمِ الريمَ في الألحاظِ والعُنُق (١)

كما يقول :-

أشارت غداة البين من خلل السجف(٢) **بناظرتي ريم وسالِفَتي خَشْفِ**(٣)
أماطت عن الخدِّ اللثام فأطلعَتْ هلالاً على غصنٍ وغُصْنا على حقفِ(٤)

ويبدو هذا الغزل ممتزجاً بعناصر الطبيعة التي فضلها العربي منذ الجاهلية مثل ؛ الريم والهلال ، أما ابن فركون فاستهواه أن يتغزل بمحبوبته ذاكراً الأطلال والظعائن والمطايا ، ومشيرا إلى هذا كله بقوله : -

سل ركاب الحمى غداة استقلت من حوت في رحالها وأقلّت
وثنت للسرى هوادي لولا أن هداها برق الثنايا لضلّت
أهي السفن في بحار سراب أم مطايا لدى الكثيب أطلّت
كم بدورٌ لها الهوادج أفق نورها قد جلا الدجى إذ تجلت (٥)

---

(١) ابن الخطيب ،ديوان الصيب والجهام، ص ٦٣٥ .
(٢) السّجف : الستران بينهما فرجة أو الشق من الستربن المقرونيين على الباب ٠ابن منظور، لسان العرب، مادة سَجَف .
(٣) خَشْف : مثلث الخاء ، ولد الظبية أول ما يولد ، ويطلق على الذكر والأنثى ، والسالفتان : جانبا العنق . ابن منظور ،السابق ،مادة: خشف .
(٤) حقف : حقف حقوفاً الظبي : ربض في حقف من الرمل ٠ السابق، مادة: حقف. والبيتان في ديوان الصيب والجهام ،ص ٦٢٤ – ٦٢٥ .
(٥) ابن فركون ، الديوان، ص ١٦٤-١٦٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وكان الغرناطيون يحبون ويصفون محبوباتهم وحبهم بطريقة من سبقوهم، فالاعتزاز والفخر والتمسك خرج من حيّز المكان والموجودات ليشمل الكيفية والأسلوبية في التعبير عن الحب مع إضافة بصمة جديدة مميزة لهم ولشعرهم ، ولمّا اعتاد شعراء العرب على تشبيه لون الخدود بالورد ، كان من الطبيعي أن يشبه الشاعر عبد الكريم القيسي خدود محبوبته بهذه الصورة قائلا :-

ووجنتاها إذا يبدو احمرارهما حققت أنهما ورد الربى غضبا(١)

مزج رائع ومألوف بين الطبيعة والمرأة ، لكن الجميل أن الشاعر جعل هذا الورد غاضباً مما زاد في حمرته ، وزاد بالتالي جمال محبوبته ، فهذه إضافة جميلة من الشاعر .

وفي بيت آخر للشاعر نفسه وظف معنى آخر مألوفا عند العرب بصورة مميزة ، فتصوير الفم بالأقحوان شائع في شعر المشارقة ، لكن الشاعر جعل فم المحبوبة ، يطغى على فم الأقحوان بعذوبته ورقته إذ يقول :-

وثغرها حُسنَ زهرِ الأقحوان حوى والأقحوان غدا لا يعرف الشنبا (٢)

وابن الخطيب يوظف في أبياته التالية عناصر الطبيعة التي ألفها القدماء ليصف محبوبته، فبينما يسوق كثيرا من الصور القديمة ؛ كتشبيه الأثافي بالحمام الجاثم ، والدعاء بالسقيا لديار المحبوبة ، يصور النؤي أيضا بالسوار والجدار المهدم بحاشية البرد ، وهذه بصمة الشاعر في إطلاق صور تميز ذوقه وحضارته ، يقول :-

عفت غير سُفع كالحمام جواثم وغير جدارٍ مثل حاشية البردِ
وموقد نار يستطير رماده ونؤيٍ كما دار السوار على الزندِ (٣)

---

(١) القيسي ،عبد الكريم ،لديوان، ص ١٠٧.
(٢) القيسي، عبد الكريم ،السابق ، ص١٠٧.والشنب جمعها المشانب وهي الأفواه الطيبة .ابن منظور ،لسان العرب ،مادة شنب.
(٣) ابن الخطيب ،ديوان الصيب والجهام، ص ٤٣٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد تفرض الطبيعة الأندلسية نفسها تماماً على قلب الشاعر وعقله ، فيستقي منها ما يشاء من الصور والتشبيهات ليصف محبوبته ، والشاعر الملك يوسف الثالث له أبيات استعارفيها من الطبيعة أوصافاً للمرأة رغم أنه يرى أن جمال محبوبته قد فاق الطبيعة روعة وجمالاً، يقول :-

تردّت رداء الفخر وهو محبّر ... لها من ظلام الليلِ فرعٌ ومَحْجَرُ
فتاةٌ تُريك الشمسَ عند طلوعها ... ولكنها أبهى جمالا وأبهرُ
فيالك من سمطٍ بفيها منظّم ... له كلم كالدُّرِّ وهو منشّرُ
عجبت لها ملء العيون بدائعاً ... لها العطف يزهى والحديقة تزهِرُ(١)

وللشاعر نفسه أبيات يشبه فيها محبوبته بالظبي في جماله ورشاقته وسحره فتمتزج الطبيعة بالمرأة أو المرأة بالطبيعة في ناظريه إذ يقول :-

لاحظته كالظبي عند كناسه ... كسلان يعثر في فضول نُعاسه
الريم منه لواحظٌ وتلفتُ ... من معجبي إيناسه وشماسه
للروض غبّ القطر منه مشابه ... توريد وردته وخضرةُ آسه
والنور من وجناته متوقدٌ ... تعنو البدور إلى سنا نبراسه
ما قاسه بالبدر من متمثل ... إلاّ وضللّه اطراد قياسه (٢)

وللشاعرعبد الكريم القيسي قصيد مُضمخ بالغزل الممتزج بالطبيعة يصف فيه مغامرة ليلية مع فتاة في الرابعة عشرة من عمرها ، وعلى حد قوله فاقت الشمس والبدر جمالاً ، حتى اختفى البدرُ منها خجلاً ، يقول :-

بدَمي منَعمةٌ كَعابٌ ذاتُ دَلْ ... هيفاءُ تزري بالقضيب إذا اعتدلْ
حسناء تُسبي بنت أربعَ عشرة ... من عمرها بجمالها سار المثلْ(٣)

---

(١) يوسف الثالث ،ديوان ملك غرناطة ، ص ٥٨ ٠ المحجر : مشق جفن العين ، والسمط الخيوط ما دام فيه خرز٠ ابن منظور، لسان العرب، مادة حجر – سمط .
(٢) يوسف الثالث ، ديوان ملك غرناطة ، ص ١٥٣ .
(٣) القيسي ،عبد الكريم ، الديوان ، ص ٣٠٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

من دونها في حسنها شمس الضُّـــحى تلـتـــاح والـبـدر المنـيـر إذا كَمَـلْ
وتـقـابـل البدرَ المنيـرَ ووجـهُهـا فـــرأيـتُ بهجة وجههـا مـنـه أجَلْ
ولأجـل ذاك البدر لا شـــــك اخـتفى عن غيـر مَـنْ يرعى سنَاهُ أو أفلْ (١)

وفي مقطوعة آخرى له يصف الشاعر جمال محبوبته وحسنها ، فمحبوبته ظبـي سـلب لب العقول من روعة جماله ، وشمس مضيئة لا يغيب حسنها ، أو بدر يصعب الحصول عليـه وقد عبر عن ذلك بقوله :-

وبمهجتي ظـبـيٌ أنـيـسٌ حُسْنه سَكَبَ العـقـولَ وتَـيـّم الأفـكـارا
شمسٌ ولكـن لا مغـيـبَ لحسنها بدرٌ ولـكـن لا يُـنـال سـرارا (٢)

ويؤكد الشاعر عبد الكريم القيسي على المعنى ذاته تقريبا لكن بطريقة تتلون من قصـيدة لأخرى ، فمحبوبته في أبياته التالية لم تفق الشمس بدوام إشراقها وحسنها فقط ، بل غلب حسنها شمس الضُّحى ، فصفات محبوبته لم تقف عند حد تشبيهها بعناصر الطبيعـة ، بـل تجاوزتهـا وفاقتها أنوثة وجمالا لما تلألأ جبينها الوضاح :-

ووجهها حازمن شمس الضَّحى شبها بـل نورُ غرَّتهِ شمسَ الضَّحى غلبا (٣)

وفي أشعار ابن خاتمة العديد من الأبيات والمقطعات الشعرية التي يمتزج بهـا وصـف المرأة والتغزل بمفاتنها بالطبيعة ، فهو يرسم لمحبوبته صورة باهرة مستفيداً من معطيات الجمال المتعددة في الطبيعة من حوله، فهي غزيلٌ له وجنة كالورد ، وريق كالشهد ووجـهٌ كالبـدر، إن هذا الجمال الفائق أضنى هذا العاشق المدنف الذي أسكن محبوبته في أعماقه وأنزلها منه منزلـة سويدا القلب وسواد العين ،وقد ترجم كل هذه الأحاسيس حين وصف حبيبته قائلا :-

غـزيّـل غـزلـَتْ ألحاظُهُ جسدي أرق من غـزلي في لـطف معنـاهُ(٤)

---

(١) عبد الكريم القيسي ،الديوان ، ص ٣٠٨ .
(٢) عبد الكريم القيسي ، السابق ، ص ٢٥ .
(٣) السابق ، ص ٣٩٦ .
(٤) ديوان ابن خاتمة ، ص٨٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كالورد وجنَتُه ، والشهدِ ريقتُه ... والسلكِ مَبْسمُه ، والمسكِ رّياهُ
بدرٌ ، ولكنْ سوادُ العين مطلعُه ... ظبيٌ ، ولكن سويدا القلب مرعاهُ (١)

وللشاعر أيضا قصيدة يتحدث فيها عن محبوبة موصوفة بأوصاف هي الغاية ؛ فهي بدرٌ في الظلام ، وغصنٌ لينٌ ، وظبيٌ من الإنس .. وهذه هي أوصافها في حالة الوصل والانسجام معه ، ولكنها في السطوة ليث عرين ، وينكر ابن خاتمة أن يكون لها نظير فهو لا يعرف أجمل منها – على كثرة ما رأى هو ورأى غيره –، يقول :-

لاح مرأى فقلتُ : بدرُ الدّجون ... وتثنّى فقلتُ : بعضُ الغصون
ورنا لي فقلتُ : ظبيُ كِناسٍ ... فسطا بي فقلت : ليثُ عَرينِ !
أينَ ، لا أين مثلُ ذاك المُحَيّا ... أين ، لا أينَ مثلُ تلك الجفونِ
من لغصنٍ بلين ذاك التثنّي ... من لبدرٍ بنور ذاك الجبينِ
من لأسْدِ الشرى بذاك التعدي ... من لظبي النّقا ، بتلك العيونِ (٢)

ومن عناصر الطبيعة الحية يختار ابن خاتمة أم الحسن ليشبه بها جارية تغزل بها وبغنائها الذي يطرب الأسماع ويشنّف الآذان ، فحسن هذه الجارية يشبه حسن أم الحسن الذي لم يقتصر على جمال الصوت فقط بل تعداه إلى جمال الشكل وإشراقة الوجه ، والأبيات لها وقع في النفس ، وإيقاع يغلب على قراءتها قبل غنائها ،يقول :-

بَدَتْ فشدَتْ في مساقٍ حَسَنْ ... فأحسنْتِ أحسنتِ أمَّ الحسنْ
جُوَيرّيةٌ قد جَرَتْ في النفوسِ ... مجرَى ظُبَا لحظِها في البدَنْ
تُغنيّ فتُغنيكَ عن بُلبلٍ ... وتُثْنيكَ إما انثنت عن فَنَنْ
تُريكَ وتُسمعُ ما تشتهي ... بقدٍّ رطيبٍ وصوتٍ أغَنْ (٣)

واللافت للنظر في هذه الأبيات هو قدرة ابن خاتمة على إبراز التأثير والتفاعل والمطاوعة ، ويتجلى ذلك في التركيب الشرطي الذي تقدم فيه الجواب على الشرط و "ما" في

---

(١) ابن خاتمة، الديوان ،ص٨٠ .
(٢) ابن خاتمة، السابق ،ص٨٠ .
(٣) السابق ، ص ٩٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

"إن ما" زائدة ، أما مادة "ثنى" ففيها تلاعب بين الصّيغتين "انثنتْ" و"تثنيكَ" ففي الأولى يقع الفعل على الفاعل ، وفي الثانية يتعدى إلى المفعول ، وهذا يُعطي انسجاماً كاملا بين الدال والمدلول ، والفعل والفاعل ، وفي النهاية يكون الانسجام بين الباث وهو الراقصة المغنيّة ، والمتلقي وهو الشاعر العاشق ، وكل ذلك يخلق جوّاً شعريّاً بهيجاً .

وقد وصف ابن خاتمة مفاتن المرأة متتبعاً الجمال في أجزاء جسمها ، وقابل كل ما هو جميل فيه، بعنصر من عناصر الطبيعة؛ فالوجه متلألىء كالبدر المنير، والقوام ممشوق كالغصن النضير بل يُنافسه في الحسن، فمحبوبته في ليونتها وطراوتها وتثنيها أطوع من الغصن النضير وأسلس ، وهي هيفاء، إشراق وجهها كإشراقة شمس الصباح ، إنها غانية جمالها كجمال الطبيعة فطري فتح قريحة ابن خاتمة فقال :-

أأخية البدر المنير ، وضرة الـ ... غصن النضير ، وربة القلب الوقي
لله أنت مهاة خدرً لو بَدت ... للشمس حيّتها ولم تتوقفِ
هيفاء يثنيها الصِّبا طوع الصَّبا ... تلتحُ عن مثل الصّباح المشْرفِ
حسناء قد جلّت بفضل جمالِها ... عن زينةٍ بتطوقٍ وتشنُّفِ (١)

وهذا ابن جابر الضرير(٢) يمزج الغزل بالطبيعة ، ويعقد مشابهات جميلة بين مفاتن الحبيبة ومحاسن الطبيعة معتمداً أسلوب الحوار الرشيق ؛ فهو عاشق تائهٌ في جمال فتاته السّاحر، وأبياته لا تخلو من طابع الحب العابث اللاهي، والدغدغة الماجنة ، وقد استطاع الشاعر توظيف الكثير من عناصر الطبيعة الصامتة والصائتة لتشكيل هذا المشهد الغزلي المبني على الحوار الذي نسجه بقوله :-

سلوا حُسنَ ذاك الخال في صفحة الخدِّ ... متى رقموا بالمسك في ناعم الوردِ
وقولوا لذاك الثغر في ذلك اللّمى ... متى كان شأنُ الدّرِّ يوجد في الشهَدِ
ومن هزَّ غُصنَ القدِّ منها لِفِتنتي ... وأودَعَهُ رُمانتَيْ ذلك النّهدِ(٣)

---

(١) ديوان ابن خاتمة ، ص ٧٨ – ٧٩ .
(٢) هو الإمام الرحال شمس الدين أبو عبدالله محمد بن جابر الوادي آشي ، ولد بتونس، شيخ نبيل رحال متقن وشاعر. المقري ، نفح الطيب ، ج٧ ، ص٢٠٠ .
(٣) المقري ،السابق، ج٧ ، ص ٣٠٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فتــاةٌ تَــغُــتُ القلــبَ مِنّي بــمــقــلــةٍ ... لها رقة الغــزلان فــي ســطــوةَ الأسْدِ
تمــنّــيــتُ أن تهــدي إلــيَّ نهــودهــا ... فقالــت : رأيــت الــبدرَ يُهداهُ أو يهدي
فــقــلــتُ : ألــلــرَّمان بدٌّ من الجــني ... فتاهت ، وقالت : باللواحظ لا الأيــدي(١)

ويبدو أن الحوار أضفى على الأبيات كثيرا من الحيوية والإثارة فهو حوار بين مَنْ هــو ظامىء متعطّش لمحبوبته ، وبين هذه المعشوقة التي تتمنّع وتتدلل على عاشقها الولهان .

وفي قصيدة ابن الجياب الوحيدة في الغزل ، تجد الشــاعر يســتخدم تشــبيهات كثــرت استعمالاتها في الشعر العربي ، حتى لم يعد لها وقع أو تأثير على نفس القــارىء أو الســامع ، ومع أن الطبيعة دائمة التجدد والتشكل والتحول والتلون فأن بعض الشعراء الغرناطيين قد رفعوا راية الاستسلام أمام قدرتهم على استحداث وابتكار صور جديدة ومعان مبتكــرة فكيــف يكــون الحال عند شاعر لا يمكن وصفه بشاعر غزل بل إن شعره في ثناياه ما ينفر القارىء من الغزل والانسياق وراء العواطف ، يقول :-

أوجــهُــهــا الــقمر الــوضــاحُ ..(٢) ... أم قِــدَّهــا الغــصنُ الــمــيّاد مــمطورُ
يــا أيها الــقمر ان اســتــخــفيا فإنها ... قمــرٌ إذا لاح يمحي منــكــمــا الــنــورُ
أرعــى الــنجوم وما بي غير نســبتها ... والــشــيء بــالشيء مرعىٌ ومذكورُ(٣)

فالوجه كالقمر والقد كالغصن المياد ، وهذه صور تقليدية سيطرت عليها الصنعة وخمود العاطفة وتقليدية الصور .

أما ابن زمرك شاعر الطبيعة ، فمن الجدير الوقوف عند أشعاره الغزلية التــي امتــزج معظمها بشعر الطبيعة ، فكأن المرأة عنصر من عناصر الطبيعة وكــأن الطبيعــة تهبهــا أهــم معطيات الجمال ، فتتلوّن أصداغها بتلون ورودها ، ويميس قدها برشاقة غزلانهــا ، ويشــرق وجهها باخضرار رياضها ، ويبسم ثغرهــا ببرق سمــائها ، ويبكي محبها كهطول أمطــارها ،

---

(١) المقري ،نفح الطيب ، ج٧ ،ص ٣٠٣ .
(٢) بياض في الأصل .
(٣) ابن الجياب ، الديوان ، ص٢٧٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويتلوى عاشقها كاصفرار ثمارها ، ومن أشعاره الجميلة في الغزل قصيدة ناجى فيها محبوبته ليخبرها أن الطبيعة هي الوحيدة القادرة على أن تتفهم حالته ، وتستوعب شجونه التي عبر عنها بقوله: -

إذا البرقُ يبدي إليك ابتساما ... أبثكَ وجدي فأبكي الغماما
ومما أناجي نسيمَ الصَّبَا ... تعلم مني الضّنا والسَقاما
أبيتُ أراعي نجومَ الدَّجَا ... كأنّي أسامر منها نَدَامَى
إذا شمتُ من سلوةٍ بارقاً ... تَسُلَّ من البرق نحوي حساماً(١)

وهو يوظف كل مهاراته الشعرية واللغوية ليغدو شعره متألقا ، ففيه يعتمد أسلوب المقابلة ، ويستخدم المحسنات البديعية بقدر يُعمق مصداقية إحساسه ، ولا يدخله في باب الصنعة والتكلف .

وفي قصيدة أخرى له يؤكد الشاعر أن اصفرار الشمس وقت الأصيل مستعار من وجده ورقته ونحوله ، فهو العاشق العليل الذي وشى سرَّه النسيمُ العليل ، وهو من ملّت النجوم سهاده وسهره ، فأفلت موليةً تاركةً إياه وحيداً فيقول مخاطبا صاحبه:-

صاح ثوب الشحوب فوق الأصيل ... مستعارٌ من رقتي ونحولي
من عذيري من النسيم عليلاً ... قد وشى في الهوى بسرِّ العليل
يقدحُ البرق زنَده في فؤادي ... حين يُذكى بزفرتي وغليلي
وتملّ النجوم فرط سُهادي ... فتولّي من أفقها للأفول (٢)

وقد أحب ابن زمرك أن يعكس الصورة المعتادة العالقة بأذهان الناس ؛ فهو يرى أن محبوبته متميزة لم تستعر من الطبيعة صفاتها ...فهي جميلة إلى الحد الذي جعل زهر القزنفل يحكي خدها في جماله وطيب رائحته، ويتمنع في جبل الفتح ليصعب اجتناؤه كما تتمّنع محبوبته إذا سعى لوصالها :-

---

(١) ابن زمرك ، الديوان ، ص ٣٤٥ .
(٢) ابن زمرك, السابق ، ص ٣٥١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يقــرَّ بعيــني أن أرى الــزهــر يانعــاً وقد نازع المحبوب في الحســن وصفه
ومــا أبصــرتْ عينــي كزهر قرَنفُــلٍ حــكى خدَّ من يسبي الفؤاد وعرفهُ (١)

ويلتقى خط الغزل مع خط الطبيعة ، في مزج رائع بينهما في تشخيص ابن زمرك للطبيعــة وفي حديثه ومناجاته لها ، تماماً كما يناجي المحبوبة فيُساهِرُ البدر كما يساهرها ، ويســقي ورد الخدود من دموعه ، ويشرب شهد الرضاب ، ويُقبّل الأقاحي ، ويدرج هذا كلــه فــي ســمفونية غزلية رائعة تنبض بــروح غـــزل عفيف طاهر عبّر فيه عن حبٍّ ألهبته العواطف المتأججــة وكبحت جماحه الأخلاق المتزنة حيث قال :-

وليلــةٍ بــاتَ البــدرُ فيهــا مُضاجعي وباتَــتْ عــيــونُ الشُّهبِ نحوي روانيا
كرعــتُ بــها بــين العــذيب وبارقٍ بــمــوردِ ثغــرٍ بات بــالــدرِّ حالــيا
رشفــتُ به شــهدَ الــرضــابِ سُلافةً وقــبــلتُ فــي ماءِ النعيم الأقــاحــيــا
وبتُّ أسَــقــي وردةَ الــخــدِّ أدمعــي فأصــبــح فيها نرجس اللحظ ذاويا (٢)

وفي تشبيه محبوبته بالقمر يقول بيتاً يجمع فيه بين متضادين ليبرز فكرة الحــب الكبيــر الذي يجعله قريباً من محبوبته في مقابل النوى والبعد اللذينْ يعذبانه ، يقول :-

في حــيــكم قــمرٌ فــؤادي أفــقــُــهُ تــفــديــه نــفســي من قريبٍ نائي (٣)

ويمكن الوقوف عند أبيات لابن زمرك قالها في شادنٍ شادٍ بعود يسحر العقول برشاقة قدِّه، وعذوبة صوته ، حتى هشت له كواكب السماء، وكأن تلك المغنية تنفث السحر من ثغرها الــذي يصدح بغناءٍ ليس إلا بقايا تلاحين طير مغرد علِقَ سجعه بآذان تلــك المغنيــة ، فكأنهــا روض حسن ، وكأن ثغرها الباسم نور أقاح:-

بعَــوْدك هذا العــيــدُ قد راق مِيْسَمــا وهشــت له حتى الكواكب في السَّما (٤)

---

(١) ابن زمرك ،الديوان, ص ٤٤٣ .
(٢) ابن زمرك، السابق ، ص ٥٢٠ .
(٣) السابق ، ص ٣٦٣ .
(٤) السابق، ص٢٦٦ – ٢٦٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أظــنَّ غنــاءَ الطــيــر أبقــى بأذنِــهِ تلاحيــنَ ذاك الســجــع لّــمــا تــرنّــمَا
بثغــركِ درٌّ تنــفــثُ السِّــحرَ مثــلَــهُ فــهــذا كهــذا عــقــدُه قد تــنَــظــما
فيــاروضَ حُسْــنٍ عَرفُــهُ قــد تنسّما أثغــرُك أم نَــوْرَ الأقـــاح تــبسَّمَا ؟ (١)

ومن الواضح ان تفاعل الشاعر مع الطبيعة بلغ أقصى درجاته ، فاللوحة التي يرســمها تنبض بالحركة والحيوية ، وتربط بين عناصر الطبيعة – صائتة وصامتة– وبين المغنية ، ويجد القارئ نفسه أمام مشهد أخرجه الشاعر من رؤيته المتسقة للعناصر المنصــهرة معــاً ، وإبــداع يُثبتُ أن ابن زمرك متجدّد كما الطبيعة ، ورقيق كما أجوائها ، ومتلون كما ألوانها .

إن الغزل والطبيعة توأمان لا ينفصلان ، فمن الصــعب علــى أي شــاعر أن يتغــزل بمحبوبته وصفاتها دون الاستعانة بعناصر وموجودات طبيعة هذا الكون ، والشعراء الغرناطيون مفتونون بطبيعة بلادهم إلى حدٍّ كبير ، وهي تتسلل الى أشعارهم وتشبيهاتهم وصــورهم بشــكل فطري عفوي كما وجودُها حولهم .

ثانياً : الطــبيعة في المدح :-

من أكثر الشعر ارتباطاً بواقع الأندلس في عصر بني الأحمر، شعر المدح ، فهو الأبلغ تصويراً لظروف العيش بمملكة غرناطة ، وخاصة في عهودها الأخيرة ، والحديث عــن شــعر المديح في هذا الباب سيكون حديثاً مقتصراً على تتبع عناصر الطبيعــة الصــائتة والصــامتة ، وتلاحمها مع شعر المدح . فقد تابع الأندلسيون في عصر غرناطة مسيرتهم فــي فــن المــدح ، وأكثروا من إنتاجه، وتوالى على حكم مملكة غرناطة أكثر من عشرين سلطاناً، خاضــوا مئــات المعارك والحروب ضد الإسبان . وعلى تباين مكانة هؤلاء السلاطين وتفاوت قوتهم في قيــادة المملكة ، إلا أن أغلبهم كانوا يتحلّون بالشجاعة والذكاء ، لذا كثرت القصائد المدحية التي تشــيد بمآثرهم ، وتبرز أهم أعمالهم في المناسبات السياسية مثل الانتصار فــي معركــة ، أو توقيــع معاهدة ، أو في المناسبات الدينية ولم يقتصر المدح على السلاطين ، فقد وجهه الشعراء للأعيان من قضاة ووزراء وقواد ، وقد يكون للأصدقاء طلب لبعض الخدمات أو شكراً لهم على إسدائها.

---

(١) ابن زمرك ،الديوان، ص٢٦٦ – ٢٦٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ورغم الظروف المادية الصعبة التي مرّت بها الدولة النصرية ، وثقل الأتاوى المفروضة عليها من ملوك إسبانيا النصرانية ، وبالتالي عدم مجازفة سلاطين بني النصر بإغداق المكافآت المالية بشكل كبير – رغم ذلك كلهِ– لم يهجر الشعراء بلاط بني نصر ، بل كانت غرناطة مكتظة بالأدباء والشعراء والعلماء الذين كانوا يتبارون في تدبيج الكتابات السلطانية، ويتنافسون في نظم المدح في عديد من المناسبات (١) ، ويعود السبب في هذا، إلى ذلك الديوان الذي أسسه محمد الثاني الملقب "بالفقيه" ، ثاني ملوك بني النصر ، فقد كان هذا الديوان يضم كُتّاب الدولة ، وموظفيها على مختلف رتبهم ودرجاتهم تحت إشراف رئيس الديوان، وكان أقصى مطمح لكل أديب أو شاعر مبتدئ الانخراط في سلك هذا الديوان ، فكان جل كُتّاب الديوان من الشعراء (٢) .

وتغلغلت الطبيعة في معظم مدائح الغرناطيين ، وبذلك تعدّى تغلغلها مضامين الغزل إلى مضامين القصائد المدحية ، فالشاعر كان دائم الحرص على أن يقيم مشاركة جمالية بين ممدوحه، وبين طبيعة بلاده الجميلة ، "وهذه الظاهرة مشرقية قبل أن تكون أندلسية ، غير أن الأمر في شعر الأندلس يختلف اختلافاً بيّناً، فإذا كانت محاولات مزج الطبيعة بالمديح عند المشارقة تجري في حذرٍ شديد عند بعضهم ، وقصدٍ وتروٍّ عند بعضهم الآخر ، فإنها عند الأندلسيين صريحة واضحة ، عالية الصوت ، شديدة الجلبة ، عذبة الجرس ، مليحة الرنين"(٣) .

وللسان الدين بن الخطيب لامية مشهورة في مدح سلطانه أبي الحجاج يوسف بن نصر ، حين عاد من المغرب إلى الأندلس، وأعاد الله تعالى عليه ملكه الذي كان قد خُلع منه ، وهو يبين في قصيدته مدى تأثر عناصر الطبيعة برحيل سلطانه وكيف كان البحر والريح يحنوان عليه ، ودلل على هذا بقوله :-

وظعنت عن أوطان ملكك راكباً ... متنَ العُباب فأيّ صبرٍ يَجملُ

والبحر قد حُنيت عليك ضلوعه ... والريح تقطع للزّفير وترسل (٤)

---

(١) لمزيد من الإطلاع على هذه الجزئية، انظر كتاب : الطرابلسي ، حياة الشعر في نهاية الأندلس، الفصل الثالث ،" الحياة الفكرية والأدبية " .

(٢) الطرابلسي ، السابق ، ص ٢٢٠ – ٢٢١ .

(٣) الشكعة ، الأدب الأندلسي ؛ موضوعاته وفنونه ، ص ٣٤٥ .

(٤) المقري ، نفح الطيب ، ج٩ ، ص ٢٠٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وله في مدح السلطان أبي حمو سلطان تلمسان (١) بيت من الشعر يشبهه فيه بالشمس ، ويستنكر وجود شمسٍ غيره، لأن ذلك لا يُعقل فيقول :-

الشّمسُ أنت قد انفردَت وهل يُرى بين الورى في مَطلع شمسان (٢)

ويتابع متمنياً لممدوحه العيش بسلام وأمن ، ينبتان حوله ويزهران كما يزهر نبات البَلسان (٣):-

تُمّ السلام عليكِ يُزرى عَرْفُه طيبا بعرف العودِ والبَلَسان (٤)

وكما مَدَح ابن الخطيب غيره من السلاطين والشعراء والأصدقاء ، مُدح من قبل الشعراء بكثير من قصائد المدح لما تمتّع به من مكانة سياسية واجتماعية وعلمية ، ومن ذلك أبيات لأبي عبد الله اليتيم(٥) يصفه بعرف يتوق تنسمه ، ويصف حضوره بأنه له نور فاق كل سنى، ويؤكد أنه يحبه ويقدره في غيابه وحضوره، فهو كالبدر الذي غاب أو حضر جميلاً لا ينقص حسنه شيئاً :-

لله عَرْفُك ما أذكى تَنَسَّمه لو كنتَ تمنحُني استنشاقَ طيِّبِهِ
يا ابنَ الخطيبِ الذي قد فُقْت كلَّ سنى أزال عن ناظري إظلامَ غيهبِهِ
حضرتَ أو غِبتَ مالى عن هَواك غِنىً لا ينقصُ البدرُ حُسناً في تغيّبه (٦)

ومن الشعراء الذين أكثروا من قصائد المدح ابن الجياب ، فهو يمدح مقتنصاً كل فرصة أتيحت له ، في كل المناسبات الدينية والسياسية والاجتماعية ، وقد ركّز هذا الشاعر في مدحه ملوك غرناطة ، على صفة الجود والكرم حيث يقول في قصيدة يمدح فيها أبا الحجاج(٧):-

---

(١) في أخر سنة ٧٧٤ هـ .
(٢) المقري ، نفح الطيب ، ج ٩ ، ص ٢٢٥ .
(٣) البلسان : نبات أبيض الزهر يستعمل زهره في الأدوية ٠ الدينوري ، أبو حنيفة أحمد بن داود ، (ت ٢٨٢ هـ)٠ كتاب النبات ،(تحقيق برنهارد لفين) ، دار القلم ، بيروت ، ١٩٧٤ م .
(٤) المقري ، نفح الطيب ، ج ٩ ص ٢٦٦ .
(٥) عبدالله اليتيم : أبو عبدالله محمد بن علي العبدري المالقي ، يتحلى بالوقار والسكينة ، عمل خطيب المسجد الأعلى بمالقة٠ المقري، نفح الطيب، ج ٨ ، ص٢٤٠ .
(٦) المقري ،السابق، ج ٨ ، ص ٢٣٦ .
(٧) ورد ذكره في البحث ،ص٢٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولــو السحــابُ الــواكفات كــكــفّــه لم يــشك مــن مــحلِ الزمان صعيدُ (١)

وفي ذات المعنى تقريباً يقول :-

والــجــودُ فــيّــاض السحائبِ واكــفٌ غــمرَ الــبســيــطة بــحُرهُ المورودُ (٢)

وقد بالغ الشاعر في وصف ممدوحه بالكرم، فقد جعل كفه أكرم من عطاء السحب فــي السماء ، وبالغ في تعميم هذا الجود والكرم على البسيطة كلها ، وله فــي معنــى يقتــرب مــن المعنيين السابقين بيتٌ يقول فيه:-

إن تَلْــــقه في يــوم جــــودٍ هامــرٍ تلــق السَّحاب،على البلادِ سوابحــاً (٣)

ويركز الشاعر أيضاً على صفة الشجاعة مجتمعة مع الجود ، وهو لا يجــد أمامــه إلا عناصر الطبيعة صائتة كالليث ، وصامته كالغيث ، للتأكيد على هاتين الصفتين ، يقول :-

أو تلقــهُ فــي يوم حربِ عــوانِــة (٤) **فــاللــيــث صال علــى قــطــيع نِعاجِ**
أو تَــلْقــه فــي يوم بــذلِ هــبــاتِــهِ فالــغــيــث ســالَ بواكــفٍ عــجاجِ (٥)

وليس أدل من الشمس المضيئة المشرقة ليشبه بها ابن الجياب حسن طــالع ممدوحــه ، ويُمن محضره بقوله :-

أنــداك الــغُــمــر أم بيض الــبحــار وســنا بــِشــرك أم شمسِ النهار؟! (٦)

---

(١) ابن الجياب ، الديوان ،ص١٩٨ .
(٢) ابن الجياب ،السابق ، ص٢٢٨ .
(٣) السابق ، ص ١٨٧ .
(٤) حرب عوانة : حرب مترددة ، مستمرة .
(٥) ابن الجياب ، الديوان ، ص ١٧٤ .
(٦) ابن الجياب ، السابق ، ص ٢٥٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد يبدأ الشاعر ابن الجياب قصيدته المدحية بوصف الطبيعة ، وهذا شكل من أشكال تداخل الطبيعة مع غرض المدح ، حيث يبدأ الشعراء بوصف الرياض أو البساتين ثم يخلصون من هذه المقدمة إلى غرض المدح ، وها هو ابن الجياب يهنئ الوزير أبا عبد الله الحكيم بعيد الفطر ، ويهديه قصيدة من قصائد الوصف الجميلة في طبيعة الأندلس يقول في مطلعها:-

حلّت الشمس برأس الحَمَلِ ... واكتسى الروض بديع الحُلَلِ
فكل تلعةٍ غُصن نقا ... يتثنى كتثنى التِّمل (١)

ثُمَّ يبدع في وصف الربيع الذي أشرقت بمقدمه الأرض قائلاً :-

حبذا فصلُ الربيع مَلِكاً ... جاءنا من حسنهِ في جَحْفلِ
فترى اللؤلؤ والياقوتَ قد ... نُظما في تاجهِ المكلّلِ (٢)

ويمدح الشاعر محمد بن يوسف الثغري (٣) في قصيدة له أبا حمو سلطان تلمسان(٤) ،ويبدأ قصيدته المدحية بوصف طبيعة هذه المدينة الجميلة فيقول فيها:-

وزها الزهرُ والغصونُ تثنتْ ... وتغنّت عليه وُرقٌ شوادِ
وانبرى كل جدولٍ كحسامٍ ... عاريَ الغمدِ سُندسِّي النجادِ (٥)

ثم يخلص إلى غرض المدح بصور لا تنفك عن عناصر الطبيعة ، فيشبه إشراقَ وجه ممدوحه بالشمس ، وراحتيه بسحبٍ غوادٍ تغدق الخير كلما ضنت به سحب السَماء :-

كلما ضنّت السحائب أغنت ... راحتاه عن السحاب الغوادي
يا إمام الهدى وشمس المعالي ... وغمام الندى وبدرَ النادي(٦)

---

(١) ابن الجياب ، الديوان ، ص ٣٧٢ .
(٢) ابن الجياب ،السابق ، ص ٣٧٣ .
(٣) هو أبو عبد الله بن يوسف الثغري ، كاتب سلطان تلمسان المحروسة ، وله العديد من القصائد في وصف هذه المدينة وذكر محاسنها ٠ المقري، نفح الطيب ، ج٩ ، ص٣٥١ .
(٤) تلمسان : مدينة عريقة في التمدّن ، لدنة الهواء، عذبة الماء ، كريمة المنبت، بها للملك قصور شاهقات وبساتين . المقري، السابق ، ج٩، ص٣٦٤ .
(٥) السابق ، ج٩ ، ص ٣٥٢ .
(٦) السابق، ج٩ ، ص ٣٥٢ – ٣٥٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والملاحظ أن هذه التشبيهات تكاد تلتقي عند كل الشعراء ، وأن الشعراء الغرناطيين كرروا المعاني التقليدية ، واستخدموا الألفاظ ذاتها ، لكنهم كانوا ما يزالون يبذلون محاولات في تطوير هذه المعاني، وتوظيف تلك المفردات على منحى فيه إضافة وخصوصية تميزهم عن غيرهم .

وفي مدح السلطان ذاته ينظم لسان الدين بن الخطيب سينية فائقة تبرز صفات هذا السلطان ، وقد أبدع الشاعر في الربط بين خصال هذا الممدوح وبين عناصر الطبيعة ، وجاء الوصف دقيقاً فممدوحه لا تُضاهيه الأسود في شجاعته ، وهو بدر يجلو الظلمة ، وجبل شامخ يطاول الجبال سموا حتى طأطأت رؤوسَها ، وغيث لا ينضب ، وفي الأنس روض ناعم ، أما في الهياج فحذار من بأسه ! يقول :-

بحمى أبي حمّو حططتُ ركائبي ... لما اختبرت الليّثَ والعرّيسا (١)
أسد الهياج إذا خطا قدماً سطا ... فتخلفُ الأسد الهزبر فريسا
بدر الهدى يأبى الضلال ضياؤه ... أبدا فيجلو الظلمة الحِنديساَ (٢)
جبل الوقار رسا وأشرف واعتلى ... وسما فطأطأت الجبالُ رؤوسا
غيث النوال إذا الغمام حَلوبة ... مثلت بأيدي الحالبين بسوسا (٣)

وتعد مدائح ابن زمرك ، من أبرز المدائح التي خالط فيها المدح غرض وصف الطبيعة، فقد سيطر هذا الغرض على معظم مدائح "شاعر الطبيعة" ، لا سيما في مطولاته التي أنشأها في مدح سلطانه الغني بالله ، ومن ذلك مخمسة بديعة له يقول فيها :-

أرقت لبرقٍ مثلِ جفني ساهراً ... ينظّمُ من قطر الغمام جواهراَ
فيبسمُ ثغرُ الروضِ عنه أزاهرا ... وصبح حكا وجه الخليفة باهراَ
تَجَسّم من نور الهُدى وتجسدا(٤)

---

(١) العرّيس : مأوى الأسد . ابن منظور ، لسان العرب ، مادة عَرَسَ .
(٢) الحنديس : حندسَ وتحندس الليلُ أي أظلم ، جمعها حنادس وهو الليل الشديد الظلمة . ابن منظور ، السابق ، مادة حند ثم حندس .
(٣) المقري ، نفح الطيب ، ج ٨ ، ص ٣٤٢ .
(٤) المقري ، السابق ، ج ٨ ، ص ٣٤٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

شـــفـــاني معـــتـــل النســـيم إذا انبرى وأسْـــنـــدَ عن دمـــعـــي الحديث الذي جرى
وقـــد فـــتق الأرجـــاء مسكاً وعنـــبراً كأن (الغنيْ بالله) في الـــروض قد سرى
فهبَّتْ به الأرواح عاطرة الرِّدا (١)

ومع أن هذه الأشعار المدحية تحمل مبالغة واضحة ، وإسرافاً في التصوير وتجســيماً للصـــفات المثلى في شخصية الممدوح ، فإنها لم تكن تخلو من الصدق وأصالة الشاعرية ، بل إنهـــا فـــي بعض الأحيان تتملك النفس ، وتسرها كُلّما جاءت مبالغات الشاعر مستساغة ، كتلك التي أتحفنـــا بها ابن زمرك حين قال في مدح سلطانه :

أيـــعـــطـــشُ أولادي وأنـــتَ غمـــامـــةٌ تـــعمُّ جميع الخلق بالنفع والســـقيا؟! (٢)

فهل أبلغ من تشبيه الجود والعطاء الذي لا يميز بين الأشخاص والأماكن بغمامة تفـــيض خيرا وعطاء على الجميع دون تفريق بين هذا وذاك ؟

وابن زمرك شاعر يحشد كل طاقاته الشعرية ، وثقافته الأدبية وذوقـــه الرفيـــع لينســـج مشهدا مدحيا يعقد فيه مماثلة بين ممدوحه وبين الطبيعة ، حتى كان في بعـــض الأحيـــان يغـــدق على ممدوحه صفات تفوق الطبيعة جمالا ليرسخ الصفة التي يريد في وصف ممدوحـــه ، ومـــن مثل ذلك قوله :

مَـــنْ قـــاس كفّـــك بالغـــمـــام فـــإنـــه جـــهلَ القـــيـــاسَ ومثـــلُـــها لا يُجهَـــلُ
تـــســـخـــو الغمـــامُ ووجْهُـــها متجَهِّمٌ والوجـــه مـــنـــه مع النـــدى يـــتهـــلّلُ
من قاسَ بـــالشـــمـــس المنيرةِ وجَهَهُ ألـــفـــيـــتَـــهُ فـــي حكمـــه لا يَـــعـــدِلُ
مـــن أيـــنَ لـــلـــشمس المنيرةِ راحةٌ تـــسخـــو إذا بـــخل الزمان المُمْحِلُ (٣) ؟

ومن أجمل القصائد المدحية التي تجلت فيها الطبيعة قصيدة له في مدح ســـلطانه الغنـــي بالله، الذي كاد أن يُقصر ابن زمرك مدحه فيه ، فقد عاصرهُ طيلة حياته الأدبية والسياسية (٤) ،

---

(١) المقري ، نفح الطيب ، ج ٨ ، ص ٣٤٢ .
(٢) ابن زمرك ، الديوان ، ص ٥٢٧ .
(٣) ابن زمرك ، السابق ، ص٤٧٠ .
(٤) كانا متقاربين سناً ، وعندما توفي الغني بالله كان ابن زمرك شيخا مُسناً . ابن زمرك ، مقدمة ديوانه ، ص ٢٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وتتميز هذه القصيدة بأن قارئها يحس أن هذا الكون بعناصره الطبيعية منشغل بهذا الممدوح ، فالدوح يحضر نفسه لانتصارات الغني بالله ، والطير لا يُغرد إلاثناء عليه ، والأغصان تقلده الحلي ، والنور يلتمع من ثغره الباسم ، يقول الشاعر :-

فاعلمْ وعلمك لايُفادُ غريبةً ... أن الملوك لفضل ملكك حُسَّدُ
والطيرُ ألسنةٌ عليك ثناؤها ... والدوحُ ألويةٌ لنصرك تعقدُ
والنورُ ثغرٌ من سعودك باسِمٌ ... والغُصنُ جيدٌ من حُلاك يُقلَّدُ
والأفقُ فوقك قبةٌ محبوكة ... والبدر تاجٌ والنجومُ مُقلَّدُ
والغيثُ إن وافى رياضَكَ زائراً ... فله لجودكَ نسبةٌ لا تُجحَدُ (١)

ومما يُميز هذه القصيدة هو أن ابن زمرك استعان بغرض المدح ليخلص إلى غرض وصف الطبيعة ، وهذه طريقة تخالف ما كان يفعله الشعراء عادة ،ومن ذلك قوله : -

أوما ترى أدواحَها وظلالَها ... لله خالِقها المهْيمن تسجُدُ
والغصنُ فيها قائمٌ متهجدٌ ... والنهرُ فيها سالكٌ متجرّدُ
فلَكٌ على قُطْبٍ يدورُ لحكمةٍ ... عند الرياض ذمامها يتأكدُ
يُجري النجومَ فبعضها متغيبٌ ... تحت الثرى والبعضُ منها يصعَدُ (٢)

وفي استعارة أنيقة من الطبيعة أحسن ابن زمرك توظيفها لتزيين ممدوحه وتحليته بها، يقول الشاعر :-

تجلو لنا الأكوانُ منك محاسناً ... تُروى على مرِّ الزمان وتنقلُ
فالشمسُ تأخذُ من جَبينك نورَها ... والبشرُ منكَ بوجهها متهلّلُ
والبرقُ سيفٌ من سيوفِكَ منتَضَى ... والسَّحبُ تهمي من يديك وتَهْمُلُ (٣)

---

(١) ابن زمرك ،الديوان، ص ١٢٣ .
(٢) ابن زمرك ،السابق، ص ١٢٣ .
(٣) السابق ، ص ٤٦٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لقد صار جمال الممدوح عند ابن زمرك يزين الطبيعة فيزيدها بهاء إلى بهاء ، فهاهي الشمس تستمد النور من جبين الغني بالله ، وها هو البرق يُنتضى من سيوفه ، أما السحب فعلى ما يبدو بعض ما يتساقط من بين يديه ، صياغة متينة محكمة ، تحقق الغرض المرجو منها فترضي أذواق الممدوح ، وتشبع شاعريته .

وأجل المدح وأسناه ذلك الذى يقرضه الشعراء في ذكرى المولد النبوي الشريف ، ذلك الحدث البارز في تاريخ الأمة الإسلامية ، وقد اهتم أهل غرناطة اهتماماً كبيراً بالاحتفالات بذكرى مولد النبي – صلى الله عليه وسلم – ويقع على الشعراء العبء الأكبر في إحياء هذه الذكرى ، فيحشدون جُلَّ طاقاتهم لينظموا أشعاراً جميلة فيها جميل القول وعذب الكلام ، مبرزين أحداث السيرة النبوية ، وواقفين على سيرة النبي – عليه الصلاة والسلام – بأهم مراحلها وأبرز معجزاتها.

وفي تخليد هذه الذكرى كان لابن الخطيب وابن زمرك وابن خاتمة وابن الجياب قصائد جميلة ليست إلا "لونا من التعبير عن العواطف الدينية المتأججة بالنفوس ، والتي تصدر عن القلوب المفعمة بالصدق والإخلاص" (١) .

وقد نظم ابن الخطيب قصائد طويلة في مدح رسول –عليه الصلاة والسلام– واستعان بعناصر الطبيعة من حوله ليخلص في مدح نبيه ، مبينا كيف كان مولده حدثا بارزا ، ونقطة تحول في تاريخ الأمة الإسلامية التي انقلب ظلامها نوراً وهداية على الناس أجمعين :–

رعى الله منها ليلةً أطلع الهدى ... على الأرض من أفاقها القمرَ السعدا
وجاد الغمام العَدَّ فينا خلائفاً ... مآثرهم لا تعرف الحصر ولا العدا (٢)

ومن بدائع ابن زمرك المنيفة في مدح الرسول – صلى الله عليه وسلم – تلوح أبيات يبين فيها الشاعر كيف أن نور الهدى محمد – عليه الصلاة والسلام –عم على البشرية أجمعين، ولولاه لم يكن لهذا الكيان حقيقة ، ولم تلح الكواكب في السماء ولم تجل السماء شموسها ، وفي هذا يقول :–

---

(١) مبارك ، زكي ،(١٩٣٥م)٠ المدائح النبوية في الأدب العربي ،ص١٧، القاهرة : مطبعة مصطفى البابي الحلبي ٠
(٢) ابن الخطيب ، ديوان الصيب والجهام ، ص ٤٧٨ ٠ والمقري ، نفح الطيب ، ج٩ ، ص ١٨١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لولاك للـزَّهـر الكـواكـب لم تَلُـحْ مـثـلَ الأزاهـر ما عرفـنْ ذُبـولاَ ..
لـولاك لـم تَـجـلُ السماء شموسها ولكـان سجـفُ ظـلامـها مسدولاً (١)

فالشاعر يبين كيف أثر هذا الحدث على طبيعة هذه الكون ، ويبين مدى تأثير هذا النبـي -عليه الصلاة والسلام- على هذا الكون بمعجزاته التي رسخت دعائم نبوته فهو يقول :-

بدعـائِـهِ انقـشـعَ الغـمامُ وقـبلها والتْ بـدعـوتِـهِ الـغـمامُ هُـمـولاَ
والـشمسُ قـد رُدَّت لـه ولطالما قد ظلَّـته سـحابها تـظـلـيـلا (٢)

ولابن زمرك أبيات في مدح رسولنا الكريم قالها في عيدية (٣) وفيها يضفي على الكون وطبيعته مظاهر البهجة بميلاد نور الهدى فالروض يضحك ، والطير يغرد ، والنرجس مطلول، والربيع بديع، وكل عناصر الطبيعة هذه تنطق بالتوحيد وتسبح بحمد الله :-

فـكأنـه شعـري بـمـدح مـحـمـدٍ ما زال يـركـض فـيه خَـيلَ بـيانـه
والـروض يضحك عن مباسم زهره والـطـيـر يخـطُبُ في ذرى أفـنـانِهِ
والنرجـس المـطـلـول يرنو نحوَها ومـدامـع الأنداءِ في أجـفـانِـهِ
لم تبـكِ فـيه الـسَّـحْـبُ إلاّ رحـمةً كـي تكسُـوَ الـعُـريانَ مـن أغـصانِهِ
لم يـعـتـدل فـصـلُ الربيع بروضِهِ إلا وقـد مالـتْ مـعـاطِـفُ بـانِـهِ
صنع بديـعٌ في مـظـاهـر حـكمةٍ ودلالـة التـوحـيـد فـي إتـقـانِهِ (٤)

أما ابن الجياب فقد تناول هذا اللون من الشعر أيضا ، وله مولديات يعرض فيها سـيرة الرسول – صلى الله عليه وسلم – بكل تفاصيلها ، متتبعاً مراحلها ، وذاكـراً معجـزات النبـي الكريم ، وخلال تعداد الشاعر لهذه المعجزات يذكر معجزة انشقاق القمر ، التي ورد ذكرها فـي القرآن الكريم .

---

(١) ابن زمرك ، الديوان ، ص ٤٧٨ .
(٢) ابن زمرك ، السابق ، ص ٤٧٧ .
(٣) قصيدة مدحية تقال في العيد .
(٤) ابن زمرك ، الديوان ، ص ٢٤٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

"اقتربت الساعةُ ، وانشق القمر ، وإن يَرَوْا آية يعرضوا ويقولوا سحرٌ مستَمرّ" . وفي ذلك يؤكد ابن الجياب على دور عناصر الطبيعة في اثبات نبوة الرسول – عليه الصلاة والسلام– بأمر من الله عز وجل مضمنا معنى الآية الكريمة :–

فالبدرُ شُقَّ بأمرهِ والشمسُ قد حُبِسَتْ وكلَّمهُ ذراعُ الشاةِ (١)

ويمضى الشاعر في تعداد معجزات الرسول متكئا على تلك التي تسهم في تشكيلها عناصر الطبيعة ، ومعتمدا في ذلك على سيرة الرسول العطرة كما روتها كتب السيرة ، فالماء العذب يتفجّر بين يدي الرسول الكريم فراتاً، والغمام يسحّ رحمة للناس في الأرض ، والجذع يحن تلهّفا لفراقه ، حتى الطود زلزل بعد طول ثباته، يقول :–

وتفجرتْ منه الأناملُ بُوركَتْ بزلال عذْبٍ من يديهِ فُراتُ
سح الغمامُ له بُسقْيا رحمةٍ والخلق في مَحْلٍ وفي إسناتِ (٢)
والجذع حَنَّ تلهّفاً لفراقِهِ والطودُ زُلْزلَ بعد طول ثباتِ(٣)

لقد أتت هذه القصائد الدينية في مدح رسولنا الكريم مرتبطة ببيئة الأندلس الطبيعة ، فابن خاتمة يتشوق ويتألم لبعده عن ضريح الرسول الكريم، ويشبه هذا الضريح الذي تفيض في جنباته نفحات الرضى والطيب بروض كساه الربيع أجمل حلّة من حلله ، ويتوق الشاعر إلى لثم هذا الضريح ليحقق الصلة ويبَدِّد القطيعة والغربة بالأنس والوصال قائلا :–

من لي بلثم ضريح لثمُهُ سببٌ لكلِّ منقطع ، بالله مؤتنسِ
روض كساه الرضى من طيبهِ خِلعاً فليس يَعرى محبٌّ من هواهُ كُسي (٤)

وليلة مولد الرسول ليلة عظيمة ، مجدها كثير من الشعراء ومنهم الشاعر ابن الورد الغسّاني (٤) الذي وصف عظمة هذه الليلِة وفرحة الدنيا بها ، وحاول في أبياته أن يبُث شوقه إلى حبيبه محمد – صلى الله عليه وسلم – قائلاً :–

---

(١) ابن الجياب ، الديوان ، ص ١٦٦ .
(٢) أي في جدب، وفي معجم "أسنت القوم" أصابتهم سنة مجدبة" ٠ ابن منظور، لسان العرب ، مادة أسن .
(٣) ابن الجياب ، الديوان ،ص١٦٦ .
(٤) ابن خاتمة ، الديوان ، ص ٣٤ .
(٥) هو محمد بن أبي الحسن بن ورد الغساني ، يكنى أبا عبدالله ، ويعرف بابن ورد الغساني، وهو من شعراء القرن الثامن٠ ابن الخطيب ، الكتيبة ص ١٥٢ ، وأوصاف الناس ، ص ١٢٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يا ليلـةً عظمـت بـهـا الأذكـار ... وتـفتحـت مـن نـورهـا الأنـوارُ
وسرى النسيـمُ بطـيـبـهـا متأرجاً ... فله شذى مـن نـفـحـهـا مِـعْـطـارُ
والـدهـرُ منهـا قد تـجـلّى بهجـةً ... وكسـتـه مـن أسـرارهـا أنـوارُ (١)

وقد يستعين شاعر كابن الخطيب بالقمر والشمس ليحملا تحيته لحمى الأماكن المقدسة ، حين اعتصره ألم مضن بسبب عدم تمكنه من اللحاق بركب الحجيج ، فقال ذارفاً الدموع :-

دعـاك بأقـصى المغـربيـن غريبُ ... وأنـتَ ، على بُعدِ الـمـزار ، قـريـبُ
يُـكلّـف قرصَ البـدر حَـمْـلَ تحيّةٍ ... ولا حـول إلا زفـرةٌ ونـحـيـبُ

وفي النهاية فإن المدح سواء أكان للرسول عليه الصلاة والسلام ، أم للخلفاء والملوك والوزراء ، كان شديد الارتباط بالطبيعة الأندلسية وعناصرها ، حتى إنه كان عند ابن خاتمة مدحاً خالصاً للطبيعة بحد ذاتها ، فلديه كثيرمن المطولات التي استرسل فيها في ذكر أشياء من الطبيعة الجميلة ومدحها والثناء عليها ، مذكرا نفسه وغيره بأن كل ما فيها من أزهار ونبات ونجوم وحيوان يسبّح بحمد الله ، ويذكر من غابت روحه وعضلت عينه عن حضرة القدس ، بضرورة حمد الله والرجوع إليه ، وقد ترك ابن خاتمة لوحات شعرية جميلة هي من أجمل ما كتبه شعراء غرناطة في وصف الطبيعة ؛ صائتة وصامتة ، يقول :-

تسامـتْ لـك الأكوانُ تجْلى عرائسـاً ... فلو كنت ذا عـيـنـيـن كـنت المناجيا
وإلاّ فـمـا بـال الـبـهـار محدّقـاً ... وقـد كـحلـتْ مـنـه الظلالُ مـآقيا
ومـا بـالُ صُـدغ الآس أخضر ناصعاً ... ومـا بـالُ خـدِّ الـوردِ أحـمـرَ قانيا
ومـا لثـغور الـزهر تُـلـقى بواسِماً ... إذا ما عـيـونُ القطـر ظـلْـنَ بواكيا
وما للآلي الشـهـب رصِّـع نـظمهُا ... فأمسـت صـدور الأفـق عـنها حواليا
وما لحمام الأيكِ تـشـدو تـرنّـمـاً ... وما لقـدودِ القـضـب تهـفو تعاطيا
ولم قبـضَ الـنـيلو فرُ والكفّ خائفاً ... ولم بسـط السـوسان يُـمـنـاهُ راجيا
أتحسـبُ هاتي كـلـهّـا خُلِقتْ سدى ... لغـيـر اعتـبـارٍ ؟ لا وربك ماهيا ! (٢)

---

(١) ابن الخطيب ، الكتيبة الكامنة ، ص ١٥٣ .
(٢) ابن خاتـمة ، الديوان ، ص ٢٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ثالثاً : الطـــبيعة في الرثاء :-

الرثاء من أقدم فنون الشعر عند العرب ، وهو أحد الأركان الأساسية للشعر(١) ، وفـــي دواوين الشعر الأندلسي العديد من قصائد الرثاء ، فقد تفجع الأندلسيون على أوطـــانهم بحرقـــة وحسرة كادت تغلب تفجعهم على سلاطينهم وأحبائهم ، وكثيرا ما كـــان تفجعهـــم يـــزداد بتـــأزم الأمور ، حين تكثر الفتن وتعم الحروب والنكبات ، ويتجسد ذلك كله في مـــراثيهم التـــي كـــانوا يترجمون فيها ما تضجُّ به نفوسهم من معاني اللوعة والأسى والوحدة والغربة .

والطبيعة على رقتها وعذوبتها ، تبعث البهجة حينا ، وتـــؤجج الحـــزن حينـــا آخـــر ، واستطاعت بذلك أن تقتحم غرضا قد يبدو للآخرين بعيدا كل البعد عنها .. ولكن ما الغريب فـــي أن يناجي المحزون السماء ويساهر النجوم ، أو يشبه فقيده ببدر غاب أو شـــمس أفلـــت ، أو أن يحس أن هديل الحمام لم يعد هديلاً بل نواحا على فقيده الغالي .. إن الطبيعة تحيط بالإنسان مـــن كل جانب وهي دائمة التأثير فيه في كل أحواله وأوقاته .

وقد تفاوت شعراء غرناطة في اهتمامهم بغرض الرثاء ، فمنهم من نحى نفسه تماما عن هذا الغرض مثل ابن خاتمة ، ومنهم من اتخذ الرثاء غرضاً للتقرب من الوجهاء وذوي السلطة ، ووسيلة للحفاظ على مناصبه السياسية ، مثل ابن الجياب .

كما تفاوت الشعراء في مدى حضور عنصر الطبيعة في مراثيهم ، وتـــأبينهم لموتـــاهم ورثائهم لمدنهم ،ففي رثاء الشعراء للملوك والوجهاء ينزعون للتهويل ، فيجعلون مـــن الحـــدث مصيبة عامة يهتز لها الكون ، وتفجع بها الطبيعة ، فقد ترتجّ راسيات الجبال ، وتغضب الأرض فتعبر عن غضبها بزلزال .. ليصبح الأمر مصيبة كونية تعم الجميع ، ويوجد هذا المعنـــى فـــي رثاء ابن الجياب لأبي سعيد بن نصر(٢) إذ يقول :-

---

(١) القيرواني، ابن رشيق، (ت٤٥٦ هـ)٠العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ، (تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد) ،ط٤،ج١،ص١٢٠، بيروت، ١٩٧٢ م٠ حيث يقول :"بُني الشعر على أربعة أركان وهي المديح والهجاء ، والنسيب ، والرثاء".

(٢) والد اسماعيل الأول ، ومؤسس الدولة النصرية الثانية ، تولى حكم مالقة (٦٧٧ هـ) ٠ ابن الخطيب، الإحاطة ،ج٤ ، ص ٤١ وما بعدها

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

خطــبٌ كما شــاءَتْ صُــروفُ اللــيالْ ترتــجَّ منــه راســـــيــاتُ الجــبــالْ
مــصــيـــبــةٌ زلــزلــتِ الأرض إذْ محــت معــالم الــتــقــى والــجلالْ (١)

وتعد مرثية لسان الدين بن الخطيب من أكثر المراثي التي يمكن أن تمتزج بها الطبيعة مع غرض الرثاء ، ذلك أن الشاعر أراد تقديس أضرحة الملوك بشالة(٢) ، وقد رسم الشاعر للمقبرة لوحة طبيعية أخاذة ، وكأنها استمدت جمالها من صورتيين من صور الجنة كما وُصفت في القرآن الكريم : أطيارٌ مترنمة وأشجارٌ متهدلة ومياه جارية ، يقول :-

فــكــأنــمــا أجــداثــهم لمــا بــدتْ آيــاتُ وعــظٍ رُتِّــبــت أســطــارُهُ
روضٌ تــــأرّجَ عَــرفــهُ وترنّمــتْ أطــيارُه ، وتــهــدلــت أشــجــارُهُ
خَــضِــرُ الجنابِ ، سقى معاهدَه الحيا وعــلا علــى كنــز الــجلالِ جدارُهُ (٣)

وهذا ابن زمرك يُبكي الطبيعة على سلطانه الراحل ، الذي أحزن فراقه أرضها وسماءَها، فبكته السُّحب والشهب ، ولبست النيرّات ثياب الحزن حدادا على فقيده الراحل ، وتأكيدا على حزن الطبيعة معه ، وتأثرها بمصابه ومشاركتها له فقال :-

ستبكــيــك أرضٌ كــنــت غيث بلادها وتبكــيــك حــتــى الشهب في كل مشهدِ
وتبــكــي عــليك السحب ملء جفونها بدمــع يُرَوِّي غُــلَّ الــمــجــدِبِ الصَّدِي
وتــلــبــسُ فيــك النيرات ظــلامَهــا حــداداً ، ويــذكي النَّجمُ جفنَ مُسَهَّدِ (٤)

وفي قصيدة يرثي فيها الشاعر الملك يوسف الثالث قائدا شهيداً اسمه مفرج وبعض القادة العسكريين الذين أفنوا حياتهم في الدفاع عن مملكة غرناطة، يصور لنا حزن الطبيعة مستعينا بعناصرها التقليدية في الشعر المشرقي من طلل ، ورَبع وريح صبا ، فيصور الروض ذابلا ، وريح الصبا معرضة عن الهبوب فيقول:-

---

(١) ابن الجياب ، الديوان ، ص ٤١٢ – ٤١٣ .
(٢) شالة : مدينة شالة ، ويقال لها سلا، تقع شرقي جزيرة قادس في بر العدوة . المقري ، نفح الطيب ، ج١، ص١٩٧ .
(٣) المقري ، السابق ، ج٧ ، ص ٢٣٥ – ٢٣٦ .
(٤) ابن زمرك ،الديوان ، ص ٣٩٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقفنا به ربعا شجتنا طلوله نسائل ركب الخيف أين حلوله
وأين صباه لُدْنُه وقبوله وريّان ذاك الروض مم ذبولهُ (١)

وتدور الدوائر ليُرثى هذا الملك من قبل ابن فركون الذي وجد نفسه في مأزق يتطلب منه أن يكون معزّيا ومهنئا في نفس الوقت ، والعزاء مجاملة، والتهنئة رغبة في كسب المودة ، وتلمس ابن فركون في عناصر الطبيعة وتناقضاتها وفي بعض المفارقات التي تحدث فيها ، مخرجاً يعينه على التعبير عن حزن بالغ لوداعه الملك يوسف الثالث ، وفرح باستلام ابنه أبي عبدالله محمد الحُكم ٠ أمران بالغا التأثير في النفس ، والاستعانة بعناصر الطبيعة يساعد كثيراً، وعلى الشاعر أن يحسن المقابلة ، وأن يقتبس من هذه الطبيعة الصور الأدق والأقدر على إيصال المنشود ، وقد أحسن الشاعر ففي مقابل غياب الفقيد وأفول بدره يطلع ويبزغ فجر جديد، وفي مقابل غروب النجوم الهادية في السماء يلوح الصبح مبشرا بقدوم يوم جديدٍ أيضاً .. ويتابع الشاعر هذه المقابلات قائلاً :-

فإن غاب نور البدر أووضع الحيا نداه فهذا البحر والفجر يُجتلى
وإن غَرُبَ النجم الذي كان يهتدى به فمحيَّا الصبح قد لاح مقبلا
وإن صوَّح المرعى وخفَّ قطينُهُ فهذا هوَ الروضُ الذي راقَ مُجتَلا
وإن كان وادي النيّل جفَّ معينُهُ فهذا هو النيل الذي ينبت الكلا
وإن كان ليل الخطب من بعده دجا فقد طلعت شمس الهداية وانجلى (٢)

ويبدو أن تكرار الجمل الشرطية في هذه القصيدة جاء أسلوبا موفقاً يخدم غرض القصيدة، فقد جاءت الجمل المتضمنة فعل الشرط جمل تعزية ، في حين جاءت الجمل المتضمنة جواب الشرط جمل تهنئة للحاكم الجديد بتوليه أمور الحكم ، وقد حقق ذلك إيقاعاً موسيقيا متوازناً دون شك .

ومن المراثي الموجعة في عصر غرناطة ما قيل في رثاء السلطان (أبي الحجاج يوسف الأول) الذي اغتيل سنة (٧٥٥ هـ) وهو في صلاة العيد ، وكان لسان الدين بن الخطيب

---

(١) يوسف الثالث ، ديوان ملك غرناطة ، ص ١١٨ .
(٢) الفاسي ، الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية ، ص ١١٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

شاعره ووزيره الذي حزن لفراقه ، وجنّد نفسه ليسجل أروع مآثره ، وهو في الأبيات التالية يأسف على جماله الذي شبهه بالبدر ، وعمره الذي حاكى زهو الحديقة ، وأخلاقه التي كانت كزهر الرياض جاد عليه الغمام فقال :-

أسفاً على الخَلق الجميل كأنما ... بدرُ الدَّجنة قد جلاه تمامُ
أسفاً على العمر المديد كأنه ... زهوُ الحديقة زهرُه بسّامُ
أسفاً على الخلق الرَّضيِّ كأنه ... زهرُ الرياض هما عليه غمامُ (١)

والشاعر ابن الخطيب استعمل كلمة أسفاً تأكيدا على تحسره البالغ على فقده مليكه وسلطانه ، وتكرار أداه التشبيه "كأنه" أيضا أحدث إيقاعاً موسيقيا حزينا لهذه المرثية .

ويرثي ابن الخطيب الوزير ابن الجياب داعيا الله عز وجل أن تجود على قبره ديمة غزيرة الأمطار، تبكيه حزناً بدموع رقراقة، وتشبيه الدموع بالأمطار وكثرتها بالسحب من التشبيهات المألوفة ، يقول الشاعر:-

جادت ضريحك ديمةٌ هطالةٌ ... تبكي عليك بواكفٍ رقراق (٢)

وفي رثاء مدن الأندلس لا بُد للشاعر أن يتحدث عن طبيعة البلد المرثي وعن كل ما ينطق فيه من جمال طبيعي يتأسف هو وغيره من الأندلسيين عليه ، ويتحسرون على الأيام الماضية التي قضوها في ربوعه ، وينكرون ما حل بها من تغيير في ملامحها بعد أن استولى عليها الإسبان ، حتى عبّرت الورقاء عن هذا الحزن ببكائها ونواحها ، وفي هذا يقول ابن الأبار:-

بأبي مدارسَ كالطلول دوارسٌ ... نسخت نواقيسُ الصليب نداءَها
راحتْ بها الورقاءُ تسمعُ شدوَها ... وغدَتْ ترجّعُ نوحَها وبكاءَها (٣)

---

(١) المقري ، نفح الطيب ، ج ٥ ، ص ٨٣ .
(٢) ابن الخطيب ، الإحاطة ، ج٤ ، ص ١٤٩ .
(٣) المقري، نفح الطيب ، ج٤ ، ص ٤٨٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وها هو حازم القرطاجني (١) يبكي قرطبة ، ويُبكي منازلها وحشة ، وأنهارها وجـداً .. وكأن هذه العناصر الطبيعية تكون دائما الأبلغ في تصوير الحزن الكبير الذي يحس به الشاعر ، وأروع ما قاله حازم القرطاجني للتعبير عن شوقه وحنينه وتوقه إلى قرطبة ، أنه رآها كالبـدر السرار الذي مُحِق ومحيت ملامحه :-

ومُحِـقـــتْ قـرطـبـــةُ كمثـل ما ... قد مُحِـــق البدرُ الـسَّـرارُ ومحـــــاَ
فـقد بكـت أنـهـارهـا بـــدمـع ... هام مـن الـوجـدِ لـهام مـا ارتـوى
فـالنهر الأبيـضُ يبـكـي شـجـوَهُ ... بكـل دمـع مستفيـض مـا رقـــا
وقـد بكى النهر الـكـبـيـر صِنوَهُ ... إذ لم يُـطِـقْ يروي صدى هامٍ زقـا(١)

ومما لا شك فيه أن رثاء الشعراء ذويهم وأحباءهم هو الأكثر صـدقا فـي العاطفـة ، وتأثيرا في النفس ، وكثيرا ما لجأ الشعراء أيضا إلى التعبيـر عـن حـرقتهم لغيـاب أحبـائهم مستعينين بعناصر الطبيعة التي كانوا يشركونها في أحزانهم ، وقد يشبهون مـن فقـدوهم بأحـد عناصر الطبيعة كما فعل ابن الجياب حين رثي فلذة كبده بحرقة واصفا إياه بغصن نضـر ذوى وثوى تحت الأرض ، فسبّب الوحشة له حين ودّعه بدموع غزيرة تهمي كما تهمي السحابة وابلا من المطر، قال :-

فيا غُصنا نضراً ذوى عندما استوى ... فأوحشـني أضعاف مـا كـان أنّـسـا
فـودّعُـتـهُ والدمـعُ يهمي سحـابهُ ... كمـا أسـلـم السلك الفريدُ المجنَّسا (٣)

أما الشاعر الملك يوسف الثالث ، فيرتفع نحيبه أمام فجيعة مضنية بفقد أخيـه الصـغير، الذي كان يرى فيه حلم امتداد الملك بعده ، لكن الحلم انطفأ ، وفقد الملك ساعده الأيمن وصـديقه وأنيسه فقال يبكيه :-

---

(١) هو أبو الحسن حازم بن محمد بن حسين بن حازم القرطاجني ولد سنة (٦٠٨ هـ) بقرطاجنة في شرق الأندلس ، هاجر إلى مراكـش ، ثم استقر في بلاط الحفصيـين في تونس ، توفي (٦٨٤ هـ) ٠ السيوطي ، بغية الوعاة ، ج١، ص ٤٩٠ ٠ والمقري ، أزهار الرياض ، ج٣ ، ص ١٧٢ .
(٢) محمد الحبيب بن الخوجة ، قصائد ومقطعـات : صنعه ابن الحسن حازم القرطاجني ، ص ٦٧ ٠
(٣) ابن الخطيب ، الإحاطة ، ج٤ ، ص ١٣٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كـــنْـــتَ درّاً أصـــونـــــــــــه ... فـتـشـظى عنه الـصـــدَفْ
كنـــتَ غُـصـنـــا يـروقـنـــــي ... فـتـثنّى ثـم انـــقـــصـفْ
كـنـت شـــمـــســـي فـنـورهـا ... فـي ضُـحـاها قد انكـسَـفْ
كـنـت بـــدري تـــضـــيء لـي ... غالة الخـطبِ فانـخـــسَـفْ
أفـــلَ النـــــــــــورُ لا أرى ... بَـعـدَ الـدَّهـر مِـنْ خَـلَفْ (١)

لقد انتقى الشاعر أجمل ما الطبيعة ليشبّه به أخاه مؤكداً على الفعل الماضـــي النـــاقص " كان " ليبين لنا في المقابل ما الذي حصل بعد موت رفيق حياته ، فقد تحولت كل هـــذه الأشـــياء الجميلة المبهجة للنفس إلى نهايات تحزنها ، فالدُّرّةُ لم تعد مصونة بعد أن امتدت لها يد المـــوت ، والغصن لم يعد نضراً ، والشمس لم تعد مشرقة ، والبدر لم يعد مضيئاً ! لقد حزنت الطبيعة بكل موجوداتها على هذا الفقيـــد الشاب .

ومن الشعراء من التاع لفقد خاله ، فعبّر عن ألمه وقلة صبره على فراقه ، فهـــذا ابـــن الحاج (٢) الغرناطي يحرمه الموت من خاله ابن عاصم القيسي (٣) فينظم مرثية يعدد فيها مناقب خاله الأصيلة ، وهو يشرك الطبيعة في أحزانه ، ويتساءل ما إذا كان يطيب للإبل أن ترد المـــاء بعد فقد خاله ، أو ترعى كعادتها النبت الحامض ؟ وما إذا كانت أم الحوار قادرة على إرضـــاع وليدها بعد أن خف لبنها وارتفع ضرعها ؟ يقول :-

نشـــدُتـــكمُ هـــل طـــابَ للعيس وِرْدُها ... وهـــل راقها مرعَى لِـــحمضٍ (٤) وسِعْدان
وهـــلْ أرضـــعتْ أمَّ الحـــوار حـــوارَها ... وأفهَق(٥)من رُسُلٍ على الشّوْل(٦) فقهان (٧)

---

(١) المقري ، النفح ، ج٥ ،ص ٤٣٩ .
(٢) هو ابراهيم بن عبدالله بن ابراهيم النميري (٧١٣ – ٧٦٨ هـ) أديب وكاتب وشاعر أندلسي ، كتب في ديوان الإنشاء ثم رحل إلى المشرق فحجَّ ، وخدم عند أبي عنان المريني ، ثم عاد للأندلس وولي القضاء ببعض نواحيها ٠ ابن الأحمر ، نثير فرائد الجمان ، ص ٣١٣ ٠ وابن الخطيب، الكتيبة الكامنة ، ص ٢٦٠.
(٣) هو أبو عبد الله بن محمد بن عاصم القيسي ، ويعرف بابن عاصم ، فقيه كاتب ، ولي الحسبة ، وناب عن صاحب القلم الأعلى ٠ العسقلاني ، الدرر الكامنة ، ج٤ ، ص ٢٩٨ ٠ وابن الخطيب، الكتيبة الكامنة ، ص ١٧٢.
(٤) حمض : كل نبت مالح أو حامض يقوم على سوق ، ولا أصل له ٠ ابن منظور، لسان العرب ، مادة حمض.
(٥) أفهـــق : أول فقرة من العنق تلي الرأس ٠ ابن منظور ،السابق ، مادة فهق .
(٦) الشول : من النوق التي خف لبنها وارتفع ضرعها ٠ السابق ، مادة شول .
(٧) ابن الأحمر ، نثير فرائد الجمان ، ص ٣١٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولا يخفى تأثر هذا الشاعر بالبيئة الصحراوية بعناصرها المتمثلة بالعيس والورد والمرعى وغيرها ، حتى إن هذا التأثر لم يقف عند البيئة المشرقية بل امتد إلى الألفاظ التي استخدمها الشاعر ، وهي ألفاظ مشرقية صعبة لم يعد يرددها الشعراء كثيراً ، لكن هذا الشاعر أراد مرثيته عربية أصيلة حافلة بمثل هذه الألفاظ ، ويتجلى ذلك في دعائه لقبر خاله بالسُّقيا بفعل أمطار كثيرة تنهمر من سماء بدت بروقها كالسياط ، ورعودها تجلجل السماء :-

سقاهُ على الأمراع (١) كلُّ مجلجلٍ ... من الغيثِ هطّالِ العَشياتِ هَتَّان (٢)
إذا حرّكَتْهُ في البروق سياطُها ... رَمَتْ بعشارِ المزْنِ في كلِّ بستان (٣)

وفي فقدان لسان الدين ثلاثة من أصدقائه تقاربت وفياتهم ، يبكي دموعاً غزيرة كأنها المطر المنهمر على الأرض مورثا شقائق النعمان ، ويعبر عن ذلك في تورية لطيفة إذ يقول:-

فمَنْ لي بدمعٍ في المحاجرِ مهتدٍ ... عليكَ وقلبٍ في الحناجر حَيْران
نسبْتُ إلى "ماء السماء" مَدامعي ... فأورث لي فيها شقايقَ نعمان (٤)

والأمثلة كثيرة وقد أورد منها ما يمكن أن يوضح مدى تداخل الطبيعة مع فن الرثاء وامتزاجها به ، فهي التي تهتز حزنا على الفقيد ، وتنوح حمائمها ألما عليه ، وتمطر سماؤها لتسقي قبره ، وتبرق سماؤها وترعد غضبا لفقده ، ويذوي غصنها لوعة على فراقه ، ويمحق بدرها ، وتكسَفُ سماؤها ، ويُخسَفُ قمرها تعبيراً عن الحزن لأجله .

هذه هي الطبيعة الصديقة الصدوقة للإنسان في جميع أحواله النفسية والفكرية تشرع ذراعيها له ، تحتضنه ، وتسخر له كل عناصرها ليتفاعل معها كيفما شاء ، وتحت أي ظرف من الظروف .

---

(١) الأمراع : جمع مرع وهو الكلأ . ابن منظور ، لسان العرب ، مادة مرع .
(٢) هتّان : صيغة مبالغة للفعل هتن ، والمقصود هنا كثرة تتابع الأمطار وانهمارها. ابن منظور، السابق ،مادة : هتن.
(٣) ابن الأحمر ، نثير فرائد الجمان ، ص ٣١٧ .
(٤) ابن الخطيب ، الإحاطة ، ج٤ ، ص ٤٩٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

رابعاً : الطـــبيعة في شعر الجهاد :-

رصد شعراء غرناطة معظم الأحداث والمحن التي مرّت فيها الأندلس التي كانت تعـيش سلسلة من المآسي والنكبات ابتدأت بسقوط (طليطلة) المبّكر سنة ٤٧٨ هـ/ ١٠٨٥ م ، وانتهـت بسقوط غرناطة سنة ٨٩٧ هـ / ١٤٩٢ م ، وكان حبهم وولاؤهم لبلادهم يتراوح ما بين حـب الوطن والحنين إليه ، وما بين الحث على الجهاد في سبيله بكل الطرق والوسائل ، والشاعر معه سلاح أبلغ ما يكون على النفس البشرية إذا أجاد استخدامه ، وقد حاول الشعراء حشـد طاقـاتهم للحث على الجهاد في سبيل استرداد الأندلس من أيدي الإسبان الذين وعى الأندلسـيون حقيقـة عداوتهم لهم ، فجل همهم كان دائما محصورا في محو ملامح الدين الإسلامي ، وهدم صـرحه الكريم ، فالصراع صراع عقيدة ومبادىء وليس صراعا هدفه السيطرة على البلاد فقـط كمـا كانوا يدّعون .

وتسللت الطبيعة إلى هذا الغرض كما تسللت إلى غيره ، ووجد الشاعر نفسـه بحاجـة للاستعانة بعناصرها للتعبير عما يريد ، فالأرض ساحة المعركة ، والخيول مطايـا فرسـانها ، والأنهار دماء قتلاها ، وبروقها سيوف محاربيها ، ورعودها وطيس حربها ، وأسودها أبطالها ، وكلابها أعداء المسلمين .. إلخ .

فها هو أبو البقاء الرندي يجد نفسه مضطرا لاسـتخدام عناصـر الطبيعـة –الصـائتة والصامتة– ليرسم لوحة تحرك في نفوس الأندلسـيين حـرارة الـدفاع عـن أرض الـوطن ، فيستصرخ داعيا للجهاد في سبيل إنقاذ الأندلس الجريحة في قصيدة مشـهورة لـه يبكـي فيهـا الأندلس ، ويشحذ همم الأندلسيين بتذكيرهم بانتصاراتهم، وهم راكبون عتاق الخيـل المسـرعة كأنها العقبان ، وحاملون سيوف الهند كأنها النيران ، وينتقد من يرتعون وراء البحر في دعـة ، لا حول لهم ولا قوة قائلا :-

يا راكبينَ عتـاقَ الـخـيـلِ ضـامرةً كـأنها في مجال السبق عـقـبـانُ(١)

---

(١) المقري، نفح الطيب ، ج٤، ص٤٨٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وحاملينَ سيــوف الــهــنــد مــرهفةً كأنــهــا فــي ظــلام الــنــقــع نــيرانُ
وراتعــيــن وراءَ البحــر فــي دِعــةٍ لــهم بــأوطــانهــم عــزٌ وسلــطانُ (١)

وبما أن معظم سلاطين الدولة النصرية ساروا في ركب الجهاد ، فقد جاهدوا مشــاركين مشاركة حقة في تطهير أرض الأندلس وتخليصها من يد الأعداء ، وكــان الشــعراء كعــادتهم يشيدون بهذا الجهاد ويخلدون الانتصارات التي حققوها، فهذا ابن الخطيب يؤكد للسلطان يوسف الثالث أنه نصير دين الله ، وعضيده ورافع منزلته التي جاوزت عنصــرا مــن أهــم عناصــر الطبيعة إذ يُمثل دائما العلو والسمو والرفعة قائلا :-

وعضدت ديــن الله يــابــن نصيـــره حتــى سمــا فـــوق السماء عموده (٢)

أما ابن زمرك فيرى في سلطانه الغني بالله "شمس الخلافة "، فكم من مرة سرى مُصبحا ليفتح أحد معاقل الكفر، ويقلب صبحه ظلاما بجيشه الجرار رافع لواء الحق والنور ، يقول :-

فلــولاك يا شمــس الــخلافة لم يبــنْ سبــيــلُ جهــاد كان من قــبــل خافــيا
فكم معــقــل لــلــكــفــر صبحت أهله بجــيــش أعاد الــصــبحَ أظلم داجيا (٣)

وقد وظف ابن زمرك التغيرات التي طرأت على طبيعة المكان الذي دارت فيه المعركة من غبار ودماء وفوضى للإشارة إلى تغيرات تصاحبها في الزمان حينما عاد الصبح أظلم داجيا وكان القصد من ذلك كله إبراز قوة جيش سلطانه الغني بالله الذي فتح للمسلمين أبــواب الجهــاد التي كادوا يضيعون دروبها٠

وَيرى الشاعر محمد بن جُزي الكلبي في ممدوحه البطل الفارس المجاهد أبــي الحجــاج ليث الوغى دون منازع :-

---

(١) المقري ، نفح الطيب ، ج٤ ، ص ٤٨٨ ٠ والقصيدة كاملة من ص ٤٨٦ – ٤٨٨ .
(٢) ابن الخطيب ، ديوان الصيب والجهام ، ص ٤٢٣ .
(٣) المقري ، نفح الطيب ، ج٧ ، ص ١٩٠ – ١٩١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ليــث الوغى والخــيــلُ تزجي بالقنا والبيــض تنــهــل فــي دم الأوداج (١)

ويرى ابن الخطيب أن رأي ابن الحجاج مصدر نور للشمس التي اعتاد الخلق على أنها مصدر للنور ما بعده نور ، لكنه أراد المبالغة للدلالة على سداد رأيه وحكمته فقال :-

ورأي يــمــدُّ الــشمــس نوراً ومشهداً مــلائــكة الــسبع الطباق شــهــودُهُ (٢)

وهو كما يراه ابن الخطيب أيضا مصدر قوة وثبات للإسلام ، وقد عبــر عــن رأيــه مستعيرا صورة السحابة المدرار التي تسقي ظمأ الأرض العطشى فتحيلها يبابا ليشبه بها صورة الإسلام الذي كان يفتقد بطلا مميزا وقويا ينعشه ويدب الحياة في أوصاله ، تماماً كما يفعل المــاء بنبات جاف طال ظمأه ، يقول :-

وافــيــتَ والإســلام صــوّحَ نبــتــه فأتيتهُ بــالــديــمــةِ الــمــدرار (٣)

وفي تأكيد ابن الخطيب على قدرة بطله أبي الحجاج على إشاعة الأمن بين أفراد رعيته، وإزالة الخوف من بين صفوفهم ، وتمكنه من إيضاح طرق الحق لهم يســتعين ابــن الخطيــب بصور من الطبيعة، فيصف البلاد وهي في حالة من الفوضى والاضطراب كأنها بحــر مزبــدٌ هائج ، وكأن الموت الذي كان يتهدّدهم موج يطيح كل من يقف بوجهه ، والبطل ابن الحجاج هو من سكن هذا البحر الهائج ، وهدّأ من روع تلك الأمواج القاتلة بقدرتــه علــى الســيطرة علــى الوضع، وتحقيق الأمن والطمأنينة :-

وسكّــنــت بحــر الــخطبِ واللّجّ مزبدٌ وموج الــردى آتــيُــه مــتــراكــبُ (٤)

وللشاعر نفسه صورة لطيفة موفقة ينسجها للتعبير عن الأمن الذي حققه أبــو الحجــاج لرعيته أيضا ، وفيها يبيّن الشاعر كيف أن الشاة لفرط الأمن أصــبحت ترعى مع الــذئب دون

---

(١) ابن الأحمر ، نثير الجمان ، ص ٢٨٧ .
(٢) ابن الخطيب ،ديوان الصيب والجهام ، ص ٤٠٣ .
(٣) ابن الخطيب ، السابق ، ص ٤٩٤ .
(٤) السابق ، ص ٢٧٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

خوف أو وجل ، مشهد من مشاهد الطبيعة يُجسّد حقيقة علمية مسلم بها يقلبهُ الشاعر ليوظفه في التعبير عما يريد قائلا :-

فكادت الشاء ترعى والذئاب معاً وكادت الناسُ فيها تأمنُ الأجلاَ (١)

وهذا ابن الجياب يصف بطله الذي تمكن من مواجهة الجموع الزاحفة من الأعداء، وهو في قمة ثباته وثقته بنفسه، كما يصور الشاعر صمود بطله رغم طبيعة المكان الذي تدور فيه المعركة ، فالأرض بحر من الدماء ، والرماح البيض شهب في السماء :-

متبسمٌ والأرض بحرٌ من دمٍ والبيض شهبٌ في سماء عجاج (٢)

ولم يأل الشعراء الغرناطيون جهداً في الحث على الجهاد ، والاستصراخ من أجل نجدة لواء الإسلام ، حتى إنهم استنجدوا بجيرانهم المغاربة ، وحشدوا طاقاتهم لمدح واستصراخ ملوكهم وأمرائهم، حتى آتت هذه المحاولات أكلها ، فأصبح بنو مرين يدافعون عن الأندلس كأنها بلادهم التي يدافعون عنها ، لا كبلادٍ تطلب النجدة فحسب . وفي محاولة من ابن الخطيب للاستصراخ وطلب النجدة من السلطان أبي عنان المريني يقول :-

خليفةَ اللهِ ساعدَ القدَرُ عُلاك ما لاحَ في الدجى قمرُ
وجهكَ في النائبات بدرُ دُجىً لنا وفي المحل كفك المطرُ (3)

إن ابن الخطيب لم يجد أجمل من تشبيه وجه أبي عنان بالبدر الساطع في ظلمةالليل ، ولم يجد أفضل من المطر ليدلل به على عطاء هذا السلطان في أحلك الظروف وأصعبها ، كل تلك مشاهد من الطبيعة أحسن الشاعر توظيفها للتعبير عن هدفه ومبتغاه .

وكان من الطبيعي أن يصف شعراء غرناطة جيوش المسلمين بفرسانها وخيولها ورماحها ، وكثيرا ما شبهوا الكتائب بالبحر ، والأسنة بالبرق ، والخيول بالريح ، فها هو ابن

---

(١) ابن الخطيب ، ديوان الصيب والجهام ، ص ٦٦٠.
(٢) ابن الجياب ، الديوان ، ص ١٧٤ .
(٣) ابن الخطيب،ديوان الصيب والجهام ، ص٥٤٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الجياب يصف الجيش الذى فتح حصن أشكر(١) قائلا :-

في عسكر كالليّل أو كالسيل أو كالبحر يزحف بالعباب المفرق (٢)

وفي المناسبة ذاتها ينظم أبو زكريا يحيى بن هذيل أبياتاً شكلت فيها عناصر الطبيعة مشهدا حربيا مفصلا بدقة تعج فيه السماء بالأسنة كأنها الشهب ، وتتعالى فيه أصواتها كأنه صوت الرعد ، وحركة هذه الأسنة وسط بحر النقع تزينه وتنمنمه مزخرفة كما تنمنم البُرد :-

بعيني بحر النقع تخت أسنّةٍ تُنمنمُه وهنا كما تنمنم البردُ
سماءُ عجاج والأسنة شهبها ووقع القنا رعد إذا برق الهندُ
وظنوا بأن الرعدَ والصعقَ في السما محاقٌ به من أيدهِ الصعقُ والرعدُ (٣)

ويرى ابن الخطيب جيوش المسلمين وجموعهم سيولاً تزحف ، والكتائب كأنها البحر في اندفاعها ، والخيول كأنها الريح في سرعتها ، والأسنة بروق في لمعانها، وطبول الحرب رعود في وقعها ، يقول :-

في عسكر لجبٍ كأن جموعه فوق الوهاد إذا زحفن سيولُ
كالبحر إلا أنهن كتائبٌ و الريح إلا أنهن خيولُ
والبرق إلا أنهن أسنةٌ و الرعدِ إلا أنهن طبولُ (٤)

كما وصف الشعراء فرسان المعركة الشجعان بالأسود التي تسرع إلى ساحة الوغى كأنها جبالٌ تتحرك ، فإذا ما سحبوا دروعهم فكأنما تسحب البدور الطوالع السحب ، وتشبيه الفارس الشجاع بالأسد تشبيه مألوف استحسنه شعراء غرناطة كغيرهم من الشعراء ، وفي هذا يقول ابن الخطيب :-

وكتبتَ من أسْدِ الحفاظِ كتائبا إذا ثوّبَ الداعي أتتهُ تسارعُ(٥)

---

(١) حصن أشكر : أشكر تابعة لمملكة غرناطة ، وهي من أعمال بسطة . المقري ، نفح الطيب ، ج٨ ، ص٤١ .
(٢) ابن الجياب ، الديوان ، ص ٣٤٩ .
(٣) المقري ، نفح الطيب ، ج٨ ، ص ٤١ .
(٤) ابن الخطيب ، ديوان الصيب والجهام ، ص ٥٦٦ .
(٥) ابن الخطيب ، السابق ، ص ٦١١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إذا سحبوا ذيل الدروع إلى الوغى كما تسحبُ السَّحبَ البدورُ الطوالعُ
تحركتِ الأجبال واشتعل الفلا وزلزلَ من هذى البسيطةِ وادِعُ (١)

ولابن الجياب أبيات يشبه فيها فرسان الجيش أيضا بالأسود في قوتهم ، فطالما ركبوا الخيول المسرعة وانطلقوا لملاقاةِ عدوهم صباحا ومساء دون كلل أو ملل :-

أسدٌ ضراغمُ فوق خيلٍ ترتمي نحو العدوِّ سوانحاً وبوارقاً (٢)

أما أبو البقاء الرندي فيصف كتيبة من كتائب المسلمين بأنها روض المنايا ، والرايات المرفوعة فوق هاماتهم أزهاراً ، وعبر عن ذلك بقوله:-

روضُ المنايا قضبها الشمس التي من فوقها الرايات كالأزهار (٣)

ولم يفت ابن الخطيب أن يصف أسطولاً جهزهُ السلطان أبو الحجاج مستعينا بوصفه له بعناصر الطبيعة من ريح ورياض وغربان وسحب ، فقد شبه فرسان هذا الأسطول بالأسد والليوث، وقال مؤكدا على دور عزيمة ممدوحه القوية في ثبات هذا الأسطول ونصره :-

زجرتَ بها الأسطولَ يبتدرُ العدا ويمضي إلى ما اعتاده من فعالِهِ
إذا ساعدتها هبةُ الريح أسرعَتْ كما انساب أيمِ الروض غِبّ انسلالِهِ
وغربانُ أثباجٍ زَجَرْتُ سنيحَها ويظهر نجحُ الأمر في حسن فالِهِ
سحابٌ إذا تهفو بروقُ صِفاحِهِ هما عرضٌ هَجْمٌ بودق(٤) نبالِهِ
وغِيلُ ليوثٍ غابُه من سلاحِهِ وآسادُهُ يوم الوغى من رجالِهِ (٥)

ومن جميل قوله في تحقيق هذا الأسطول للنصر ، تشبيهه إياه بروضٍ سُقِي بفرحة الانتصار ، فالتفت أغصانه من الرماح ، واخضرت أوراقه من النصال ، ومن الغريب أن يشبه

---

(١) ابن الخطيب ، ديوان الصيب والجهام ، ص ٦١١ .
(٢) ابن الجياب ، الديوان ، ص ١٨٩ .
(٣) عنان ،محمد عبد الله ، (١٩٧٦م) ،الرندي : شاعر رثاء الأندلس ، ص٥٦ ، بيروت : مؤسسة الرسالة .
(٤) ودق المطر : قطر ، وأودقت السماء : أمطرت . ابن منظور ، لسان العرب، مادة وَدَقَ .
(٥) ابن الخطيب ، ديوان الصيب والجهام ، ص٥٦٣- ٥٦٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الشاعر هذه الأدوات القاسية التي لم تُصنع إلا للقتل والسفك بمشهد من أرق وأجمل مشاهد الطبيعة إذ يقول :-

وروضٌ سقاه النصر صوبَ غمامه ... ودارتْ عليهِ مفعماتُ انسجالِهِ
فأغصانه ملتفة من رماحِهِ ... وأوراقه مخضرَّةٌ من نصالِهِ (١)

ولابن زمرك أبيات تحمل المعاني نفسها تقريبا ، فالسفن كأنها الغربان في البحر ، وفرسانها أسود ، كما يشبهها أيضاً بدوح يزهر بالأسنة ، ويطلب في هذه الأبيات من عميد الروم أن يستعد للقاء هذا الأسطول وهذا الجيش ، وينصحه بألا يزجره حتى يأمن عواقبه ، ولا عجب في تشابه الصور والمعاني فابن زمرك تلميذ ابن الخطيب :-

ولا تزجر الغربانَ في البحر إنها ... سفائن والبحرُ المذلّلُ حاملُ
ولكنها واللهُ يُنجزُ وعدَهُ ... جوارٍ بآساد الرجال حوامِلُ
ومخضّرةُ الأرجاء في جنباتها ... مسارحُ تحميها الرماح الذوابلُ
ترى الدوحَ منها بالأسنةِ مُزْهراً ... إذا ما سقتهُ للسيوفِ الجداولُ (٢)

وقد عبّر ابن الخطيب عن فرحة الأسلحة ذاتها بقيامها بعمل جليل مقدس في ظل الإسلام وكأنها نبات اخضرّ عوده بالهدى والإيمان ودين الحق ، وكان فيما مضى يصوح نبته من ضلال الكفر والطغيان ، وفي هذا يقول :-

أضحى الضلالُ بها يصوحُ ونبتُهُ ... واخضرّ من دين الحنيفة عودُهُ (٣)

وكثيرا ما عمد الشعراء إلى التأكيد على قوة الفاتح ، وقدرته الحربية من خلال الحديث عن مناعة الحصن المفتوح ، فها هو السلطان أبو الحجاج يفتح حصن آستبَّه (٤) الذي يزاحم النجوم منعة وعلواً بعزيمة قوية ، كأنها هضابٌ شمٌ كادت تزول خنوعا وخضوعاً لسيطرته،

---

(١) ابن الخطيب ، ديوان الصيب والجهام ، ص ٥٦٤ .
(٢) ابن زمرك ، الديوان ، ص ٤٥٧ .
(٣) ابن الخطيب ، ديوان الصيب والجهام ، ص ٤٢٢.
(٤) حصن آستبة ، وآستبة : مدينة قديمة تقع قرب مقاطعة اشبيلية ، ولما فتح أبو الحجاج معقل بني بشير ، جرف حصن آستبة ، عام ٧٤٣ هـ ، وهو حصن معروفة بالمنعة والقوة. المقري ، نفح الطيب ، ج٢، ص٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فقد أذاق عدوه موتا زؤاماً ، ولم يتراجع عن هذا الثغر المنيع إلا بعد أن ترك سماءه غباراً من شدة المعركة ، وأنهاره سيول دماء من كثرة القتلى ، فقال مصورا طبيعة المكان الذي دارت فيه المعركة:-

ورميْتها بعزيمة نصْرية ... كادت لها شُمِّ الأنوفِ تزولُ
ومصامُ عزٍّ للنجوم مزاحمٌ ... ما لا ستباحةِ ما حواهُ سبيلُ
أحميتَ ثغرتها بسهم عزيمةٍ ... تَذرُ الأبيَّ الصعب وهو ذليلُ
وتركتَ سحبَ النقع في أفاقيها ... تسمو وأنهار السيوف تسيل (١)

ومثلما يُشاد بالنصر ، تُبكى الهزيمة ، فقد أحسَّ المسلمون في المشرق والمغرب بالحزن الشديد بسبب هزيمة المسلمين في طريف (٢) ، وها هو ابن الخطيب يُعمم هذا الحزن على البسيطة كلها قائلا :-

لا كان يومك يا طريف فطالما ... أطلعت للآمال بَرْقاً خُلَّبا
ورميْتَ دين الله منك بفادحٍ ... عمَّ البسيطة مشرقاً أو مغربا (٣)

وأجمل تقدير يقدمه ابن الخطيب لشهداء المعارك هو إحساس الطبيعة بهم ، فقد جعل الرياح تتأثر بعبق كلوم الشهداء ، وتطيب كلما مرت فوق أجداثهم ، فأي تقدير أجمل من هذا وأرق ؟ يقول الشاعر:-

تمرُّ الرياحُ الغفلُ فوقَ كلومهم ... فتعبِقُ من أنفاسِها وتَطيبُ (٤)

ورسم بعض الشعراء لأعدائهم صوراً وتشبيهات ، أجمعت في معظمها على تشبيههم بالكلاب للانتقاص من شأنهم ، فهذا ابن الجياب يقول :-

---

(١) ابن الخطيب ، ديوان الصيب والجهام ، ص ٥٦٧ .
(٢) طريف : وقعة طريف ، حدثت يوم الاثنين سابع جمادى الأول سنة واحد وأربعين وسبعمائة ، ومات فيها والد لسان الدين بن الخطيب وأخوه . المقري ، نفح الطيب ، ج ٧ ، ص ١٢ . وهذه المعركة معروفة عند الإسبان بمعركة (Rio salado) باسم النهر الذي وقعت بالقرب منه .
(٣) ابن الخطيب ، ديوان الصيب والجهام ، ص ٢٥١ .
(٤) ابن الخطيب ، السابق ، ص ٣٢٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فلا يضــق الإســلام صــدراً وأهلــه فحــالُ كلاب الــروم إذا ردّدْت نبحــا (١)

ويقول ابن الخطيب في مثل ذلك:-

كلبــت كلاب الــــروم مـــــن أيامــه فــالأرض منها في ضـــــرامٍ مــشعــلِ
وأتــت بما جــمــعــتــه من أحزابها كالسيل يخــبُــطُ جُنــحَ لــيــلٍ أليلِ (٢)

وقد يحلو لابن الجياب أن يشبه الأعداء بالخنازير لتحقيــرهم وللدلالــة علــى بلادتهــم فيقول:-

يَــذَرُ الخنازير الخبــائــثَ طــُعْــمَــةً وسط الــفــلاةِ لــذئــبــهــا والأجدل (٣)

وفي تصوير الأعداء بعد الهزيمة يشبه ابن الخطيب الصرعى والقتلــى مــنهم بوليمــة جاهزة للحيتان والطيور والضياغم للانقضاض عليها فقال :-

صــرعـــى على عفــر الرمال وليمةٌ للحوت أو للطيــر أو للــضــيــغــم (٤)

وبهذا تكون الطبيعة بعناصرها -الصامتة والصائتة- قــادرة علــى أن تمتــزج بشــعر الجهاد، ويجد هذا الغرض من الشعر ضرورة حتمية للاستعانة بهذه العناصر لينســج الشــعراء صورهم ، ويعقدوا تشبيهاتهم لتصبح اللوحة أكثر وضوحاً، والمشهد أقرب إلى الحياة الواقعية .

---

(١) ابن الجياب ، الديوان ، ص ١٩١ .
(٢) ابن الخطيب ، ديوان الصيب والجهام ، ص ٢١٨ .
(٣) ابن الجياب، الديوان ، ص ٤١٨ .
(٤) ابن الخطيب ، ديوان الصيب والجهام ، ص ٥٨٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصـــل الرابـــع

الخـــصـــائـــص الفـــنية لشـــعر الطـــبيـــعـــة

في ظل بني الأحـــمر

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أولا : – اللغة والأسلوب :

ترك لنا شعراء غرناطة أدبا جيدا يعكس ثقافتهم وحضارتهم ، ويصور إلى حد كبير جوانب دقيقة متعلقة بحياتهم ، وهذا شأن الشعر في كل زمان ومكان ، إذ ليس من العيب أن يتناول هذه الأمور والتفاصيل ويعبر عنها ، فهذا لا يطيح به من القمة أبدا كما قال الدكتور محمد الشريف قاهر : "وإذا عدنا إلى الشعر في ذلك العصر ، نجد أن له نصيباً ، في كل غرض تناوله النثر ، وهكذا نرى الشعر ينزل من القمة إلى صغائر الأمور ، وتوافه الأشياء ؛ كوصف فاكهة ، وزجاجة عطر ، وتقريظ كتاب، وحفلة إعذار وختان .. " (١) .

لقد زخر القرنان الثامن والتاسع بالشعراء ، ولكنهم لم يكونوا شعراء متخصصين فقط في قرض الشعر دون سواه ، فابن الخطيب وابن الأحمر وابن زمرك كلهم كانوا شعراء وكتابا في وقت واحد ، وقد تتعدى شهرة بعضهم ككاتب شهرته بالشعر ، وقد عُرف عن الأندلسيين منذ عصور الازدهار كلفهم بالشعر خاصتهم وعامتهم ، وطلاقة ألسنتهم فيه قولا ورواية (٢) .

ولغة الشعر منذ القدم محفوفة بعناية النقاد والدارسين ، فهي لغة فنية ينبغي لها أن تصل إلى معان خاصة بشيء من الرمز أو الإيماء أو الإشارة " (٣) ، والألفاظ هي التي تشكل اللغة ، بل هي "أوعية للمعاني " (٤) .

وقد مال شعراء العصر الغرناطي إلى تخير الألفاظ السهلة ، ونسج الصور الحضرية ، وتجسيد المعاني التي سادت في عصرهم ، حتى وصل لنا شعر كانت لغته ترتبط ارتباطا وثيقا بالغرض الذي عبّرت عنه ، فبينما هي ترق كل الرقة في مواضيع الغزل والطبيعة والرثاء والحنين إلى الوطن ، تقسو كل القسوة في مواضيع الجهاد والهجاء ، أما في موضوعات المدح والفخر فمن الطبيعي أن تنبض الألفاظ بالقوة والجزالة ، وهذا ما عبّر عنه الجرجاني بقوله :- "ولا آمرك بإجراء أنواع الشعر كله مجرىً واحداً ولا تذهب بجميعه مذهب بعضه ، بل أرى لك

---

(١) ابن الخطيب ، مقدمة ديوان الصيب والجهام والماضي والكهام ، ص ١٢٤ .
(٢) الطرابلسي ، حياة الشعر في نهاية الأندلس ، ص ٨٣ .
(٣) السامّرائي ، ابراهيم ،(١٩٨٤م)٠ لغة الشعر ، ص٣ ، عمان : دار الفكر .
(٤) الجرجاني ، عبد القاهر ،(ت٤٧٤هـ) ٠دلائل الإعجاز ، ص٤٣ ، (تحيقيق محمد رشيد رضا) ، دار المعرفة ، بيروت ، ١٩٨١م .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أن تقسم الألفاظ على رتب المعاني ، فلا يكون غزلك كافتخارك ولا مديحك كوعيدك ، ولا هجاؤك كاستبطائك ..." (١) .

وشعر الطبيعة في عصر بني الأحمر يشبه إلى حدّ كبير شعر الطبيعة في العصور السابقة ، فقد اتسم بالرقة واللين والعذوبة ، وتميز بالسهولة والوضوح ، والبعد عن التعقيد ، فألفاظه لطيفة لها قدرة فائقة على تجسيد الانفعالات مع الطبيعة ، وعلى رسم لوحات موشاة بالألوان ودافئة بالمشاعر ، وعذبة ترن فيها الموسيقى الشعرية ، ويصدح فيها النغم الموسيقي حتى يستحيل عليك أن تميز فيما إذا كان هذا الشعر من صميم قلب الشاعر أو هو أنشودة الطبيعة التي تظله بظلالها .

ومما لا شك فيه أن الظواهر الأسلوبية لهذا الشعر كانت قد استفادت كثيرا من الموروثات المشرقية والأندلسية السابقة ، ولكن هذا لا ينفي محاولات جاهدة من الشعراء الغرناطيين للتجديد والابتكار ، ولكن هذه المحاولات لم تكن مفصلية إذا ما قورنت بغيرها في عصور أندلسية سابقة ، وقد تعددت أشكال ظهور شعر الطبيعة عند شعراء غرناطة ، فبينما هو في معظم الأحيان عبارة عن مقطعات شعرية متناثرة بين طيات دواوين الشعراء ، إذ يظهر في أحيان أخرى قصيدة كاملة منفصلة ، وهذا ما يقع عليه الدارس لديوان ابن خاتمة ففيه قصائد هي أقرب ما تكون لهذا الغرض فقد نظمها أساساً للتنبيه على مواقع الجود والنعماء ، وهو لن يحقق هذا الغرض إلا إذا وصف الطبيعة واسترسل في ذكر جمالياتها ، ولم يحتج الشاعر إلى أي نوع من أنواع المقدمات ، فقد ولج إلى غرضه مباشرة (٢) .

وقد عمد بعض الشعراء إلى اعتبار شعر الطبيعة مقدمة لقصائدهم ، مستعيضين بذلك عن المقدمة الطللية ، فهذا ابن الجياب يستهل قصيدته التي يهنئ فيها الوزير أبا عبد الله بن الحكيم بعيد الفطر ، بمقدمة يصف فيها طبيعة الأندلس الجميلة فيقول :-

---

(١) الجرجاني ،علي عبد العزيز القاضي ، (ت٣٦٦هـ)٠ الوساطة بين المتنبي وخصومه ، ص٢٣، (تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم و علي محمد البجّاوي) ، طبع عيسى البابي الحلبي ، القاهرة ، ١٩٥١ م ٠

(٢) ابن خاتمة ، الديوان ، ق١: ص ٢٩ – ٣٠ ٠ ق٢: ص ٤١ -٤٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

حلّت الشمس برأس الحملِ ... واكتسى الروضُ بديع الحللِ
فكل تلعةٍ غُصنُ تقا ... يتثنّى كتثني الثملِ
وبكلِّ ربوةٍ ناجمةٍ ... من جَنيِّ زهرهِنّ الخضلِ (١)

وتتوالى الصور الجميلة في قصيدة ابن الجياب في تتابع لطيف إلى أن يخلص إلى غرض المدح ، ووصف الطبيعة هنا لم يأت مستقلا بذاته بل هو مقدمة لغرض شعري ، وهذا ما يبرّر تشابه المعاني والألفاظ التي استخدمها ابن الجياب في هذه المقدمة ، فهو ليس بشاعر طبيعة يرنو إلى التميز والبروز في هذا الغرض دون غيره ، بل إن هذه المقدمة هي مقدمة عابرة للولوج إلى غرضه في المدح ، ومع ذلك فإنها تنم عن دقة وصفه ، وإتقانه لتصوير محاسن الطبيعة .

ولم تكن المقدمة في وصف الطبيعة مقتصرة على الولوج إلى غرض المدح، فقد ابتدر الكثير من الشعراء الغزليين قصائدهم بها ومن ذلك ما جاء في كثير من قصائد ابن الخطيب وابن خاتمة وابن زمرك والشاعر الملك يوسف الثالث .

ومما يمكن الوقوف عنده قصيدة جميلة لابن خاتمة الذي حاول أن يدرج غرضه الأصلي من القصيدة وهو الغزل ، على مِهادٍ متقن الصنع من وصف الطبيعة ، إذ يقول في مطلع هذه القصيدة :-

إذا أنيتَ أثَيلاتِ الحمى فقِفْ ... وعُج يميناً تجاه الروضة الأنُفِ(٢)

ويعرج على الروضة الأنُف ليصفها مسترسلاً ومفصّلا في كل ما يبعث الجمال فيها حتى وصل إلى غرضه في التغزل بوصف الحسان المصونات حيث يقول :-

روضٌ وشتْهُ يدُ الإبداع فانتظمتْ ... فيه المحاسنُ من بدْءٍ إلى طرَفِ
قد صنَّفَ الحُسنَ منه كل متَّفقٍ ... وألف السعد منهُ كلَّ مختلفِ
ما شئت من قمرٍ سعدٍ ومن كرَمٍ ... رغدٍ ومنْ حسّب عدٍّ ، ومنَ تَرَفِ
وفي القباب ظباءٌ زانها خَفرٌ ... تستوقف الطرفَ بين اللين والهيف (٣)

---

(١) ابن الجياب ، الديوان ، ص ٣٧٢ – ٣٧٣ .
(٢) ابن خاتمة ، الديوان ، ص ٦٣ .
(٣) ابن خاتمة ، السابق ، ص ٦٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

حتى حين انتقل الشاعر إلى التغزل بالحسان المصونات ، عاد فجاوزهن إلى الريـــاض مرة أخرى ، فبين ربوعها أيامه الطيبة وذكرياته التي ما زالت ماثلة في قلبه ووجدانه ، فإذا ما تجول فيها وتنسم نسيمها ، واستظل في أفيائها ، انتعشت ذاكرته ، وردت الحياة في أوصاله من جديد ليقول :-

وروضـــــة قد وطئـــنا من رياحينها ... فُـرشـــاً وظلـــنـــا مـــــن الإظلالِ في لُحُفِ
أرْختْ علينا ســـتوراً مـــن خمـــائِلِها ... قـــد طـــرِّقتْ بأفانيـــنٍ مـــن الـــطـــــــرَفِ
وللـــغـــصـــونِ اعتناقٌ تحتَ ذيْلِ صَبَا ... نســـيمـــها كـــاعتـــنـــاق الـــلامِ والألـــــــفِ
قـــد ســـاجعَ الطيرَ ترجيعُ القيَان بها ... وساجَلَ القضبَ رقصُ الأعـــطـــفُ الـــلطُفِ (١)

أما الملك الشاعر يوسف الثالث ، فله بيتان من الشعر يبتدر بهما مقطوعة في الغـــزل ، ويستعرض فيهما بعض أجمل مشاهد الطبيعة الجميلة من حوله ، ثم يسترســـل فـــي النســـيب ، يقول:-

ســـلامٌ كـــما انشقَّ الكمام عن الزّهر ... ولاح ضـــياء الشـــمس في وضحِ الفجرِ
وبلّت سحاب المزن أذيال روضـــــةٍ ... فهبت علـــيهـــا الـــريح عـــاطـــرة النشْرِ
أخصّ به من حرّم الصـــــون ذكـــره ... وإن كـــنتُ طـــول الدّهر منه على ذكرِ (٢)

ولابن الخطيب أبيات يصف فيها ضغث (٣) ريحانُ جعلت وسطه نوارة بيضـــاء ، ثـــم يـــشـــبه هـــــذا المشـــهد الجميل بمشهد فتاة جاءها كتاب بشكوى الحب من غيرموعد :-

ودرة نـــورٍ فـــي غلاف زبـــرجـــدٍ ... كمـــا لاح في الخـــضراء لألاءُ فـــرقـــدِ
كـــأن فـــتـــاة جاءها مـــن خلـــيـــلها ... كتابٌ بشكْوى الحبِّ من غير مـــــــوعدِ
فلفـــت بمخضـــر البـــرود بـــنـــانها ... بروراً و إجـــلالا عـــن الـــلمس باليدِ (٤)

---

(١) ابن خاتمة ، الديوان ، ص ٦٣ .
(٢) يوسف الثالث ، ديوان ملك غرناطة ، ص ١٨٠ .
(٣) ضغث : كل ما جمع وقبض عليه بمجمع الكف ونحوه. ابن منظور ،لسان العرب ، مادة ضَغَثَ .
(٤) ابن الخطيب ، ديوان الصيب والجهام ، ص ٣٩٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وتعد هذه الصورة من الصور البديعة التي ابتكرها ابن الخطيب ، وهذا يؤكد أن الطبيعة التي تدهش البشر بجمالها ، تنعش الإلهام في عقولهم ، وتطلق ألسنتهم للتغني بها ، والتعبير عن مفاتنها بكل عشق وإقبال .

ومن الشعراء من يلج إلى غرض الخمر ووصف مجالس الأنس مستهلاً قصيدته بمقدمة في وصف الطبيعة ، فهذه المقدمة تبدو مناسبة تماما لهذا الغرض لأن مجالس الأنس واللهو وتعاطي الخمر لا تحلو للأندلسيين كما يبدو في أشعارهم إلا بين ربوع الطبيعة الغناء ، فهذا ابن زمرك يستهل قصيدة له بوصف الصباح الجميل وهو يطرد عتمة الليل ، وكأن النهار نهرٌ سال من فوق البطاح وسيطر على الكون ، ثم يطلب الشاعر الخمرة ليباكر بها هذا الصباح المشرق في هذا الروض الجميل ، فهو يرى أن لا شيء سيزيح الهم عن قلبه إلا راح فوق راح ،وقد عبر عن هذا كله بصبوحية جميلة قال فيها :-

لاح منشور الصباحِ ... مستطيراً في النواحِ
وغرابُ الليلِ منهُ ... طارَ مقصوص الجناحِ
لا تخل درّ الدراري ... في الدَّجا بالمستباح
أيهما نهرُ نهارٍ ... سال من فوق البِطاحِ
عزفت فيه الجواري ... ما خلا البدرِ الليالي
صاحبي والروض يُهدي ... طيبَ أنفاسِ الرياحِ
قد بكتْ فيه غَمامٌ ... أضحكت ثغرْ الأقاحِ
باكر الروضَ اصطباحاً ... بنشاطٍ وارتياحِ
ما أرى يجلو همومي ... غير راح فوق راحِ (١)

ولابن خاتمة رائية جميلة يبدأها أيضا بمقدمة في وصف الطبيعة ليخلص إلى ذكر مجالس الأنس ويستقر عند غرضه في الغزل ، وهي من قصائده الرائعة التي تصف الطبيعة في إبان الربيع ، وقد ازينت الأرض بأحلى حللها وأجمل ألوانها، وصدحت فيها أصوات الطيور المغردة طرباً وحيوية :-

---

(١) ابن زمرك ، الديوان ، ص ٢٧٤ – ٢٧٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

حيّا الربيعُ بنرجسٍ وبهارِ ... فاردُدْ تحيته بكأسِ عُقارِ
لا تجْنِ زهرته لغير سُلافةٍ (١) ... تصريفَكَ الدينارَ بالدينارِ
وأنفْ لأيام الربيع وفضلها ... فضلا سِوى في الكاسِ والأوتارِ
أوَ ما تَرى وجه الزمان قد اكتسى ... كعذار آسٍ أو كآسِ عذارِ
والأرض قد لبسَتْ مطارفَ نبتها ... وتوشحت بصوارم الأنهار
والدوحُ أمثالُ المنابر فوقها ... خطباءُ بالإسْحارِ في الأسحارِ (٢)

وينتقل ابن خاتمة إلى وصف الخمر ومجالس الأنس ، وينتهي إلى غرضه في الغزل قائلا:-

فاقدح رثاء الكأس على لَهبيّة ... تُغشى ظلامَ اللّيلِ ضوءَ نهارِ
ولتجلها بدراً على بدرٍ لدى ... بَدرٍ ، تَفُزْ بثلاثة أقمارِ ! (٣)

وقد اختار ابن زمرك أن يستهل إحدى إخوانياته (٤) بمقدمة في وصف الطبيعة كما رآها في جبل الفتح ، ثم يبث بشرى نبأ برء مولاه الغني بالله من مرض كان قد ألمّ به فيقول:-

أبثّك أنّا في ذوائبِ شاهِقٍ ... تُلاثُ عليها للبروق ذوائبُ
يموجُ بها بحرُ الهواء كأننا ... على بحرِ ماءٍ موجُهُ متراكبُ
مساحبُ أذيالِ السحائبِ تحتها ... وفيها لأذيالِ الرياحِ مساحبُ
إذا سجدت زهَرُ النجوم لربها ... ففيها إلى زهر النجومِ محَاربُ
وفيها لها عند الشروقِ مطالعٌ ... ومنها لها عند الأفول مَغاربُ (٥)

وفي مقابل ذلك كله تنعكس صورة ظهور شعر الطبيعة في قصائد الشعراء الغرناطيين ، فكثيرا ما لجأوا إلى الوصول إليه مستعينين بمقدمات غزلية ، أو خمرية ، أو بوصف مجلس من

---

(١) السلافة : الخمر أول ما تعصر ، أو ما سال من غير عصر ، أو أخلفها وأفضلها . ابن منظور ، لسان العرب، مادة سلف .
(٢) ابن خاتمة ، الديوان ،ص ٧٦ .
(٣) ابن خاتمة ، السابق، ص ٧٦ .
(٤) أي القصائد بين الإخوان والأصدقاء ، وهي كثيرة في الديوان ينظمها ابن زمرك لإخوانه في مناسبات عديدة إما للسؤال عن أحوالهم ، وإما لمعاتبتهم ، أو لإعلامهم بعض أخبار الدولة . انظر حاشية ديوانه ، ص ٢٩٢ .
(٥) ابن زمرك ، السابق ، ص ٢٩٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مجالس الأنس ، أو بوصف شعبانية (١) ، ويتضح ذلك في قصيدة لابن زمرك يهنيء فيها مولاه الغني بالله بإبلال من مرض ، وقد استهل الشاعر قصيدته بالنسيب قائلا :-

عسى بارقٌ من باسم الثغر يلمع ... وشمس ضُحىً من مرقب الحذر تطلعُ
تردَّ لنا بعد المغيب ولم نَقُلْ ... أحلماً نرى أم كان في الرَّكبِ يوشَعُ (٢)

ويتابع مقدمته الغزلية محسنا التخلص إلى شعر الطبيعة قائلا :-

خليلي ما للروض ِ يبسم زهرُه ... فعَرْفُ الصَّبا من طيبه يتضوعُ
وأيقظ جفن الزهر في الفجر نسمةٌ ... تُروّي حديث الطيبِ والروضُ يسمعُ

أما ابن الخطيب فيرى أن الخمرة لا تدار إلاّ في روض جميل كهذا الروض الذي تتلون فيه الطبيعة بصبحها ، وتندى بطلّها ، وتشفي العليل إذا ما كحّل ناظريه بحسنها :-

أدرها فوجه الصبح ِ قد كادَ أنْ يبدو ... وفي كلّ غصن ٍ ساجعٌ غَرِدٌ يشدُو
وخدها على آس ِ الرياض ِ ووردِه ... فهذا عِذارٌ للرياض ِ وذا خَدُّ
كأن سقيط الطلِّ في الروض والصَّبا ... تهاداهُ طفلٌ والخزامى له مَهدُ
كأن لِطافَ القضبِ من فوق وَرْدها ... مَراودِ تستشفي بها أعيُنٌ رُمْدُ
كأن نضير الغصن ِ جيدٌ منعَّمٌ ... يَرفُّ من الزهر الجنيِّ به عقدُ (٣)

وهذا ابن خاتمة يبدأ قصيدة له بذكر الكؤوس لكنها (كؤوس الرضا) على طريقة شعراء الصوفية من إدارة الكلام على الخمرة وأوصافها ، ثم ينتقل إلى ذكر بعض محاسن الطبيعة الدالة على خلق الله وإبداعه وعظمته جل جلاله ، فيقول مستهلا :-

أدِرْ كؤوس الرضا ناراً على عَلَم ... لا خيرَ في لذةٍ خيراً لمكتتم (٤)

---

(١) احتفال لطيف كان يقيمه الأندلسيون لتوديع شهر شعبان واستقبال رمضان .
(٢) نبيٌ ردت عليه الشمس حتى يهزم أعداءه وهو يوشع بن نون فتى موسى ، وابن زمرك يضمن في البيت هذا المعنى . ابن زمرك ، الديوان ، ص ١٩٤ .
(٣) ابن الخطيب ، ديوان الصيب والجهام ، ص ٤١٢ .
(٤) ابن خاتمة ، الديوان ، ص ٣٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ثم يتخلص من هذه المقدمة إلى وصف محاسن الطبيعة قائلا :-

قـــم هاتِها فرياض الكون قد جُليت ... وقام للحُسْـن ترتـــيـــبٌ على قـدَمِ
ولاحـــت الـــشـــهبُ كالأكواس دائرةً ... تغريـــك بالـــشـــكـــر من صهباءِ حبِّهمِ
وساجَلَتْ أدمع السحبِ الحمام بكـــاً ... على الرياض فأضـــحى جدَّ مبتســمِ (١)

وقد رأى ابن خاتمة أن يصف جمال الطبيعة من حوله بعد مقدمة كان قد بـــدأها بتـــذكر ليلة أنس ملأت عليه نفسه ، فقد عاد بذاكرته إلى أطياف تلك الليلـــة مفصـــلا مزاياهـــا (٢) ثـــم استرسل في وصف الطبيعة التي احتضنت ليلته تلك وذكرياته وآمالـــه ، فقد انطبعـــت مشـــاهد الطبيعة في مخيلته كالوشم ،وتراءت له ماثلـــة بوضوح فوصفها قائلا :-

بتـــنـــا بها في رياضِ الأنسِ في دعَةٍ ... نجنـــي قطوف الأمانـــي مـــنـــه آمـــالاَ
إلى أن استدبرَ الشرق الهلال ســـرىً ... عنـــه ، ولبّـــى دعاءُ الغربِ إهـــــلالاَ
وأقبل الصبحُ في جيش الصبَّا مِلكـــاً ... عَـــنـــَتْ لـــهُ سُربـــةُ الظلمـــاءِ إجـــلالاَ
كأنمـــا اللـــيـــلُ زنجـــيٌّ غدا نـــهـــلاً ... فـــي حـــمـــرةٍ من سنا الإصباحِ فاختالا
كأنمـــا الأفـــقُ كأسٌ للـــدَّجـــا جَـــمَدتْ ... بـــحيثُ ضيـــاءُ الصـــبـــحِ جـــريالا (٣)

ومن اللافت أن ابن خاتمة طوّع شعره في وصف الطبيعة ليفيد موضوع قصـــيدته فـــي تذكر ليلة الأنس تلك ، فقد أحسن تصوير انتهاء تلك الليلة بظهور بشائر الصبح ، ورسم مشـــهد الوداع بين الليل وإطلالة الصباح بدقة وبراعة تصوير .

وينتهز الشاعر ذاته قصيدة له في وصف شعبانية سنية قضاها في روض مَريع ، ليعبر عن جمال هذا الروض بعد مقدمة يعرض فيها صورة حية لأيام وذكريات جميلة له في مالقـــة ، ثم يصف جمال الروض الذي شهد تلك الذكريات قائلا :-

---

(١) ابن خاتمة ، الديوان ، ص ٣٧ .
(٢) انظر القصيدة كاملة في ديوانه ، ص ٨٢ .
(٣) الجريال : صبغ أحمر ، وجريال الذهب : حمرته ، والجريال : الخمر أو لون الخمر . ابن منظور ، لسان العرب ، مادة جرل . ابن خاتمة ، الديوان ، ص ٨٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فـــي روضـــةٍ جرّ الربيـــعُ بـــهـــا	ذيل المحـــاســـنِ أيـــمـــا جَـــــرِّ
مطـــروزةِ الأدواح بالـــــزهـــــرِ	محفـــوفـــةِ الأكـــنافِ بالـــزَّهرِ (١)
تـــهدِيهـــم من نـــوْرهـــا قـــطـــعاً	ما صِـــغـــْن من ورقٍ ولا تِبْرِ (٢)

ورغم هذا التنوع في ورود شعر الطبيعة عند الشعراء الغرناطيين إلا أنه كـــان يحمـــل السمات نفسها ، ويمكن الوصول إلى هذه السمات بدراسة اللغة التي استخدموها ، فهي من أهـــم العناصر الأساسية التي يعتمد عليها الشاعر في بناء القصيدة الشعرية وتركيبهـــا ، ففـــي البنـــاء اللـــّغوي تتضح جودة الأداء الشعري ، واللغة كنز الشاعر وثروته ، وهي جنيته الملهمة ، فـــي يدها مصدر شاعريته ووحيه، فكلما ازدادت صلته بها ، وتحسسه لها كشـــفت عـــن أســـرارها المذهلة ، وفتحت له كنوزها الدفينة (٣)، وتبدو الطبيعة عند شعراء غرناطة لغة بحـــد ذاتـــهـــا فمنها لغة الحوار ، ومشاهدها أبطاله ، وإيقاع الحياة فيها والأصوات المنبعثـــة مـــن طبيعتهـــا الصائتة والصامتة مصدر إلهام يُفَتّح قرائح اللغة عند الشعراء ، وهي بالتأكيد لغة تواكـــب هـــذه الأجواء ، وتنسجم معها، وأمام ذلك كله لا يملك الشاعر الغرناطي إلا أن يشدو بقصائد ألفاظهـــا عذبة رقراقة بعيدة عن الغرابة والفحش .

وفي أبيات الشاعر ابن زمرك تبرز رقة الألفاظ وعذوبتها ، حيث كانت غاية في التألق والجمال ، فها هو يصف روضة مطلولة فيقول :-

والقضـــب مالـــت للعـــنـــاق كأنـــهـــا	وفـــد الأحبة قادميـــن مـــن الـــســـفـــرْ
متـــلاعباتٌ في الـــحُـــلِـــيِّ ينوب فـــي	وجناتهـــن الـــــوردُ حُسْـــنـــاً عن خَفَر
والنرجسُ الـــمـــطـــلـــولُ يرنو نحوها	بلـــواحـــظٍ دمـــع الذرى منها انهمَرْ (٤)

لقد نقل لنا ابن زمرك مشهدا تراءت صوره أمام أعيننا بألفاظ استطاعت رغم ســـهولتها وعذوبتها أن تثري الصور بالأشكال ، وتصبغها بالألوان .

---

(١) الزَّهرة : بالضم : البياض ، ورجل أزهر : أبيض مشرق الوجه ، والمرأة زهراء ٠ ابن منظور، لسان العرب، مادة : زهر .
(٢) ابن خاتمة ، الديوان ، ص ١٢١ .
(٣) الملائكة ، نازك ، (١٩٧١م)٠ الشاعر واللغة ، مجلة كلية الآداب البيروتية ، (١٠) ، ص١٨-٢٢ .
(٤) ابن زمرك، الديوان ،ص٤١٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وليس أدل على رقة الألفاظ وعذوبتها من أبيات شعرية كتبها ابن خاتمة في وصف جميلة تراءت له كأنها نوْر بهار ، فالألفاظ تتدفق فيها تدفق الماء العذب الزلال :-

أهلا بنور بَهار قد حَبتَكْ به ... شقيقةُ الروض في حُسنٍ وفي عَبقِ
حكى لنا طيب ريّاها ومبسمها ... فارشفه إن شئتَ أو إن شئتَ فانتشقِ (١)

وتحمل الدراسة بين طياتها كثيرا من الشواهد الشعرية الدالة على أن الشعراء الغرناطيين كانوا يسوقون لأشعارهم أرق الألفاظ وأرشقها .

ورغم البعد عن التعقيد ، وعدم استعمال الشاعر الشاذ من الألفاظ ، وغير المألوف من العبارات ، إلا أن العثور على ألفاظ ، غريبة وقديمة ، ليس مستهجناً، فقد يحدث أن يلجأ بعض الشعراء إلى استعراض مهاراتهم اللغوية ، خاصة أن معظمهم كانوا كتابا كما ذكرت الدراسة ، ويمكن التوقف عند ما جاء في أبيات ابن الخطيب وهي في الغزل الممتزج بالطبيعة ، حيث قال:-

أشارت غداة البين من خلل السَجْفِ ... بناظِرتَيْ ريمٍ وسالفتي خَشْفِ (٢)
أماطت عن الخدِّ اللثام فأطلعتْ ... هلالاً على غصنٍ وغُصناً على حَقْفِ (٣)

إن لفظتي (خشف و حقف) من الألفاظ القديمة الغريبة على البيئة الأندلسية، لكن وجودهما في شعر ابن الخطيب يبرره كون هذا الشاعر الكاتب والوزيركان ذا ثقافة موسوعية لغويّة يحاول دائما إظهارها على عدة أشكال لغوية ،كما استعمل ابن الخطيب ألفاظا غريبة مثل (جزْر و أوضام) (٤)عندما وصف خيول الأعداء وقد ضاقت عليها الدروب ، قائلاً :-

---

(١) ابن خاتمة ، الديوان ، ص ١٢٨ .
(٢) الخشْف : انظر المعنى ص٧٤.
(٣) الحقف : انظر المعنى ص٧٤ ، والبيتان عند ابن الخطيب ، ديوان الصيب والجهام ، ص ٦٢٤ – ٦٢٥ .
(٤) ذكرت معانيهما في الدراسة ، ص ٨٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فتخالهم جزراً على صهواتها وتخالها من تحتهم أوضاما (١)

ومثل ذلك ما جاء في بيت له يمدح فيه سلطانه ، ويشبهه بالبدر ، كما يشبّه الجوزاء بالقرط (المعسجد) (٢) ، وهي لفظة من الألفاظ التي لا تتناسب مع طابع العصر وإيقاع الحياة آنذاك إذ قال:-

هو البدرُ والجوزاءُ قِرطٌ مُعَسْجَدٌ وجُنحُ الليالي فرعه ودلالهُ (٣)

ولابن فركون بيت في النسيب يستعير فيه من الطبيعة أوصافاً لمحبوبته ؛ فهي الشمس التي يُستجلى سناها حتى غدا لها البدر والجوزاء كالقرط و(الدملج)(٤) ، ولفظة (دُملج) من الألفاظ الغريبة التي ابتعد عن اسخدامها شعراء غرناطة ، لكنها راقت لابن فركون فقال :-

هي الشمس يُستجلى سناها وقد غدا لها البدر والجوزاء قُرطاً ودُمْلُجاً (٥)

وفي مقابل ذلك كله يستخدم بعض الشعراء الغرناطيين ألفاظا هي غاية في السهولة ، وتعابير دارجة على ألسنة عامة الناس ، مما يجعل النص الشعري يقترب إلى الكلام العادي، وقد مر في البحث ما قاله ابن زمرك متفكها في وصف قط الدار حيث استخدم ألفاظاً مغرقة في العامية مثل(مِيَو) و(مشّ) و(حَوْ) و(إسبّ) هذا فضلا عن استخدامه لفظة (أمولاي) التي تدل على ميل الشعراء إلى الرقة والتفكه والمرح ، إذ يقول:-

أمولايَ قطَّ الدار قد بُحَّ صوته لكثرة ما قد صاح بالباب من (مِيوْ)
يُقال له (إسبِّ) من حيث ما أتى و (إسبُ) في علم القطوط كلامُ سَوْ
فهلاَّ دَعَوْهُ (مشِّ مشْ مشْ) إذا دعوْا وإن لم يقولوا (مشِّ مشْ مشْ) يُقالُ (حَوْ) (٦)

---

(١) ابن الخطيب ، ديوان الصيب والجهام ، ص ٥٨٣ .
(٢) المعسجد : الذهب أو الجوهر كالدر والياقوت ٠ ابن منظور ، لسان العرب ، مادة عسج ثم عسجد .
(٣) ابن الخطيب ، ديوان الصيب والجهام ، ص ٥٧٣ .
(٤) الدملج : حلي يلبس في المعصم ٠ ابن منظور ، لسان العرب ، مادة دمل ثم دملج .
(٥) ابن فركون ، الديوان ، ص ١٩٣ .
(٦) ابن زمرك ، الديوان ، ص ٣٤٢ – ٣٤٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أما الشاعر عبد الكريم القيسي فقد استخدم لفظة (سيدي) إذا ما أراد أن يعبث ويمرح متغزلاً بصديق له حلّق رأسه، حيث شبهه بالبدر إن أطال شعره ، وبالشمس إن قصره فهو يراه جميلا في كل أحواله إذ يقول:-

قصرّ الشعر (سيدي) أو أطله ... فمحياك لم يزل ليَ أنساَ
فإذا ما أطلته لحتَ بدراً ... وإذا ما قصرتَه لحت شمساً(١)

بينما مالَ الشاعر ابن خاتمة إلى استخدام التصغير الذي أضفى على أبياته الشعرية ظرُفاً وسهولة ورقة ، خاصة إذا ما شبّه محبوبته (بالغزيّل) حين قال :-

إيه غـُزيّلَهَ الأراك من الذي ... أغراك بي ظُلماً ، ولما ينصف ؟ (٢)

كما قال :-

غزيلٌ غزلت ألحاظه جسدي ... أرقَّ من من غزلي في لطف معناه (٣)

وقد أثر اختلاط شعراء غرناطة بغيرهم من الشعوب على ألفاظهم ، فاقتحمت بعض الألفاظ الأعجمية أبياتهم الشعرية ، وهي كثيرة ويتوقف البحث عند تلك التي استخدمها الشعراء في الغزل المبني على استخدام عناصر الطبيعة ، ومن ذلك قول الشاعر الملك يوسف الثالث واصفا حسناء ترفل بلباس القرطق (٤) حتى غدت كالغصن بين الحدائق أو كالشمس تشرق في وقت الضحى :-

نفسي فداء مقرطق ... يدنيه حسن رجائيه
كالغصن بين حدائق ... كالشمس تشرق ضاحيه (٥)

---

(١) القيسي ، عبد الكريم ، الديوان ، ص ٩١ .
(٢) ابن خاتمة ، الديوان ، ص ٧٨ .
(٣) ابن خاتمة ، السابق ، ص ٨٠ .
(٤) مقرطق : لابس القرطق وهو لباسٌ فارسي .
(٥) يوسف الثالث ، ديوان ملك غرناطة ، ص ١٦٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولفظة (مقرطق) لفظة أعجمية ومثلها لفظة (خوند) (١) التي استخدمها الشاعر ذاته للنداء على محبوبته التي تتراءى في ناظريه كأنها قمر السعد قائلا:-

فرفقاً بقلبي يا (خوَنْد) تفضّلا وجُد بالرضى ، بالله، يا قمر السعد (٢)

كما أن المتأمل في أشعار الغرناطيين يسترعيه استحضارهم ألفاظ العلوم ومصطلحاتها ، ويمكن أن تظهر هذه السمة في الأغراض الأخرى من أشعارهم أكثر مما ظهرت في شعر الطبيعة ، أو في الأشعار الممتزجة به ، ومع ذلك فهذا التأثير يبدو واضحا خاصة في مجال العلوم اللغوية ، وعلم الفلك والجيولوجيا ، أما بالنسبة لعلم اللغة فتبدو واضحة في اهتمام ابن زمرك بوصف نهر شَنِّيل مستعرضا مهارته وبراعته اللغوية بقوله :-

شنيّلها مدّ منه نيل والشين ألف لمستنيل (٣)

وهذا ابن فركون يرى الحبيبة في أجمل عناصر الطبيعة فهي كالظبي جيدا ، وكالقضيب تأوداً ، وهي بهذا الجمال ثَنَّته ملكا دون شرطٍ أو استثناء ، فأي ظرفٍ في هذا التشبيه الذي يعكس تأثرا لا يمكن إنكاره بعلوم اللغة إذ يقول :-

هي الظبي جيداً والقضيب تأوداً ثنتني ملكا دون شرطٍ ولا استثناء (٤)

وفي بيت لابن الخطيب يشبه فيه الأزهار بكل حيويتها ونضارتها وهي تخرج من ثرى جامد لا حياة فيه ، بمشتقات الألفاظ التي قد تكون أصولها جامدة لا تقبل الاشتقاق ، يقول :-

تشققت الأزهار عن جامد الثرى كذا جامد الألفاظ أصلٌ لمشتق (٥)

---

(١) خوند : كلمة فارسية معناها : المدعو والمطلوب .
(٢) يوسف الثالث ، ديوان ملك غرناطة ، ص ٤٥ .
(٣) ابن زمرك ، الديوان ، ص ٥٣٢ .
(٤) ابن فركون ، الديوان ، ص ١٢٦ .
(٥) ابن الخطيب ، ديوان الصيب والجهام ، ص ٦٤٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومن الأبيات التي تدل على تأثر الشعراء بعلم العروض ، بيت لابن خاتمة يشبه فيه غناء البلبل وترجيعه بالتنقل بين بحور الشعر فمن المديد إلى السريع وبالعكس :-

تغنى مديداً ومهما يَقُل لها بدّلي وقعتْ في السريع (١)

ومن خلال استعْراض الكثير من الأبيات الشعرية المتصلة بموضوع البحث يستوقف الدارس هذا التأثر الواضح بعلم الفلك ، فقد ذكر الشعراء النجوم والشهب ونيرانها ، والأفلاك ومركزها ، والأهلة والبدر والقمر والمحق والمجرة وغيرها ، فهذا ابن زمرك مثلا يصور الأهلّة في حالة من الخجل إذا ما قارنت جمالها بجمال شمامته التي بعث بها لمولاه إذا ما أحسن تقطيعها :-

وقوراء قرص الشمس من دون حسنها وإن قُسِّمت منها الأهلة تخجل (٢)

وهذا أبو البقاء الرندي يرى النهر محفوفاً بالزهر ، كأنه نجوم تسطع وسط المجرة قائلا:-

وأزرق محفوفٌ بزهر كأنه نجوم بأكناف المجرة تزهرُ (٣)

أما ابن زمرك فشدة إعجابه بنهر شنيل جعلته يعتمد الصورة ذاتها تقريبا:-

نهرُ المجرة والزهرُ المطيف به زهر النجوم إذا ما شئت تشبيها (٤)

وفي قصيدة لابن الجياب يصور فيها الشاعر ، الأشهب من الخيل في ساحة المعركة ، بشهاب ناره ترجم الأعداء رجماً إذ يقول :-

---

(١) ابن خاتمة ، الديوان ، ص ١٢٤ .
(٢) ابن زمرك ، الديوان ، ص ٢٦٤ .
(٣) ابن الخطيب ، الإحاطة ، ج٣ ، ص ٣٦٧ .
(٤) ابن زمرك ، الديوان ، ص ٥٠٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

من أشـــهـــب مـــثـــل الشهـــاب بناره يـــرمـــي رجـــيـــم من عـــداك مريدُ (١)

هذا فضلا عن أبيات كثيرة مرت في البحث يلجأ فيها الشعراء للسماء ليستعيروا منها ما يناسب تشبيه ممدوحيهم ومُحبيهم وأسلحتهم به ، مثل شهب وبروق ورعود ونجوم و ... إلخ .

إن اعتماد الشعراء في هذه الفترة على المصطلحات العلمية والأدبية في لغتهم ليس شاذا عن بقية شعراء الأندلس ، بل ليس شاذا منذ أن تكونت العلوم وتبلـــورت مصـــطلحاتها " فقلمـــا يخلص أديب لأدبه ، دون أن يطعمه باصطلاحات فيها علوم الاشتقاق والنحو ، وفيها الصـــرف والعروض .." (٢) .

ولا يمكن التغاضي عن تأثير بعض مظاهر الحياة الاجتماعية في شعر الطبيعـــة فهـــي الوعاء الذي احتضنها ، ودارت بين ربوعها أهم ممارستهم لها ، وبالتالي فـــإن بـــروز بعـــض المفردات في معظم المقطوعات والقصائد المتعلقة بشعر الطبيعة جدير بالاهتمام ، ومن الألفـــاظ التي تستحق الوقوف عندها؛ العُرْس ، والعروس ، فهما لفظتان كثُر تكرارهما في هذا الغـــرض الشعري ، ومرد ذلك أن وصف الطبيعة عند من اهتموا بها من الشعراء يكون دائما في جو مـــن الاحتفال البهيج ، سواء أتعلق الأمر بوصف الربيع ، أم بوصف أغلب مشاهد الطبيعـــة الحيـــة ، لذلك فهم يستعيرون لها صورة العرس بمراسيمه واحتفالاته ، أو صورة العروس في جلوتهـــا ، وقد نضت نقابها ، وأبرزت مفاتنها للناظرين ، ولابن خاتمة عاشق الطبيعة العديد من القصـــائد والمقطوعات التي يستخدم فيها لفظتي (عرس) أو (عروس) فهو يقول في أحد أبياته:-

فـــأتت كما نـــضـــــتِ العروسُ نقابَها وجلت عن الـــوجه الجميل شـــروبها (٣)

وعندما أتى ابن خاتمة على ذكر أحد عناصر الطبيعة الحية ، وهو البلبل ، ودوره فـــي بعث جو من البهجة والمرح بين أرجاء الطبيعة الصامتة ، شبهه كأنه يقيم عرسا فـــي الريـــاض فقال :-

---

(١) ابن الجياب ، الديوان ، ص ٤١ .
(٢) تاويت ، محمد ، (١٩٨٣م)٠الوافي في الأدب العربي في المغرب الأقصى ،ط١، ج٢ ،ص ٦٢١ ،الدار البيضاء : دار الثقافة .
(٣) ابن خاتمة ، الديوان ، ص ٤٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تـقـيـيـم له عرسـاً فـي الـريـا ض عـنـد الغـرُوب وعند الطلوع (١)

وهذا ابن الجياب يدعونا للتمتع بروضة كأنها جنة تجلو محاسنها كما تجلو العروس ليلة زفافها قائلا :-

في جنـة تجـلـو محاسـنـهـا كما تجـلو العروس لدى الزفاف جـمالها (٢)

أما ابن زمرك فقد رأى منظر الصباح يُجلى بحلي النجوم ، كأنه العروس تجلى ليلة زفافها ، وقد اقتنص الشاعر هذا المشهد تحديدا لما فيه من تحول حيث ينبلج الفجر وينهزم الليل أمام تباشير الصباح الأولى ورغم أننا ندرك جميعا أن الفجر آت لا محالة إلا أننا لا يمكننا التنبؤ بحدود جمالية هذا المشهد كل مرة ،تماما كما يحدث لنا ونحن ننتظر جلوة العروس ولكن أي جمال ستفاجئنا به كل واحدة منهن ؟

وكـأن الصـبـاحَ فـي الأفـق يُجلى بُـحِـليِّ النجوم مثـل الـعـروس (٣)

ومما يلفت النظر أن شعراء هذه الفترة أكثروا في ألفاظهم استخدام أسماء الأحجار الكريمة ، خاصة الثمينة منها ، وقد امتلأت الكثير من قصائدهم بهذه الأسماء من زبرجد وعقيق وياقوت ولؤلؤ ومرجان وزمردّ ... إلخ ، وهذ يدل على اهتمام المجتمع الأندلسي المرفّه في تلك الفترة بهذه الأحجار التي كانوا يستعيرون أسماءها للدلالة على جمال عناصر الطبيعة تارة، وللتركيز على إبراز عنصر اللون فيها تارة أخرى .

ولابن الجياب أبيات شعرية يصف فيها الربيع كأنه تاج رُصِّع باللؤلؤ والياقوت، يقول:-

فتـرى اللؤلـؤ والياقـوت قـد نـظـمـا فـي تـاجـه المكـلـّل (٤)

---

(١) ابن خاتمة ، الديوان ، ص ١٢٤ .
(٢) المقري ، نفح الطيب ، ج ٥ ، ص ٤٣٧ .
(٣) ابن زمرك ، الديوان ، ص ٤٣٦ .
(٤) ابن الجياب ، الديوان ، ص ٣٧٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أما ابن الخطيب فيعجبه أن يستعين بالزبرجد ليصف لنا نوارة بيضاء وسط ريحان قائلا:-

وردة نور في غلاف زبرجدٍ كما لاح في الخضراء لألاء فرقد (١)

وقد وصف ابن زمرك ثمار الكمثرى التي تشبه حقاق الزبرجد ، وشبه زهرها باللؤلؤ الذي يستحيل زمردا قائلا :-

أبنات روض أم حقاقُ زبرجدٍ في خضرةٍ شيبت بصفرة عسجدِ؟
كانت أزاهرها زواهرُ لؤلؤٍ ثم استحالت بعدها لزمرّدِ (٢)

وفي وصفه للبازي يذكر العقيق والياقوت والمرجان قائلا :-

أبدت لنا سبج العيون وطوقت أرجاءها بعقيقة حمراءِ
واشتاقت الياقوت في منقارها ومشت على المرجان في استحياء (٣)

ومن بين الألفاظ التي كان لها حضور بارز في شعر الطبيعة ، الألفاظ الدالة على الألوان ، وكان من الطبيعي أن يلجأ الشعراء الغرناطيون للألوان إذا ما وصفوا الطبيعة من حولهم ، فكل ما فيها متلّون بألوان الربيع الذي أنعش قلوبهم وقرائحهم، فتمتعوا بأمزجة معتدلة ، ونفوس ترنو إلى المرح ، وتنفتح على الطبيعة رغم كل ما مر بهم في تلك الفترة من اضطرابات وحروب لكن الطبيعة كانت تحتويهم معشوقين أو مهجورين ، فرحين أو محزونين ، قلقين أو مطمئنين ، وأشعارهم مرآة نفوسهم وفيها من الألوان ما يدل على محاولاتهم الاستمتاع بالطبيعة مهما كانت الظروف .

وهذا بيت لابن خاتمة يغري من حوله بنزهة يقضونها في رياض لبس الربيع به ثوبا من الأوراق الخضر قائلا :-

---

(١) ابن الخطيب ، ديوان الصيب والجهام ، ص ٣٩٨ .
(٢) ابن زمرك ، الديوان ، ١٩٤ .
(٣) ابن زمرك ،السابق ، ص ٣٦٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

هــلــمّ إلــى الريــاض فقــد تــردّت بــأرديــةٍ مــن الأوراق خُـــضــرِ (١)

أما ابن زمرك فقد أثارت ثمار الكمثرى في وسط الرياض شاعريته فوصــفها مســتعينا بالألوان قائلا :-

أنبــاتُ روض أم حقــاقُ زبرجَـــــدْ في خضــرة شيبت بصفَرةِ عســجدِ ؟ (٢)

وله في وصف سلة أهداها ، وفيها من الفواكه الخضراء والصفراء الكثير ، أبيات يقول فيها :-

فمخــضــرةٌ أشكالهــا مــن زبرجــدٍ ومصفرةٌ من عسجــدٍ تتــمَّـــثــلُ (٣)

وهذا بيت لأبي البقاء الرندي في وصف النهر وقد أحاطت به الأزهار من كل ناحيــة ، حيث يركز على زُرقته قائلا :-

وأزرق محــفــوفٌ بــزهــرٍ كــأنــه نــجــوم بأكناف الــمجــرةِ تــزهرُ(٤)

ولبياض الثلج ، وما يبعثه في النفس تأثير على نفسية ابن زمرك ، وقد مرّ مع مولاه(٥) بفحص ريّة (٦) ، والثلج قد عم أنديته ، وكأنه بسط أرديته منبئا بنصرٍ سيحققه مــولاه بــإذن الله في وجهةٍ توجهها وقال :-

بســط البيــاض كرامــة لقدومِـــــه وافــتــر ثــغــراً عن مسرةِ معتــن (٧)

---

(١) ابن خاتمة ، الديوان ، ص ١٠ .
(٢) ابن زمرك ، الديوان ، ص ١٩٤ .
(٣) ابن زمرك ، السابق ، ص ٢٤٦ .
(٤) ابن الخطيب ، الإحاطة ، ج ٣ ، ص ٣٦٧ .
(٥) أبو الحجاج يوسف الثاني .
(٦) هي المروج الخصبة بجانب ريّة ، و ريّة متصلة بالجزيرة الخضراء بالأندلس ٠ المقري ، نفح الطيب ، ج٤،ص٢٠٨-٢٠٩ .
(٧) ابن زمرك ، الديوان ، ص ٤٩٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وفي قصيدة طويلة لابن الجياب في وصف الخيل ، يوظف الشاعر معظم الألوان لتصوير الخيل ، فهو يذكر اللون الأصفر والأحمر والأشقر ، ويستغل لون التبر ، ولون تورد الخدود في قوله :-

أو أصفر سامي التليل كأنما ... جيدُ الغزالة منه ذاك الجيدُ
التبرُ لون والزبرجد حافرٌ ... والطرف كالمرآةِ وهو حديدُ
أو أحمرٍ راق العيون فلونه ... لون الخدودِ يزينها التوريدُ (١)

ويظهر عنصر اللون واضحاً عند ابن زمرك في وصف زرافة راق العيون أديمها ، حتى تراءت في ناظري الشاعر روضا حافلاً بالبهار ، حيث قال :-

راقَ العيونَ أديمُها فكأنّهُ ... روضٌ تفتّحَ عن شقيق بهارِ
ما بين مبيّضٍ وأصفرَ فاقع ... سال اللّجينُ به خلالَ نُضارِ (٢)

ويميل بعض الشعراء إلى اعتماد عنصر اللون ، بألفاظ تدل على الألوان ، وترتبط بها ارتباطا وثيقاً ؛ مثل الياقوت والعقيق والمرجان والتبر أو العسجد ، حيث يمكن للشاعر التعبير عن لون معين مستخدما هذا اللفظ ؛ مثل ارتباط اللون الأحمر بالعقيق ، والأصفر بالذهب ، أو قد يحلو للشاعر أن يوحي بلون الحمرة من تورّد الخدود ، أو لون الصفرة من شحوب وجه عاشق أضناه الحب أو من ذكر ثمرة كمثرى ناضجة ، أو قد يلوّن قصيدته بالنور والضوء والإشراق إذا ذكر الصباح ، ويمكن أن يُقتمّها بالسواد والعتمة بمجرد ذكره اللّيل .

ومن الأمثلة على ذلك ما قاله ابن زمرك في وصف البازي ، إذ من السهل أن يعرف الناس أن لون منقار هذا الطائر أحمر مع أن الشاعر لم يذكر ذلك صراحة :-

واستاقت الياقوت في منقارها ... ومشت على المرجان في استحياء (٣)

---

(١) ابن الجياب ، الديوان ، ص ٢٠٠ .
(٢) ابن زمرك ، الديوان ، ص ٤٣١ .
(٣) ابن زمرك ، السابق ، ص ٣٦٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وبمجرد ذكر ابن الجياب للأنواع المتعددة من الأزهار التي اكتسى بها الروض ، يمكن للمستمع أن يلون اللوحة في مخيلته ، فكل زهرة ترتبط بلون ، فلا يحتاج معه الشاعر لذكره صراحة ٠ ومن ذلك قول ابن الجياب :-

وبكلّ ربوةٍ ناجمة من جَنَىً زَهْرهن الخَضِل
من أقاح باسم ونرجسٍ وجُلٍّ وياسمينٍ خَجِل (١)

وهناك ألفاظ أخرى استخدمها الشعراء للإيحاء بعنصر اللون والتلّون أيضا، ومن هذه الألفاظ ذكرهم (الوشي) و (المرقوم) و (المخضل) و (الوشاح) و (كلّل) و (منمنم) و(مورّد) و (موَرّس) و (مرقشّ) .

ولابن خاتمة بيتان يصف فيهما الزهر وألوانه مستعينا بهذه الألفاظ فيقول :-

والزهر بين مُوَرَّدٍ ومُوَرَّس والنشرُ بين مُمْسَّكٍ ومصندَل
والماءُ قد صقلَ النسيمُ فرنده فتوشحت منه الرياضُ بمُنصل (٢)

ويستعين ابن زمرك بلفظه (الوشاح) ليدلل على جمال الروض الذي التف حوله النهر كالوشاح قائلا :-

تقلدت بوشاح النهر وابتسمتْ أزهارها وهي حلْي في تراقيها (٣)

وقد يستعين الشاعر ذاته لتلوين مشهده دون استخدام الألوان بلفظة (رقوم) فيها يستطيع أن يدل على ألوان الأزهار وهي تزين الرياض قائلا :-

للزهر في عطفها رقوم تلوح للعين كالنجوم (٤)

---

(١) ابن الجياب ، الديوان ، ص ٣٧٢ - ٣٧٣.
(٢) ابن خاتمة ، الديوان ، ص ٤١- ٤٢ .
(٣) ابن زمرك ، الديوان ، ص ٥٠٠ .
(٤) ابن زمرك ، السابق ، ص٥٣٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد يكون عنصراللون هدفاً بحد ذاته ، يعقد لأجله الشاعر الصور ويشخص عناصر الطبيعة لإبرازه، فأي شيء حرك مخيلة ابن الخطيب لتشخيص منظر النوارة البيضاء وهي متجلية وسط حقل الريحان سوى هذا التنوع المدهش للألوان ؟! :-

ودرة نورٍ في غلاف زبرجد كما لاح في الخضراء لألاءُ فرقَدِ (١)

إنه الدافع نفسه الذي دفع ابن خاتمة وقد اجتذبه منظر حقل جميل نبتت فيه ثمارالباقلا مختلطة بشقائق النعمان ، فهذا التلوّن العجيب أمام ناظريه فتح قريحته فقال :-

شقائق النعمان والباقِلاّ وجهٌ بكفِّ الحسن قد رُقِّشا
كأن هذي وجنةٌ خمِّشتْ وذا عِذارٌ فوقها قد وشى (٢)

ومن اللافت للنظر أن الشعراء الغرناطيين قد استخدموا أيضا لفظتي (الدرهم) و (الدينار) ، واستعانوا بهما في نسج الصور والتشبيهات المرتبطة بالطبيعة ومن ذلك قول ابن زمرك :-

كأنما الزهرُ في حافاتها سحراً دراهمٌ والنّسيمُ اللدْنُ يجبيها(٣)

وقوله :-

ورمى القضيب درهماً من نوْرِهِ فاعتاض من طلِّ الغمام بها دُررْ (٤)

أما ابن خاتمة فقد ذكر (الدينار) قائلا :-

حيا الربيع بنرجسٍ وبَهار فاردْ تحيته بكأس عُقار
لا تجن زهرته لغير سلافة تصريفك الدينار بالدينار (٥)

---

(١) ابن الخطيب ، ديوان الصيب والجهام ، ص ٣٩٨ .
(٢) ابن خاتمة ، الديوان ، ص ١٢٩ .
(٣) ابن زمرك ، الديوان ، ص٥٠٠ .
(٤) ابن زمرك ، السابق ، ص ٤١٩ .
(٥) ابن خاتمة ، الديوان ، ص ٧٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وتعد المحسنات اللفظية من العناصر الهامة التي يجب الوقوف عندها لدراسة لغة شعر الطبيعة في هذه الفترة ، وقد استخدم الشعراء الغرناطيون هذه المحسنات كثيرا ، تحسيناً لأساليبهم ، وتنميقاً لكلامهم لكن هذا الاهتمام بهذه المحسنات لم ينقص من جودة شعرهم ، أو يطفيء من وهجها ، فأغلب الظن أن ما دفعهم لاستخدامها هو اهتمامهم بالظواهر الصوتية لهذا الشعر ، فالمحسنات البديعية كالجناس والطباق يزيدها ألقا ، ويمنحها إيقاعا موسيقيا داخليا له وقع مميز في النفس ، كما أن هناك العديد من العوامل التي دفعت الشعراء الغرناطين للاهتمام بمذهب الصنعة ، ومنها اعتقاد بعض الشعراء بأن التفنن بأصناف البديع المختلفة ضرب من ضروب الابتكار والتجديد ، ومنها أيضاً وجود بعض المؤلفات التي دعا أصحابها إلى تمثّل أساليب الصنعة والتكلف مثل كتاب (التسهيل في علوم التنزيل) لابن جُزي الكلبي ، وكتاب (ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب) لابن الخطيب ، وكتاب (الوافي في نظم القوافي) لأبي البقاء الرندي ، وغيرها من الكتب كما تُعد ظاهرة نظم البديعيات على يد الشعراء الأندلسيين والمشارقة ، من العوامل الهامة التي دفعت الشعراء إلى الاهتمام بالصنعة اللفظية(١) .

ومن خلال تتبع شعر الطبيعة في هذه الفترة بدت الصنعة اللفظية أكثر حضوراً في القصائد و المقطعات التي اعتمد فيها الشعراء على التصوير والتشبيه المطلق ، بينما كانت تقل في أشعارهم التي يتفاعل فيها الشاعر مع الطبيعة ، ويعبّر بها عن مشاعره ووجدانه .ويعد الجناس بنوعيه ؛ الناقص والتام من أبرز المحسنات البديعية التي استخدمها الشعراء الغرناطيون في عهد الدوله النصرية ، فهذا المحسن اللفظي له دور بالغ الأثر في تجويد البنية والرنين في أبيات القصيدة، إذا أحسنَ التعامل معه دون إسراف .

ومن الأمثلة على استخدام الشعراء للجناس التام ، قول ابن زمرك :-

وانظر الى الدوح والأنهار تكنفها مثل الندامى سواقيها سواقيها(٢)

---

(١) للاستزادة والتفصيل في تحليل العوامل انظر : سرميني ، خصائص الشعر الأندلسي في عصر غرناطة ، ص ١٩٨ .
(٢) ابن زمرك ، الديوان ، ص ٥٠٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ففي هذا الجناس بين لفظتي (سواقيها و سواقيها) استثارة لذهن المتلقي الذي يحاول جاهداً استجلاء المعنى للاستمتاع به ، هذا فضلا عن إيقاع موسيقي تولد داخل البيت بفعل استخدام هذا المحسن اللفظي .

وفي بيت آخر له يستخدم الجناس التام مرتين في البيت الواحد ، حتى دخل ذلك في باب التكرار الذي يعد وسيلة من وسائل تحسين الإيقاع وتقويته ، كما أنه عامل مهم من عوامل التطريب يسعى إليه الشاعر للتأثير في ذهن السامع ، وهذا ما فعله ابن زمرك قائلا :-

نثر الأزاهر بعد ما نظم الندى يا حسن ما نظم النسيم وما نثرْ(١)

وقد وقع الجناس التام بين كلمتي (نثر و نثر) في صدر البيت وعجزه .

أما في وصفه للخيري يجانس أكثر من مرة جناساً تاماً حين يقول :-

إن البديع والرفيع ما ترى ليس البديع والرفيع غيرهُ (٢)

وكان ابن خاتمة يستخدم الجناس في أبياته الشعرية مدركاً أهمية هذا المذهب اللفظي ، ففي وصفه باقلاء نبتت وسط حقل من شقائق النعمان يقول :-

وناظِرُ النَّوْر بها ناظر يرومُ أن يُبصِرَ ما خُمِّشا(٣)

وقد وقع الجناس التام في صدر البيت مما خدم الإيقاع الموسيقي فيه وقربه من نفس المستمع.
وفي أشعار ابن خاتمة أمثلة عديدة على الجناس التام ، مثل قوله في وصف البلبل :-

ومن عجبٍ أن تسْجيعها بديعٌ ولم تدْرِ سَجْعَ البديعِ (٤)

---

(١) ابن زمرك ، الديوان ، ص ٤١٩ .
(٢) ابن زمرك ، السابق ، ص ٢٦٤ .
(٣) ابن خاتمة ، الديوان ، ص ١٢٧ .
(٤) ابن خاتمة ، السابق ، ص ١٢٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقوله في وصف أم الحسن :-

أحسنتِ أحسنتِ أمَّ الحَسَن لقد جئت بالحسن في كل فنْ (١)

ومن أمثلته أيضاً :-

ازجرْ بهذا الثلجِ فألاً إنّهُ ثلجُ اليقين بنصر مولانا الغني (٢)

ويعد ابن الجياب من الشعراء الذين أولعوا باستخدام الجناس بنوعيه وإن كان للجناس الناقص الحظ الأوفر في شعره . فإنه يستخدم الجناس التام بقدر قد يوصف بأنه قليل إذا ما قورن مع استخدامهِ للجناس الناقص ، ولكنه ليس قليلا جداً كما ذكر في بعض الدراسات (٣) .

ومن الأمثلة على الجناس التام في شعر الطبيعة عنده قوله في وصف روض جميل :-

في جنة تجلو محاسنها كما تجلو العروس لدى الزفاف جمالها(٤)

وفي وصفه للخيل يقول مجانساً جناساً تاماً في عجز البيت :-

أو أصفر سامي الثليل كأنما جيدُ الغزالة منه ذاك الجيدُ(٥)

وقال ملغزاً في صقر، ومجانساً جناساً تاماً في صدر البيت وحده قائلاً :-

وعكسه إن شئت عكساً لهُ يوجد لكن عند دور السماعْ(٦)

---

(١) ابن خاتمة ، الديوان ، ص ١٢٤ .
(٢) ابن زمرك ، الديوان ، ص ٤٩٨ .
(٣) النقراط ، ابن الجياب الغرناطي ، حياته وشعره ، ص ٣٨٥ .
(٤) المقري ، نفح الطيب ، ج٥ ، ص ٤٣٧ .
(٥) ابن الجياب ، الديوان ، ص ١٩٩ .
(٦) المقري ، نفح الطيب ، ج ٥ ، ص ٤٥٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومن الشعراء الذين اهتموا بهذا المحسن اللفظي أيضاً أبو جعفر بن شـطرية القرطبـي حيث قال في وصف النهر :-

فخمائـل الديبـاج مـنـه خمـائـل متعـانق فيـها الـبـهار بـورده(١)

أما عن استخدام الجناس الناقص في شعر الطبيعة عند شعراء غرناطة فالأمثلـة كثيـرة ومتنوعة ، ومنها قول ابن خاتمة في وصف الرياض :-

وقـامت كالعـروس تـروم كـفـؤاً تروق النفـس فـي مرأىً وخـُبر (٢)

وقد وقع الجناس الناقص بين لفظتي (تروم و تروق) .

ومن أمثلته أيضا عند ابن زمرك بيت يصف فيه القرنفل بقولـه :-

وجاؤوا به مـن شاهـق مـتـمـنع تَمـتَّع ذاك الظّـبي فـي ظـلِّ مكنَسهْ(٣)

وهذا الجناس الناقص بين لفظتي (متمنع و تمنع) أعطى للبيت إيقاعاً موسيقياً جمـيلاً ، وأكد على فكرة صعوبة اجتنائه .

وفي وصفه الكمثرى يستخدم الشاعر هذا المحسن اللفظي مجانساً بين لفظتي (تلـوح و تفوح) ، و (لمجتلٍ ومجتني) ، وحدث هذا الجناس بين صدر البيـت وعجـزه ، والبيـت مـن مقطوعة في وصف الثلج قال فيها ابن زمرك :-

فالأرض جوهـرةٌ تلـوح لـمـجتَلٍ والدوحُ مَزْهَـرَةٌ تفوحُ لمـجـتَـني (٤)

---

(١) ابن الخطيب ، الإحاطة ، ج١ ، ص ١٨٢ .
(٢) ابن خاتمة ، الديوان ، ص ١٣٠ .
(٣) ابن زمرك ، الديوان ، ص ٤٣٥ .
(٤) ابن زمرك ، السابق ، ص ٤٩٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وفي وصف ابن الجياب الخيل ، ودورها في ساحة المعركة له بيت يجانس فيه بين صدر البيت وعجزه جناساً ناقصاً فيقول :-

من كل نهدٍ ضامرعبل الشوى منه إلى نحر العدوِّ نهودُ(١)

كما استخدم شعراء هذه الفترة جناس التصحيف (٢) ، ومن أمثلته عند ابن خاتمة قوله:-

فثمَّ مغنى جَمالٍ راق رونَقُهُ عليه معنى جلالٍ واضحُ الشرفِ(٣)

وجناس التصحيف بين لفظتي (معنى و مغنى) .

ومن الأمثلة عليه عند الشاعر نفسه قوله في وصف وادٍ اخضر فيه الربيع:-

وادٍ به نفض الربيعُ عيابهُ (٤) **وأرى فنون فتونهُ وضروبها** (٥)

ففي عجز البيت جناس تصحيف بين لفظتي (فنون و فتون) أضفى على البيت جرساً موسيقياً يطرب آذان السامعين .

ومما جاء في وصفه لروض مملوء بالبهار قوله :-

يا رياضاً أهدى لأنفي بهاراً وصباحاً أبدى لعيني نهارا (٦)

وجناس التصحيف حدث بين لفظتي (بهار و نهار) .

---

(١) ابن الجياب ، الديوان ، ص ١٩٩ .
(٢) جناس التصحيف : هو التشابه في الخط بين كلمتيين فأكثر بحيث لو أزلت أو غيرت نقطة في كلمة اختلف معناها عن الأخرى. السلجماسي ، أبومحمد القاسم ، المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع ، (تحقيق علال الغازي) ، مكتبة المعارف ، الرباط ، ١٩٨٠ م٠ والهاشمي ، أحمد ، (١٩٨٦م)٠ جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع ، ط١٢، ص ٤٠٤، بيروت : دار الفكر .
(٣) ابن خاتمة ، لديوان ، ص ٦٣ .
(٤) العياب جمع عيْبة ، وعاء من أدم (جلد) يكون فيه المتاع ٠ ابن منظور، لسان العرب ، مادة عيب .
(٥) ابن خاتمة ، الديوان ، ص ٤٥ .
(٦) ابن خاتمة ، السابق ، ص ١٢٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومن ضروب المحسنات البديعية (الطباق) ، وله دور كبير في إبراز المعاني والتأكيد عليها ، وأمثلته كثيرة في شعر الطبيعة عند شعراء غرناطة ، ومن ذلك قول محمد بن شبرين السبتي في وصف غرناطة الجميلة وقد غطاها الثلج :-

رعى اللهُ من غرناطةٍ متبوّأً يسر حزينا أو يُجيرُ طريداً
تبرم منها صاحبي عندما رأى مسارحها بالثلج عدنَ جليداً(١)

وقد وقع الطباق بين لفظتي (يسر و حزينا) و لفظتي (يجير و وطريدا) .

وفي وصف ابن الجياب للجياد يقول :-

جارى جياد العدوتين فما عرفت له صدراً ولا وردا (٢)

وهذا الطباق بين لفظتي (صدراً و وردا) عمق معنى سرعة هذا الجواد وأصالته.

وقد أحسن ابن الخطيب استخدام هذا المحسن اللفظي ، فوظفه بدقة ليصور لنا الحالة التي أصبحت عليها خيول الأعداء ، وقد حاصرها الأندلسيون بخيولهم التي وصفها الشاعر بقوله :-

والخيل لما ضاق رحبُ مجالها لم تستطع خلفاً ولا قُداما(٣)

وقد استخدم الشاعر الطباق مرتين في البيت الواحد ، فقد جمع بين كلمتي (ضاق و رحب) ، و(خلفاً و قداما) .

ومن أمثلة الطباق عنده أيضا ما جاء في وصفه معاناته من وجود البراغيث، فقد وقع الطباق بين لفظتي (ليل و الصباح) حيث قال :-

---

(١) المقري ، نفح الطيب ، ج ١ ، ص ١٦٦ .
(٢) ابن الجياب ، الديوان ، ص ٥٨ .
(٣) ابن الخطيب ، ديوان الصيب والجهام ، ص ٥٨٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

جيـشـانٍ من ليـلٍ وبـرغوثٍ فهلْ جيش الـصـبـاح لـصرختي بمغيثِ(١)

ويميل ابن خاتمة إلى استخدام الطباق بكثرة ، ففي مقطوعة له في وصف البلبل متألقا بين الرياض ، استخدم الطباق أكثر من مرة وفي أكثر من بيت ، حيث قال :-

وخرساءَ إلا زمـانَ الـربـيـع ففـي سَـجْـعِـها طـرَبٌ للـخلـيـعِ
أنت تـمـدحُ الـنـور فـوق الغُصون كمـا يـشـكر الـحرُّ حسـنَ الصّـنـيعِ
تُـقـيـم لـه عُرسـاً فـي الريـا ضِ عـنـد الـغـروبِ وعـنـد الطلوعِ
تُـغـنِّـى مديـداً ومـهـمـا يـقـل لهـا بدِّلـى وقـعـتْ فـي الـسـريعِ(٢)

ففي البيت الأول طباق بين لفظي (خرساء و سجعها) ، وفي عجز البيت الثالث طباق بين لفظتي (الغروب و الطلوع) ، أما في البيت الرابع فالطباق بين لفظتي (مديدا و السريع)، وبذلك يكون هذا المحسن اللفظي مسيطر على أجواء المقطوعة سيطرة أخضعت المعنى لها ، فكأن غناء هذا البلبل يصيح بأذان السامعين .

وفي وصف ابن خاتمة لتفاعل عناصر الطبيعة مع بعضها يقول موظفا الطباق ليزيد هنا التفاعل عمقا ، ولتبدو الصورة أكثر وضوحا ، إذ يقول مطابقا بين البكاء والابتسام :-

وساجلتْ أدمع السحبِ الحمام بكـاً عـلى الريـاضِ فأضحى جدّ مبتسمِ(٣)

والتورية من المحسنات البديعية التي استخدمها شعراء غرناطة في أشعارهم ، فهذا المذهب اللفظي له تأثير كبير في إنعاش روح الدعابة والطرفة والتفكه في أشعارهم ، ويكمن في قدرتهم على التلاعب بالتراكيب والألفاظ ، وتمكنهم من استخدامها على أكثر من وجه ، ومن الأمثلة على التورية وصف ابن الخطيب للبرغوث (٤) قائلا:-

---

(١) المقري ، نفح الطيب ، ج٩ ، ص ٢١٠ .
(٢) ابن خاتمة ،الديوان ، ص ١٢٤ .
(٣) ابن خاتمة ، السابق ، ص ٣٧ .
(٤) انظر الدراسة ، ص٦٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

زحفتْ إليَّ ركائبُ البرغوثِ ... نمَّ الظلامُ بركبها المحثوثِ
بالحبة السوداءِ قابلَ مقدمي ... لله أيَّ قُرىً أعدَّ خبيثَ
كسحتْ بهنَّ ذباب سرح تجلّدي ... ليلاً ، فحبل الصبر جدّ رثيث
إن صابَرَت نفسي أذاه تعبّدتْ ... أو صحتُ منه أنِفتُ من تحنيثي
جيشانِ من ليلٍ وبرغوثٍ فهلْ ... جيش الصباح لصرختي بمغيثِ(١)

وفي قول ابن خاتمة تورية لطيفة ، فهو حينما وصف الأرض في فصل الربيع متزينة بالنبات الأخضر ومتشحة بصوارم الأنهار ، شبه الدوح فوق الأرض كأنه أمثال المنابر يعتريها الخطباء بالأسحار ، وكأنه أراد أن يوري عن تمكن الشعراء من تجسيد الطبيعة وسحر بيانهم في وصفها بالأسحار أي بالسحر حيث قال :-

والأرض قد لبست مطارف نبتها ... وتوشحت بصوارم الأنهار
والدوحُ أمثالُ المنابر فوقها ... خطباء بالأسحار في الأسحار(٢)

ومن الأمثلة على التورية ما جاء عند ابن خاتمة أيضا في وصف البلبل(٣) حين قال :-

تُغنِّي مديداً ومهما يقل ... لها بدِّلي وقعتْ في السريعِ
ومن عجبٍ أن تسْجيعها ... بديعٌ ولم تدْرِ سَجْعَ البديعِ (٤)

وفي تفاعل ابن الجياب مع الطبيعة واصفا ما حل به من العشق والوجد من جمال معشوقته ورى عن محبوبته بذكر النجوم قائلا :-

أرعى النجوم وما بي غير نسبتها ... والشيء بالشيء مرعي ومذكور
كنيت عنها بذكر النجم تورية ... وفي الكنأية إجمال وتفسير(٥)

---

(١) المقري ، نفح الطيب ، ج٩ ، ص ٢١٠ .
(٢) ابن خاتمة ، الديوان ، ص ٧٦ .
(٣) انظر الدراسة ، ص٦٤-٦٥ .
(٤) ابن خاتمة ، الديوان ، ص ١٢٤ .
(٥) ابن الجياب ، الديوان ، ص ٩٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وفي مقطوعة لابن زمرك قالها على لسان شارب خمرٍ أكثرت البعوض من لسع وجه، استخدم الشاعر التورية أكثر من مرة حيث قال :-

شربتُ دم العنقودِ من غير حِلِّهِ ... فقيضَ لي الأوباشَ تشربُ من دمي

بعوضٌ إذا جنّ الظلام انبريْنَ لي ... يعود بها جلدي مشوباً بعندم(١)

ففي البيت الأول ورى عن الخمرة بدم العنقود ، كما ورى عن البعوض بالأوباش ، أما في البيت الثالث ، فورى عن الحبوب الدامية التي تركها البعوض في وجه شارب الخمر بالعندم ، وهو نوع من النبات الأحمر لونه كلون الدم .

ثانياً : - الصورة الفنية :

تعددت تعريفات الصورة الشعرية عند النقاد والباحثيين قديما وحديثا ، وتباينت رؤيتهم لها ، ورغم ذلك إلا أنهم كانوا يتفقون جميعا (٢) على أن الصورة الفنية هي التي تعتمد في أدائها للمعنى على جودة استخدام الألفاظ ، والتحكم في ترتيبها أو تركيبها ، "فالشعر صناعة وضرب من النسيج ، وجنس من التصوير(٣) ، ويمكن القول إن التعبير بالصور سمة لازمت الشعر منذ بداياته ، ولتجلية الجوانب المتعلقة بالصورة الفنية في شعر الطبيعة في ظل بني الأحمر لا بُدّ من الوقوف عند العديد من الصور الشعرية وإبراز أهم السمات التي تميزت بها، ومنها التصوير الحسي ، والتفاعل مع عناصر الطبيعة وتشخيصها ، والتفصيل ، والإشارات الدينية ، والتأثر بالمشارقة وأخيرا الابتكار والتجديد .

---

(١) ابن زمرك ، الديوان ، ص ٢٣٧ .

(٢) مثل:- العلوي ، محمد بن طباطبا ، عيار الشعر، ص ١٠، ١٢٥ ، ١٢٦ ، (تحقيق عباس عبد الستار) ،دار الكتب العلمية، بيروت ، ١٩٨٢م٠وابن قتيبة ، أبومحمد عبد الله ، (ت٢٧٦هـ)٠الشعر والشعراء ،ط٤،ج١،ص ١٠ وما بعدها،(تحقيق أحمد شاكر) ، دار المعارف ، مصر، ١٩٦٠ م ٠والجرجاني ، دلائل الإعجاز ، ص ٣٨ وما بعدها ٠ ومنهم القيرواني ،ابن رشيق ، (ت٤٥٦هـ)٠العمدة في محاسن الشعر ونقد ، ط٣ ، ج١ ، ص ١٢٤ وما بعدها ، (تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد) ، المكتبة التجارية ، مصر، ١٩٦٥م .

(٣) الجاحظ ، أبو عثمان عمرو بن بحرالكناني ، (ت٢٥٥هـ)٠ الحيوان ، ط٢ ،ج٣ ، ص ١٣٠-١٣١ ، (تحقيق وشرح عبد السلام هارون) ، مكتبة ومطبعة البابي الحلبي ، مصر ، ١٩٦٥ م .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أ – التصوير الحسي :-

اعتنى الشعراء الغرناطيون عناية كبيرة بالتشبيهات ، وتأنقوا برسم الصورة الشعرية ، لكن صورهم كانت تعتمد إلى حد كبير على التشبيهات التي تلامس الأذهان ، وتقترب من الأحاسيس اقترابا كبيراً ، وبالتالي فإن الصور الشعرية التي وقعت عليها الدراسة كانت في معظم الأحيان واضحة الرؤية ، قريبة المشاهد، خاصة إذا ما جاء شعرهم مرتجلاً يهدف إلى وصف منظر جميل من مناظر الطبيعة ، أو محوره الوقوف على وصف زهرة مما لا يحتاج منهم إلى كثير من التأمل ، ولا يتطلب التعمق ، فقد تُفقد هذه الأمور الوصف طلاوته وحلاوته ورقته ٠

إلا أن هناك شعراً كثيراً يتسم بالعمق والرؤية ، لكنه ليس شعر طبيعة خالص ، بل هو شعر ينم عن تفاعل مع الطبيعة ، أو تعانق فيه الطبيعة أغراض الشعر الأخرى .

وتبرز ملامح التصوير الحسي في كثير من أشعار ابن زمرك فها هو يصف جمال الطبيعة في غرناطة ، تلك العروس الجميلة مكتملة الزينة فيقول :-

قف بالسبيكة وانظرْ ما بساحتها ... عقيلةٌ والكثيبُ الفرد جاليها
تقلدت بوشاح النهر وابتسمتْ ... أزهارها وهي حَلْي في تراقيها
وأعينُ النرجس المطلول يانعةٌ ... ترقرق الطلّ دمعاً في مآقيها
وافترّ ثغرٌ أقاح من أزاهرها ... مُقبِّلا خدَّ وردٍ من نواحيها
كأنما الزهرُ في حافاتها سَحَراً ... دراهمٌ والنّسيمُ اللدْنُ يجبيها(١)

وفي هذه الأبيات يصور ابن زمرك جمال طبيعة غرناطة بجمال العروس، وقد استهوت هذه الصورة الكثيرين من شعراء غرناطة (٢) ، فغرناطة عقيلة جلاها الكثيب الفرد ؛ النهر وشاحها ، والأزهار حلي يزين تراقيها ، والطل في أعين النرجس دمع يترقرق في مآقيها ، والأقحوان ثغر مفتر يقبل خد الورد ، وأما الزهر فيشبهه بالدراهم ، والنسيم بمن يجبيها ، ومن

(١) ابن زمرك ، الديوان ، ص ٥٠٠ .
(٢) انظر الدراسة : اللغة والأسلوب ، ص١٢٦-١٢٧ ٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الواضح أن الصور تجذب الأنظار وتخطف الأبصار ، وتضفي على النص جوّا مفعما بالتجـدّد والحياة .

ومن الصور الجميلة ما جاء به ابن زمرك أيضا في وصف القرنفل الصـعب الاجتنـاء بجبل الفتح ، فقد ذكره هذا المشهد بمحبوبته التي لها رائحة طيبة كالقرنفل وخد مشرق إشـراق لونه ، وبدا له هذا الزهر في صعوبة اجتنائه تماما كمعشوقته التي تضن عليه بالوصل ، وتلوعه بالتمنع ، وقد حاول الشاعر هنا الانتقال من حلقة الوصف المجرد ، ليشرك نفسه فـي عناصـر الصورة التي بدت أكثر عمقا وحيوية حين قال :-

رعـــى الله زهـراً ينتمـى لقرنفل ... حكـى عـرف مـن أهوى وإشراق خدّه
ومنبتـه فـي شاهـــق متمنـــعٍ ... كـمـا امـتنع المحبوب في تيه صدّه (١)

وفي أبيات أخرى لابن زمرك يصف فيها روضة تنوعت فيها الأزهار فتنوعـت علـى إثرها صور الشاعر فمرة يراها عرائس في منصتها تجلى ، ومرة تلوح له كأنها نجوم متلألئة ، أوقد تبدو له ثغورا تحوم النحل حول رضابها ، وهو يعتمد في تشكيل كل هذه الصور السـابقة على التصوير الحسي فالمشهد أمام ناظريه واحد لكن الصور والتشبيهات كثيرة لا تنضب:-

أرى الروض من در الأزاهر قد حلى ... عرائـس دوح في منصتـها تجـــلى
وزهرا من الأزهـار قد لحن أسـعدا ... على المرقب المشهورفي المظهر الأجلى
ثغور تحـوم النحـل حول رضـابها ... فمن طيبه قد قيل للشهد:ما أحـــلى !(٢)

أما الشاعر ابن خاتمة فقد كانت الطبيعة أمامه أيضاً خصبة لا ينضب عطاؤهـا يسـتقي منها صوره ، ويرسل في جنباتها تأملاته الفكرية والدينية، فهو يراها دلائل تلوح له في كل جزء منها مذكرة إياه بعظمة هذا الخلق وهذا الخالق عز وجل ، فـفـي قـصـيـدة لـه يـبـدع هذا الشاعر أيما إبداع في تصـوير الطـبيعة من حوله مسترسلاً في وصف ما ترى العـين

---

(١) ابن زمرك ، الديوان ، ص ٣٨٤ .
(٢) ابن زمرك ، لسابق ، ٢٤٩-٢٥٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

من ملامح الجمال ، وما تسمع من أغاريد الطبيعة الناطقة وما تحسه الـنفس إزاء ذلـك كلـه ، فيصور الأرض وقد ارتوت من ماء السماء ، واخضوضرت وتلونت ، وفاح عطرها ، وامتـد ظلها ، وانتثرت فيها الأزاهير والزنابق ، وهو يرى أن الصورة الأنسب والأكثر استحقاقاً لهـذا الجمال هو أن يشبه الأرض بعروس كشفت عن وجهها المشرق ، ولطالما أحب ابن خاتمة هـذه الصورة وأكثر منها في أشعاره في الطبيعة (١).

ومن الصور الجميلة في هذه القصيدة تصويره الجمال المنتشـر بـين جنبـات الأرض بطاووس مد جناحيه فغطى الغصن والكثيب :-

قد مد طاووس الجـمـال جنـاحـهُ فـيها فغطى غـصـنهـا وكثـيـبـها (٢)

وفي بيت آخر له يصور انتشار الربيع في أنحاء الوادي ، برجل ينفض عيابه فيذهل من حوله بما خبأه في ذلك العياب من السحر والجمال ،وقد عبر عن ذلك بقوله :-

وادٍ بـه نـفـض الـربـيعُ عـيابه وأرى فـنـون فتـونهُ وضـروبها (٣)

ثم إن هذا الجمال كله يبدو له كعروس جميلة رفعت النقاب عن وجههـا فبهـرت مـن حولها بزينتها وجمالها إذ قال :-

فـأتـت كما نـضت العروس نقابها وجـلـت عن الوجه الجميل شـروبها(٤)

ومع جمال هذه الصور الحسية جميعها إلا أنها تبقى دائرة في محيط الشكل الخارجي مع براعة في عرض الصور ذاتها والمعنى ذاته تقريباً بتقديم أو تأخير أو تلاعب بالألفاظ ، لكنهـا غالباً ما تأتي متشابهة في العرض والتصوير .

---

(١) القصيدة كاملة في ديوان ابن خاتمة ، ص ٤٥ .
(٢) ابن خاتمة ، السابق ، ص ٤٥ .
(٣) السابق ، ص ٤٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومن الصور الحسية التي تركها شعراء غرناطة ، صورة يشبه فيها ابن الخطيب الوادي الكبير في وقت الأصيل حين ترسل الشمس عنان مسيرها ، كأنها صورة زئبق يهتز مضطرباً والشمس تلقي عليه من إكسيرها (٢) لتمنحه سحر الجمال فتحيله ذهباً خالصا :-

انظر إليه والأصيل مورسٌ ... والشمس ترسل من عنان مسيرها
فكأنما هو زئبق مترجرجٌ ... ألقت عليه الشمس من إكسيرها (٣)

وها هو عبد الكريم القيسي يصور باكوراً مختلف اللون ، وهو يعتمد على الصور الحسية التزيينية التي تنحصر في حدود التصوير والتوضيح معتمداً على مشاهداته البصرية ، ومكرراً تشبيهات من سبقوه دون إبراز مشاعره تجاه هذا الجمال فقال :-

وباكور بستان دنا وقت جنيه ... فأضحى يروق الطرف عند التوسمِ
له مطعمٌ كالشهد عند مذاقه ... ورائحةٌ كالمسك عند التنسمِ
وكالمسك والكافور أو كزمرد ... أو كالتين منه اللون عند التقسمِ
غدا الغصن من أنواعه الغرِّ مثمراً ... بأحقان شُهد شيب فيها بسمسمِ
إذا بكرّ الجاني يؤمِّلُ جنيَهُ ... تلاقيه إعجاباً به ذا تبسمِ (٤)

ب – *التفاعل مع الطبيعة :-*

أضفت هذه السمة على شعر الطبيعة في هذه الفترة النبض والحيوية ، ليصبح الواحد منا أكثر إعجاباً بهذا الجمال الذي يصوره الشعراء ، فهو يحس بأن هذه الطبيعة ليست منفصلة عنهم، وأن اللوحة التي أمامه ليست وصفاً مجرداً ، بل يستطيع الآن أن يجسد في مخيلته مثلا شاعراً يقف أمام البلبل الشادي في وسط الروض الجميل ، بل بإمكانه أن يضع (سيناريو) للمشهد فيتنبأ بحوارٍ يمكن أن يكون دار بينهما مثلا .

---

(١) ابن خاتمة ، الديوان ، ص٤٥ .
(٢) الإكسير : مادة مركبة كان الأقدمون يزعمون أنها تحول المعدن الرخيص إلى ذهب .
(٣) ابن الخطيب ، ديوان الصيب والجهام ، ص ٥٤٠ .
(٤) القيسي ، عبد الكريم ، الديوان ، ص ٣٤٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويتفاعل "شاعر الطبيعة " ابن زمرك معها في قصيدة يعبر فيها عن حزن ألم به ، وهو يجند عناصر الطبيعة الصامتة لتجسد هذا الحزن ، وتشترك معه في التعبير عنه ، يقول :-

أبيت أراعي نجوم السماء ... كأنيَ راعيت أهلي ونـاسِ
تمد إليّ بكف خصيبٍ ... أمد إليها أكفَ التماسِ
فأجرى دموع الغمام انتحابي ... وأورى زنادَ البروق اقتباسي (١)

وها هو ابن زمرك يشرح ما به من ألم ووجد للأفق قائلاً :-

سل الأفق بالزهر حالياً ... فإني قد أودعته شرح حالياَ
وحملتُ معتل النسيمِ أمانةً ... قطعت بها عمر الزمان أمانياَ (٢)

أما ابن الخطيب فيرى في حواره مع الناقة وتفاعله معها أفضل طريقة للتعبير عن سعادته بالمكوث في حمى شيخه أبي البركات (٣) ، وقد جسدت هذه الأبيات مشهداً تمثيلياً ، بطلاه الشاعر وناقته ، يقول ابن الخطيب :-

قلت يا ناقُ كلَّ مالٍ وجاهٍ ... وعقارٍ فهن مُتَرَّكاتِ
فاقصدي طيةً تليقُ بقصدي ... وسكوناً تهوي له حركاتي
فانبرت تقطع المفاوز حتى ... بركت في حمى أبي البركاتِ (٤)

ويرتجل ابن خاتمة أبياتاً له في يوم بديع من أيام الربيع ليصف ما هاج في قلبه من الشجو والحزن حين سمع غناء البلبل الذي قلب الأمور، فلم يعد الغناء للمتعة واللهو إذ إنه لعذوبته أثار لواعج قلبه فقال :-

---

(١) ابن زمرك ، الديوان ، ص ٢١٤ .
(٢) ابن زمرك ، السابق ، ص ٥١٩ .
(٣) هو ابن الحاج محمد بن أبي بكر محمد ابراهيم بن الحاج البلفيقي السلمى ، ولد ٧٠٨ هـ ، من أهل المرية ، شيخ محدث ، فقيه ، أديب ، صوفي ، عرف بالوفاء والبعد عن الحسد .نفح الطيب ، ج ٧ ، ص ٣٩١-٤٠٨.
(٤) ابن الخطيب ، ديوان الصيب والجهام ، ص ٣٣٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وبلبل الروض ما تغنّى ... أم غادةٌ رُوِّعت بصدْ
هاج على النفس ما شجاها ... ورُب هَزْلٍ أتى بجدْ (١)

ولا يكون التفاعل بين الشاعر والطبيعة فقط ، بل قد يصوره الشاعر على أنه تفاعلٌ بين عناصرها حيث يتأثر كل عنصر بالآخر ، ومن ذلك ما قاله ابن الجياب في تعبيره عن تفاعل عناصر الطبيعة صائتة وصامتة ، واشتراكها في رسم لوحة جميلة للطبيعة الغناء من حوله ، وهو لا يراها بهذا الجمال إلا لأنه يحس بنشوة وسعادة لا يمكن إخفاؤهما :-

والأرض قد لبست أثواب سندسها ... والروض قد بسمت منه أزاهرهُ
حاكت يد الغيثِ في ساحاته ِ حللاً ... لما سقاها دراكاً منه باكرهُ
فلاح فيها من الأنوار باهرها ... وفاح فيها من النوار عاطرهُ
وقام فيها خطيب الطير مرتجلا ... والزهرُ قد رصّعت منه منابرهُ
فالغصن من نشوة يثني معاطفه ... والطير من طرب تشدو مزاهرهُ (٢)

ومن الأمثلة على هذا التفاعل أيضا تقديم ابن زمرك للطبيعة على أنها جوقة كاملة متكاملة ، ومتفاعلة مع بعضها صوراً وألواناً وحركة ، يقول :-

أجِل نظراً في الدوح تكسى أزاهراً ... وقد رفعت بين الرياض قبابا
ثغور تروق العين منها مباسمٌ ... ترى النحل تجني بينهن رضابا
وقبل خدَ الوردِ ثغرُ أقاحهِ ... فمد عليه للحياة نقابا
ويرسل دمع الطل من لحظ نرجس ... فيعلو بأكواس العرار حبابا (٣)

والملك الشاعر يوسف الثالث ينسج مطولة له ببراعة وحيوية تلفت الانتباه ، فقد وصل هذا التفاعل قمته حيث تفاعل الشاعر مع عناصر الطبيعة التي تفاعلت بدورها مع بعضها بعضا وقد أحسن الشاعر توظيف هذه العناصر وتفعيلها لتشكل قصةً مفعمة بالأحداث حين قال :-

---

(١) ابن خاتمة ، الديوان ، ص ١٢٣ .
(٢) ابن الجياب ، الديوان ، ص ٧٠ - ٧١ .
(٣) ابن زمرك ، الديوان ، ص ٢٥١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وحديـقـة باكـرتُ صفـو نعيمها ... والـفجـر يبصـرُ من خـلال سحابِ
والطـلُ ينـظمُ فـي الغصون لآلئا ... فيملن طوع الحسـن والإعـجـابِ
والروض مـبـتـسم الأسرة ضاحكٌ ... كزمان وصـل بعـد طـول غيـابِ
مرت تصافحـنـا أنـامـلُ سوسن ... ورنـت تغـازلـنا مـع الإعـجـابِ
والـريح تسحب ذيـل كـل خميلة ... تـهـدي الأنوف روائـح الأحـبـابِ
والآسُ صـدغ للحبيـب معـطفاً ... والخـدُّ وردٌ مشـرقـاً كشهابِ (١)

وقمة تفاعل الشعراء مع الطبيعة أن يجند الواحد منهم عناصـرها للتعبيـرعن الشـوق والفرح أو الحزن أو الإعجاب أو المديح أو الغزل ، وقد كثر هذا عند الشعراء الغرناطيين ، وقد ذكرت الدراسة شواهد كثيرة عليه في فصل (الطبيعة في أغراض الشـعر الأخـرى) ، ومـن الأمثلة عليه أيضا ما قاله ابن الخطيب مادحاً ومهنئاً أحد قواد البحر (٢) غداة ابتنائه بزوجه :-

أعـرسـت في مثوى الخلافة بعدما ... عكفـت علاك تـشـيـده وتـطـيلُهُ
فـبـدا كمـا لاح الصـباحُ لناظرٍ ... متـألـقـاً يغشـى الـعـيون صقيلهُ
تـبلى اللـيـالـي وهي تندى جدةً ... ويجف زهر الـروض وهـو بـلـيلهُ
حيـث الـريـاض تفتحت أزهارهُ ... وهمـا عليهـا من نـداك همـولُـهُ
وقد ازدهـى الـديـباج في روضاته ... خـطـلا كمـا جلت الـربيع فصولهُ (٣)

ولابن الجياب أبياتٌ في الرثاء يعبر فيها من خلال عناصر الطبيعة عن حزنـه البـالغ مجنداً عناصر الطبيعة ، ومدللا بها على جود فقيده وشجاعته وعزته حين قال مستخدماً أسـلوب التكرار الذي كان كثير الانتشار في قصائد الرثاء لما له من تأثير في ذهن السامع :-

إن تلـقـه في يـوم جـود هامـر ... تلـق السحـاب على الـبـلاد سوافحا
أو تلـقـه في يوم بأس قـاهـر ... تـلـق الأسـود لـدى العيون كـوالحا
أو تلقـه قي يوم فخر ظاهـر ... تلـق الـكـواكب في السماء لوائحا (٤)

---

(١) يوسف الثالث ، ديوان ملك غرناطة ، ص ٩ .
(٢) هو قائد البحر أبو العباس ، وأنشده القصيدة غداةابتنائه بزوجه بنت الرئيس أبي الحجاج من قرابته عام ثمانية وثلاثين ابن الخطيب ، ديوان الصيب والجهام ، ص ٥٥٥ .
(٣) ابن الخطيب ، السابق ، ص ٥٥٥ .
(٤) ابن الجياب ، الديوان ، ص ٣١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ج – التفـــصـــــيل :-

إن التمعن في شعر الطبيعة في هذه الفترة ، يستوقف الدارس عند هذا الميل إلى أسلوب التفصيل في أجزاء الموصوف ، لكنه تفصيل لا ينفك عن الجزئيات الخارجية لـــه ، والتركيـــز على خصائصه الشكلية ، وقد كانت هذه السمة الملعب الذي يتبارى فيه الشـــعراء الغرنـــاطيون لإثبات قدرتهم على التصوير الحسي ، وألمحيتهم في التقاط جماليـــات الطبيعـــة ، وحُنكـــة فـــي ربطها مع موجودات أخرى في الحياة لتشبيهها بها .

وفي مقطوعة للشاعر عبد الكريم القيسي ينشدها في باكور مختلف ألوانه ، تبدو ظاهرة التفصيل واضحة كل الوضوح فالشاعر ينقل جماليات المشهد بدقة تناولت شـــكله الـــذي يســـر الناظر، وطعمه الذي يشبه الشهد لطيبه ، ورائحته الجميلة التي تشـــبه المســـك عنـــد تنســـمها ، وألوانه المتنوعة التي تشبه لون الزمرد أولون التين عند تقسيمه ، ويمكـــن القـــول إن اعتمـــاد الشعراء الغرناطيين على التصوير الحسي كان سببا في إبـــراز ظـــاهرة التفصـــيل ، فـــإبراز خصائص وجماليات شيئ واحد يؤدي بالتأكيد إلى التفصيل في وصف أجزائه:-

وباكور بستـــــان دنا وقـــت جنـــيه ... فأضـــحى يروق الطرف عـــند التوسم
له مطعـــم كالشهد عنـــد مـــذاقـــــه ... ورائـــحة كالمـــسك عنـــد التنـــــسم
وكـــالمســـك والكـــافورأو كزمـــرد ... وكالـــتين منه الـــلون عند التقـــسم (١)

أما ابن زمرك فيسترسل في وصف التفاح متتبعاً أوصافه بدقة ، فلم يترك مـــن صـــفاته شيئا إلا وأتى عليه تقريبا ، مثل رائحته وشكله ولونه والأوراق التي تحيط بـــه ، اســـتمع إليـــه يقول:-

فيهـــا مـــن التفـــاح كلَّ عجـــيـــبـــةٍ ... تذكي بريّـــاهـــا صـــَبا وشـــَمـــَـــالا
تهدى لنـــا نهـــد الحبـــيـــب وخـــدّه ... وتـــرى مـــن الـــورد الجَـــنِـــيِّ مـــثـــالا
ولها مـــــن الأتـــرجِّ شـــمس أطلعت ... من كـــل شـــطر للـــعـــيـــون هـــــلالا
ويحُـــقّـــهـــا ورقٌ يـــروق كـــأنـــــه ... ورق النضـــــارِ وقـــد أجـــاد نـــبالا (٢)

---

(١) القيسي ، عبد الكريم ، الديوان ، ص٣٤٣ .
(٢) ابن زمرك ، الديوان ، ص ٤٨١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وهذا ابن الخطيب قد أغرته هذه الثمرة بجمالها فوصف رائحتها وطعمها وجودة نوعها، ثم فصل في ذكر لونها قائلا:-

جاءتك تعرف بالشميم سراها كرمت عناصرها وطاب ثراها
لما بعثتُ بها تورّد خدها واحمرّ من خجل لديكَ عُراها (١)

ولم يتوقف التفصيل عند حد التركيز على أجزاء الموصوف ، بل يتخذ شكلا أعم وأشمل، حيث يبدأ الشعراء بوصف مشهد كلي للربيع أو الحديقة أو لأي من المشاهد في الطبيعة، ثم يفصل دور كل ما فيه من عناصر صائتة وصامتة في إضفاء جماليات على هذا المشهد ، ومن ذلك ما جاء في قصيده لابن خاتمة (٢) وصف فيها مشهد الشتاء ، ثم بدأ بتفصيله وذكر محاسن الشتاء وتأثيره على هذه الأرض التي طالما تعطشت له ، وقد بدأ بعرض هذا المشهد منذ مجيء الغيوم الكثيفة إلى أن رحل تاركا وراءه الربيع ، وأكمل تفاصيل المشهد الربيعي، بما فيه من جماليات لم يمر عليها مرور الكرام بل فصل في ذكرها ، ثم أتى على فصل الصيف مفصلا ، ثم الخريف ، ثم انتهى إلى حيث بدأ عائدا إلى الشتاء ، وفي النهاية يجد الواحد منا نفسه أمام قصيدة تعزف سمفونية الطبيعة ، ومما قاله في هذه القصيدة :-

وأتى الخريفُ بإثر ذاك معاوداً حُسْنَ الربيع وطيبه المستعذبا
فوشى ثياب الروض من أوراقه وشيا تنوع صبغه وتنسّبا
وسرى النسيمُ مع الصباح مبشرا بدنوِّ إقبال الشتاء مُرحِّبا (٣)

---

(١) ابن الخطيب ، ديوان الصيب والجهام ، ص ٥٤٧ .
(٢) انظر القصيدة كاملة في الديوان ، ص ١١٩ .
(٣) ابن خاتمة ، الديوان ، ص ١١٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

د – الإشارات الدينية :-

الثقافة الدينية جزء لا يتجزأ من ثقافة الشاعر ، والشعراء الغرناطيون كانت لهم ثقافة دينية واسعة ، وقناعات فكرية متصلة بها ، وقد تسللت بعض الإشارات الدينية من الشعراء الغرناطيين إلى شعر الطبيعة عندهم ، وقد تمتع ابن خاتمة بثقافة جعلت منه بصيرا بأحوال الزهاد والمتصوفة ، وقد ظهر أثر معرفته وزهده ، وميلة إلى التصوف في مواضع كثيرة من ديوانه ، وأكبر دليل على ذلك هي تلك القصائد التي نظمها في وصف الطبيعة ، وكان غرضه منها هو التنبيه على موارد الآلاء والأنعام ، ولفت نظر الإنسان إلى كل ما من شأنه أن يُنعش الوازع الديني داخل قلبه ، والتأمل في جماليات هذا الكون كانت أفضل طريقة لذلك (١) .

ففي معرض تشبيه الشعراء الرياض بالعروس كثيرا ما يذكرون النقاب الذي تضعه المرأة ، وهذا يشير إلى ملمح متعلق بالدين والعقيدة ، حيث قال ابن خاتمة ذاكراً النقاب :-

فأتت كما نضت العروس نقابها وجلت عن الوجه الجميل شروبَها (٢)

كما يشبه ابن خاتمة الآس الذي يلف الروض بخمار يحجب محاسن امرأة جميلة قائلا:-

محفوفة بالآس منه على محاسنها خمارُ (٣)

ومن الإشارات الدينية في شعره مثلا هو ذكره للمهر الذي يضمن أن يحضره كل من يرى هذا الروض الذي بدا كأنه عروس جميلة حين قال :-

وقامت كالعروس تروم كفؤاً تروق النفس في مرأىً وخُبرْ
ولا كفءٌ كحسنك ملتُجبْها وإني ضامن إحضار مَهر (٤)

---

(١) انظر القسم الأول من ديوانه ، ص ٢٧ – ٦٠ .
(٢) ابن خاتمة ، الديوان ، ص ٤٥ .
(٣) ابن خاتمة ، السابق ، ص ١٢٧ .
(٤) السابق ، ص ١٣٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

حتى في وصف ابن خاتمة لثمرة القرع التي تتراءى أمامه امرأة جميلة جعل لها جلبابا وحجابا يمنعا أن يقترب منها أحد :-

لله خـزيَّـةُ الجلـبـاب صوَّنـَهـا طـول الحجـاب فلـمُ يمـدَدْ لـها ظُفُرُ
حيّى بها الروض يندى جسمها ترفاً كأنهـا ساق خَـوْدٍ غالُـهـا قـدَرُ(١)

ومما يدل على تأثر الشعراء الغرناطيين بثقافتهم الدينية ، ذكر الجنة في أشعارهم، ومن ذلك ما قاله ابن الجياب في وصف روض بديع :-

فـي جنـة تجلـو محاسـنـها كما تجلو العروس لدى الـزفاف جـمالَها(٢)

ويشبه ابن زمرك نفسه في إحدى قصائده بطائر يحلق في ربوع الجنة قائلا:-

فمـا أنـا إلا طـائـرٌ حـل جـنـة وظِـلُّ المنـى مـن فـوقـه متهدّل (٣)

وقد يذكر بعض الشعراء ألفاظا أخرى تتصل بالثقافة الإسلامية ، فهي مؤشرات واضحة على مدى أهمية الدين في حياتهم ، ومثل ذلك ذكرهم للمنابر ، والخطباء ، والسجود والصوم ، والتفاؤل وغيرها من الألفاظ التي تحمل دلالة دينية.

وفي أبيات لابن خاتمة يشبه منظر الرياض المتوشحة بصوارم الأنهار كأنها خطباء تخطب فوق المنابر يقول:-

والدوحُ أمثـالُ المنـابر فـوقـهـا خطباء بالأسـحار في الأسـحار(٤)

وهذا ابن زمرك يهدي لممدوحه الصائم سلة مليئة بما لذ وطاب قائلا ذاكرا أحد أركان الإسلام الخمسة :-

---

(١) ابن خاتمة ، الديوان ، ص ١٢٩ .
(٢) ابن الجياب ، الديوان ، ص ٦٢ .
(٣) ابن زمرك ، الديوان ، ص ٨٦ .
(٤) ابن خاتمة ، الديوان ، ص ٧٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بفاكهـــة تهـــدي إلـــى النفس ما اشتهت ولا سّـــيما والـــنفس بالصوم تَدْمَلُ (١)

وفي ذكرهم للسجود والمحارب ، يقول الشاعر الملك مشبها الخيل العتاق المنطلقة وهي تخط بهامات الكماة محارباً ، قائلا :-

فـــإن الخيـــل العـــتـــاق إذا انـــبـــــرت تـــخال بـــأيـــــدي الريح منها الشكائم
تخـــط بـــهـــامـــــات الـــريـــاح ، محارباً لها ســـاجـــدٌ مـــنـــهـــم وآخر قائم (٢)

ويستخدم ابن زمرك الإشارات الدينية ذاتها في بيت يقول فيه :-

إذا سجـــدت زهـــر النـــجـــوم لربـــهـــا فـــفـــيـــها إلى زهر النجوم محارب (٣)

ولا يكتفي ابن زمرك بفكرة أن كل ما في الأرض والسماء يسجد لله عز وجـــل فيتـــذكر كيف أن الغصن قائم متهجد في طاعة الله كما بقية مخلوقاته تعالى ، وفي البيت تأثر بقوله تعالى " سبح لله ما في السموات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم"(٤) حين قال :-

أو مـــا تـــرى أدواحـــهـــــا وظـــلالـــها لله خالـــقـــهـــا المهيمن تـــســـــجـــدُ
والغصـــن فيهـــا قـــائـــــم متهجـــــدٌ والنهر فيهـــا ســـــالـــك مـــتـــجردُ (٥)

أما ابن خاتمة فيستخدم لفظة السجود في مبالغة منه في استغلال عناصر الطبيعة للتعبير عن جمال محبوبه ، ويبدو في عجز البيت متأثراً بالآية الكريمة "والنجم والشجر يسجدان" (٦) إذ يقول :-

إذا بـــدا يختـــال فـــــي مـــشيـــــه فالـــشـــمس والغصن له يسجدان (٧)

---

(١) ابن زمرك ، الديوان ، ص ٢٦٤ .
(٢) يوسف الثالث ، ديوان ملك غرناطة ، ص ١١٣ .
(٣) ابن زمرك ، الديوان ، ص ٢٩٢ .
(٤) سورة الحشر ، الآية (١) .
(٥) ابن زمرك ، الديوان ، ص ١٢٣ .
(٦) سورة الرحمن ، الآية (٦) .
(٧) ابن خاتمة ، الديوان ، ص ٧١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويشير ابن الخطيب إلى أهم الأماكن المقدسة عند المسلمين ، فيصور الروض الجميل بالكعبة ، فهو يقول :-

وكعبة روضٍ زارها القطر والتقت بمـيقاتها جوابة الغرب والشرق (١)

وفي قوله أيضا :-

تشققت الأزهار عن جامد الثرى كذا جامد الألفاظ أصل لمشتق (٢)

تأثر "بالقرآن الكريم" وإشارة إلى قوله تعالى :"يخرج الحي من الميت ، ويخرج الميت من الحي" (٣) .

وقد حملت الألغاز في طياتها العديد من الإشارات الدينية ، وأبرزت ثقافة دينية مميزة عند بعض الشعراء ، مثل ابن الجياب الذي برز في شعر الإلغاز فكان شاعراً مكثراً ، كما جاءت ألغازهُ مشبعة إلى حد كبير بالعلوم الدينية من فقه وحديث ، فقد كانت السمة السائدة في عصره (٤) ، وما يهم الدراسة هي الألغاز التي قالها في بعض عناصر الطبيعة الصائتة ومنها ما قاله ملغزا في صقر:-

وإنْ تُصحِّف بعد قلبٍ لهُ فمذهبٌ يُعزى لأهل النزاعْ(٥)

وتصحيف صقر بعد قلبه هو "رفض" وفي هذه إشارة إلى "مذهب الرافضة".

كما وردت عبارة "الذكر الحكيم" في ألغازه أكثر من مرة ، ففي لغز له في نمر قال:-

---

(١) ابن الخطيب ، ديوان الصيب والجهام ، ص ٦٤٠ .
(٢) ابن الخطيب ، السابق ، ص ٦٤٤ .
(٣) سورة الأنعام ، الآية ، (٩٥) .
(٤) النقراط ، ابن الجياب الغرناطي ، ص ٣١٠ .
(٥) المقري ، نفح الطيب ، ج٥ ، ص ٤٥٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كحيوان ماله من حرمة ... إذا اسمه صُحِّف فابن العمة
وقلبه من بعد تصحيف له ... يريك في الذكر الحكيم اسمه (١)

وفي لغز لابن زمرك يجيب فيه عن لغز شمس تظهر أيضا بعض الإشارات الدينية ، ومما قاله فيه :-

وجاء في التنزيل وصف لها ... مرادف المصباح للفاهمين
إذا ظهرت كانت لنا آية ... أضافها الوحيُ لنورٍ مبين
ساجدةُ في ليلها كلّه ... ويومَها من جملة السابحين
مبصرةٌ من غير عين وكم ... ضلّت بها من أمم مبصرين (٢)

وهذه الأبيات تحمل الكثير من الإشارات الدينية متمثلة في ذكره ؛ التنزيل والآية والوحي والنور والسجود والضلال والتسبيح ، وكل هذه الإشارات تدل على شاعر يحمل ثقافة دينية عميقة في نفسه .

هـ - *التأثر بالمشارقة :-*

كثيرا ما ناقش الأدباء والباحثون قضية التقليد في الشعر الأندلسي وتأثر الأندلسيين بالمشارقة ، ولو انطلق هؤلاء جميعاً من نقطة مفصلية مفادها أن الأندلسيين عرب من أشد شعوب الأرض حبّا للشعر ، وحبهم له عميق متأصل في نفوسهم يتشقون منه عبق التاريخ والأدب ، يداعب ذاكرتهم ، يشاكسها ، ويحضر دون استئذان كلما تهيأت له الظروف ، لو حدث كل هذا لأنصف هؤلاء جميعا الشعر والشعراء الأندلسيين ، فمن منا لا يحضره بيت من الشعر في موقف معين يقوله وكأنه مفصل له تماما في حالته تلك . إن حب الشعر توأم روح العربي كما قال الرسول الكريم " لا تدع العرب الشعر حتى تدع الإبل حنينها" فأي شعر سيحب الأندلسيون ؟! لقد تربوا على تراث شعري زخم يفرض عليهم عشقه ، ويستبيح لنفسه أن يؤثر في أشعارهم ، وهم لا يقفون منه إلا موقف المتجاوب معه لا المستسلم له ، يتأثرون به تأثراً يأخذ بعين الاعتبار خصوصية البيئة والظروف المحيطة بهم .

---

(١) ابن الخطيب ، الإحاطة ، ج ٤ ، ص ١٤٥ .
(٢) ابن زمرك ، الديوان ، ص ٢٣٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والطبيعة التي تدور حول شعرها الدراسة ، عنصر هام في بحث قضية تأثر الأندلسيين بالمشارقة ، فبينما كانت تفرض نفسها في موضوعاتهم وألفاظهم وصورهم ، كان بعضهم ما يزال منجذبا نحو قساوة الصحراء والوقوف على أطلالها ووصف نوقها وسباعها وو ... الخ ، وبالتالي فإن شعر الطبيعة في هذه الفترة كان فيه نزعة بدوية حجازية تمتزج بالحنين إلى الجذور ، ويمكن تلمس ملامحها في أشعار ابن خاتمة الذي يتنشق عبير الأجواء الحجازية النجدية من خلال نسيمات الصبا التي تهب من ريا نجد لتصل إلى المعاهد الأندلسية ، إن هذا الشاعر يستحضر طبيعة مكان يعني له الكثير ، فيقول :-

تهب نسيمات الصبا من ربى نجد ... فينفحن عن طيب ويعبقن عن ندِّ
وما ذاك إلا أنهن يجلن في ... معاهدنا بين الأثيلات والرّند
هناك الثرى يُربي على المسك طيبه ... ودوحاته تُزري على العنبر الوردِ
معاهدٌ نهواها وتهوى لقاءنا ... بها قد مضى حكم العفاف على الوُدِّ(١)

لقد بدا هنا هذا التأثر واضحا في هذه الأبيات ، فابن خاتمة يصف لنا شوقا ألهبه الحنين إلى الديار والمنازل ، لا للحبيبة كما قد يُظن ، وتفرض بعض البيئات المشرقية نفسها كالأثيلات والمعاهد ، كما تحضر ربى نجد ، هذه الحاضرة الغائبة في ذهن الشاعر .

أما في قول ابن خاتمة :-

أشاقك سَلْعٌ أم هفت بك ذكراه ... فساعات هذا الليل عندك أشباهُ
وهل ذا البريق التاج من نحوِ ... رامةٍ وإلا فِلمْ باتت جفونك ترعاهُ (٢)

فتلمح تأثراً واضحاً بالأماكن المشرقية ، فهو يسأل عن سلع ورامة ، وهي أماكن حجازية مدنية مكية .

---

(١) ابن خاتمة ،الديوان ، ص ٦٥ .
(٢) ابن خاتمة ،السابق، ص ٧٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد يكون هذا الحنين أشد تأججا في قلوبهم بفعل ما عانى الغرناطيون من غربة سببتها النزاعات والقلاقل التي آلمتهم فوجدوا في تذكر المشرق زاداً ينعش أرواحهم .

وقد مرت بالبحث أبيات لابن خاتمة في الغزل والنسيب كان قد ابتدأها بمقدمة في وصف الطبيعة ، وكان وقوفاً حافلا بنفحات عطرة تنسمها الشاعر من خلال الرموز البدوية حيث قال :-

إذا أنيتَ أثَـيـلاتِ الحـمـى فقِـفِ وعُج يميناً تجاه الروضة الأنُـفِ (١)

ولم يكن هذا التأثر مقتصراً على الشاعر ابن خاتمة ، فهذا هو ابن الخطيب يبدأ قصيدة له فيها تأثر واضح بأسلوب المشارقة وألفاظهم ، إذ يعتصره الحنين ، فيعبر فيها عن مشاعره حين هبت الريح حاملة السحب لتهيج ذكرى الزمان والمكان في مخيلته قائلا :-

نفحت فشّبت لافح التذكار والنجم نِضوُ سُرىً وقَلَّ سِفار
وأتت محملة متونَ أحادثٍ فاهت بهن مباسمُ الأزهار
هفافةً يقضي لطيفُ هبوبها بتذكر الأوطان والأوطار
لله ما هجت يا ريح الصَّبَا وقدحتِ ما بين جوانحي من نارِ
هفافةً يقضي لطيفُ هبوبها بتذكر الأوطان والأوطارِ (٢)

ولابن زمرك قصيدة مدحية يبدأها بمقدمة في وصف الطبيعة ، وهي مقدمة فيها حنين للمشرق ، وألفاظ مستقاة من بيئته مثل : عقيلة والكثيب ونجد، فها هو يقول:-

يا من يحنُّ إلى نجد ونادِيها غرناطة قد ثوت نجد بواديها
قف بالسبيكة وانظر ما بساحتها عقيلة والكثيب الفرد جاليها (٣)

---

(١) ابن خاتمة ، الديوان ، ص ٦٣ .
(٢) ابن الخطيب ، ديوان الصيب والجهام ، ص ٤٩١ .
(٣) ابن زمرك ، الديوان ، ص ٥٠٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومن مظاهر تأثر شعراء غرناطة بالمشارقة ، تسلل بعض الصور والأشعار المشـــرقية إلى أبياتهم الشعرية ، خاصة أشعارهم التي عانقت فيها الطبيعة أغراض الشعر الأخـــرى فهـــي خير دليل على ذلك (١) .

ومن الصور التي بدا فيها تأثر شعراء غرناطة بالشعر المشرقي ، وصف الروضـــيات عند كثير من الشعراء ، فهي موشاة مكسية بالورود والرياحين ، تغني بها الـــورق والحمـــائم ، ومن ذلك ما قاله ابن خاتمة في وصف الروض الجميل:-

روض وشـــته يد الإبداع فانتظـــمت فـــيه المحاســـن مـــن بدءٍ إلى طرفِ (٢)

فهو يشبه قول البحتري :-

روض كســـاه الطـــل وشـــياً مجددًا فـــأضـــــحى مقيماً للنفوس ومقعدا (٣)

وفي تشبيه المياه أنهاراً أو بحوراً بالحسام الصقيل تأثر بالبحتري ومثل ذلك ما جاء فـــي قول ابن زمرك في وصف النهر :-

والنهـــرُ كالصـــارع الصقيـــــــــل فـــي حـــلـــيـــة الـــنور يـــغـــمـــــد (٤)

وقول أبي البقاء الرندي:-

يـــســـــيل على مثل الجُمان مسلسلاً كمـــا سُـــلَّ عـــن غـــمدٍ حسامٌ مجوهرُ(٥)

ففي البيتين السابقين تأثر بقول البحتري :

---

(١) انظر الفصل الثالث من الدراسة ، ص٧٢-١١٠.
(٢) ابن خاتمة ، الديوان ، ص ٦٣ .
(٣) البحتري، أبو عبادة الوليد بن عبيد،(ت٢٨٤هـــ)٠ الديوان ،ط٣ ، ج٢ ،ص٧٤٠، (تحقيق حسن كامل الصيرفي)، دار المعارف ، مصر ، ١٩٥٥ م .
(٤) ابن زمرك ، الديوان ، ص ١٢٤ .
(٥) ابن الخطيب ، الإحاطة ، ج٣ ، ص ٣٦٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وإن سكنـــت عـــنـــه حسبَتْ صفاءه حـــســـاماً صقيلا صلفي المتن جُرّدا (١)

ومن المشاهد التي أعاد الأندلسيون تصويرها ، مشهد تفتح الأزهار ، فبعضها يتفتح في الليل وينغلق في النهار مثل الخيري ، أما النيلوفر فيتفتح في الليل وينـــغلق فـــي النهار، أيـــاً كان فالمشهد قد أثار إعجاب الشاعر الغرناطي وولد ، عنده صوراً شعرية تشبه إلى حـــد كبيـــر صور المشرقيين في نفس المشهد ، ومن ذلك قول ابن خاتمة في وصف الخيري :-

سل نفحة الخيري في غسق الدَّجـــى ما بـــألـــه لـــبـــس الـــظـــلام ردَاءَ
حقـــاً لـــعَـــمـــركَ أنـــه ذو ريْـــبـــةٍ أوْ لا فـــفـــيـــمَ يـــحـــاذِرُ الرقـــبـــاءَ ؟
كالصـــبِّ يخفـــي شـــجـــوهُ حتـــى إذا جن الظـــلام تنـــفـــس الصَّـــعـــداءَ (٢)

فهي تشبه إلى حد كبير ما قاله ابن المعتز الشاعر المشرقي في بركة نيلوفر يتفـــتح فـــي النهار ، وينغلق في الليل :-

وبـــركـــةٍ تـــزهـــو بنـــيـــلـــوفـــر ألـــوانـــه بالـــحســـن منـــعـــوتـــه
نهـــاره يـــنـــظـــر من مـــقـــلـــةٍ شـــاخـــصـــة الأجـــفـــان مبهـــوته
كـــأن كـــل قـــضـــيـــب لـــــــه يـــحـــمـــل فـــي أعـــلاه ياقـــوتـــه (٣)

ومن الصور التي أكثر منها شعراء غرناطة صورة الأزهار والنباتات ضاحكة باســـمة في مقابل صورة بكاء السحب وهطول المطر ، ومثل هذه الصورة ذكرت عند ابن خاتمـــة فـــي قوله :-

وما لثـــغـــور الـــزهـــــر تلفى بواسما إذا ما عـــيـــون الـــقطر ظلن بواكيا (٤)

---

(١) ديوان البحتري ، ج ٢ ، ص ٧٤٠ .
(٢) ابن خاتمة ، الديوان ، ص ١٢٥ .
(٣) ابن المعتز، أبو العباس عبد الله بن محمد ، (ت٢٩٦هـ)٠ الديوان ، شرح التبريزي ، ص٤٨٠، (تحقيق محمد عبده عزام)، دار صادر ، دار بيروت للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٩٦١ م .
(٤) ابن خاتمة، الديوان، ص ٢٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كما ذكرت مثل هذه الصورة في شعر المشارقة عند كشاجم الرملي ، حيث قال:-

إلـى الـروض الـذي قـد زينتـه ... شـآبـيـبُ الـسـحـائـب بالـبكاء
بكينـا عليـه فـابـتـهـجت رباه ... تـبـاهـي في زخارف نسج ماء (١)

وفي ذكر الشعراء الغرناطيين للألوان وتنوعها دليلٌ على تأثرهم بالمشارقة أيضاً ، لكن الإكثار من عنصر اللون في أشعارهم سمة تميزهم عمن سبقوهم، وقد توقفت الدراسة عند هـذا العنصر (٢) ، فهذا بيت للبحتري متشح بالألوان يقول فيه:-

من واضـح يقـقٍ وأصفـر فـاقـع ... ومضرج حسـد وأحـمـر قـاني (٣)

حتى ذكر الأنوار وألوانها فيه تأثر بقول أبي تمام :-

كسـاك من الأنوار أبـيـضُ نـاصـعُ ... وأحـمـر قـانٍ وأصـفـر فاقعُ (٤)

إن تتبع تأثر الشعراء الغرناطيين بالمشارقة أمر يمكن إثباته بكثير من الشواهد ، وهـذه الأمثلة ما هي إلا إيماء إلى سمة اصطبغ بها شعر الطبيعة في ظل بني الأحمر ، على أن الأمـر لم يقف عند هذا الحد من التأثر فقد حاول شعراء غرناطة محاكاة شعراء الطبيعـة فـي القـرن الخامس الهجري الذي شهد سطوع نجم شعر الطبيعة ، كما وكانوا ينظرون لابن خفاجـة وابـن حمديس وابن دراج القسطلي وغيرهم نظرة يملؤها الطموح للوصول إلى ما وصلوا إليـه مـن إبداع في هذا المجال .

فهذا هو ابن الخطيب يعلل مجيء نور البنفسج قبل أوانه قائلاً :-

---

(١) الرملي ،كشاجم ،(ت٣٥٠هـ)،الديوان ،ص٢٧ ، (تحقيق وشرح وتقديم خيرية محمد محفوظ)، وزارة الاعلام ، مديرية الثقافة العامة ، مطبعة دار الجمهورية ، بغداد ، ١٩٧٠ م .
(٢) انظر : ص١٢٨-١٣٢ .
(٣) البحتري ، الديوان ، ص ٦٢٦ .
(٤) أبو تمام ،حبيب بن أوس الطائي ،(ت٣٢١هـ)،الديوان ، شرح الخطيب التبريزي ، ص٣٠٦ ، (تحقيق محمد عبده عزام)،دار المعارف، مصر،١٩٦٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

قـدم البنفسـج وهو نعـم الـوارد ... قـد نـم مـنـه إلي طيـب زائـدُ
فـسألته : ما بالـه ؟ فـأجـابني : ... والحـق لا يـبـغـى عـلـيه شاهدُ
أقبلـت أطلـب من بنـان محـمـدٍ ... صلـة فـعـاد إلـي منه عائد (١)

وتبدو محاورة هذا النور وتشخيصه تأثر بمقطوعة ابن الزقاق البلنسي الذي أدار حواراً قبل ابن الخطيب مع المطر الذي كان يقيم الحد على شقائق النعمان لأنها سرقت حمـرة خـدود الحسناوات ، فقال :-

وريـاض مـن الـشقائـق أضحت ... يـتـهادى فيها نـسـيـم الـريـاح
زرتـهـا والـغـمـام يجلـد منـها ... زهـرات تـروق لـون الـراح
قـلـت : ما ذنـبـها ؟ فـقال مجيباً: ... سـرقـت حمـرة الخدود الملاح (٢)

وفي تشبيه ابن الخطيب للرمان تأثر واضح بوصف أحمد بن فرج الجياني الذي وصف ثمرة الرمان على غصنها قائلا :-

ولابسـة صـدفـاً أحـمـرا ... أتـتـك وقـد مـلـئت جـوهرا
كـأنـك فاتـحٌ حـق لـطـيـف ... تـضـمـن مـرجانـه الأحمرا (٣)

وتأثر ابن الخطيب بطريقته في تشبيه شكلها قائلاً :-

لله رمـانـةٌ قـد راق منظـرهـا ... فمثلـهـا ببـديـع الـحـسـن منعـوتُ
القشـر حق لـهـا قـد ضـمَّ داخـله ... والشَّـحـم قـطـنٌ لها والحـبّ ياقوتُ (٤)

---

(١) ابن الخطيب ، ديوان الصيب والجهام ، ص ٤٥١ .
(٢) البلنسي ، محمد بن غالب الرفاء ابن الزقاق ، (ت٥٧٢هـ). الديوان ، ص ١٢٥ ، (تحقيق إحسان عباس) ، دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٦٠ م .
(٣) المقري ، نفح الطيب ، ج ٢ ، ص ١٦ .
(٤) ابن الخطيب ، الإحاطة ، ج٣ ص ٣٧٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويمكن اعتبار أبيات ابن زمرك التي ذكرتها الدراسة في وصف الزرافة(١) مثالا واضحا على ظاهرة التأثر بالمشارقة ،فقد سبق الشاعر ابن رشيق القيرواني (٢) ابن زمرك في وصف هذا الحيوان،ويبدو تأثر ابن زمرك واضحا في تركيزه على غرابة شكل هذا الحيوان وبنيته الجسدية لكن ابن رشيق كان أكثر دقة في وصف أديمها وأكثر تنوعا في المصادر التي استقى منها صوره ، في حين انحصر المصدر عند "شاعر الطبيعة " في الطبيعة الأندلسية التي عشقها بكل جوارحه ،يقول ابن رشيق القيرواني :-

وأتتك من كسب الملوك زرافة	**شتى الصفات لونها أثناء**
وتخيرت دون الملابس حلة	**أعيت بصنعة مثلها صنعاء**
لونا كلون الذبل (٣) إلا أنه	**حلى وجزع (٤) بعضه الجلاء**
أو كالسحاب المكفهرة خططت	**فيه البروق وميضها إيماء**
أو مثلما صدئت صفائح جوشن(٥)	**وجرى على حافاتهن جلاء**
نعم التجافيف(٦) الذي ادرعت به	**من جلدها لو كان فيه وقاء(٧)**

بقي أن يذكر الواحد منا أن الإنسان لا فكاك له من محيطه الزماني والمكاني، ومن تاريخه وتراثه ، فالتأثر دليل ارتكاز متين على أرضية صلبة لولاها لما استطاع الشعراء الغرناطيون أن يصلوا للإبداع والابتكار .

---

(١) انظر الدراسة ٦٣-٦٤ .

(٢) من شعراء القرن الخامس، (ت٤٥٦هـ ،١٠٦٤م)، وهو صاحب الكتاب المشهور "العمدة في صناعة الشعروآدابه ونقده "

(٣) الذبل : جلد السلحفاة البحرية تتخذ منه الأمشاط .ابن منظور ، لسان العرب ، مادة ذبل .

(٤) الجزع : الخرز اليماني يكون فيه سواد وبياض .

(٥) الجوشن: جمع جواشن :الصدر أو الدرع

(٦) التجافيف : جمع تجفاف ، وهي آلة للحرب يُتقى بها كالدرع للفرس و الإنسان .

(٧) القيرواني ،ابن رشيق ،(ت٤٥٦هـ).الديوان ،ص٢٠ ،(تحقيق عبد الرحمن ياغي) ، دار الثقافة ، بيروت .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

و – الابتكار والتجديد:-

كان الابتكار والتجديد حاضرين في أشعار الغرناطيين، ورغم تأكيد الدراسة على أن وصف الشعراء للطبيعة مجردة ، كان يعتمد إلى حد كبير على تكرار المعنى ذاته ، إلا أن مجال الابتكار والتجديد في نسج الصورة الشعرية كان ما يزال مفتوحاً، وقد أخذ شعراء غرناطة يبتكرون وينوعون في الصور التي تصف مظاهرالطبيعة الأندلسية بدقائقها وتفاصيلها، ومن ذلك ما جاء في قصائد ابن زمرك التي يصف فيها الطبيعة ، ففيها من التنوع في الصور والألوان ما يجعل القصيدة كاللوحة الجميلة، يقول في وصف غرناطة :-

تقلدت بوشاح النهر وابتسمتْ ... أزهارها وهي حلي في تراقيها
وأعينُ النرجس المطلول يانعةٌ ... ترقرق الطلّ دمعاً في مآقيها
وافترَّ ثغرٌ أقاح من أزاهرها ... مُقبِّلا خدَّ وردٍ من نواحيها
كأنما الزهرُ في حافاتها سحراً ... دراهمٌ والنّسيمُ اللدْنُ يجبيها
حصباؤها لؤلؤ قد شف جوهرها ... والنهرُ قد سال ذوباً من لآليها (١)

وإذا تمعن الدارس في الأبيات السابقة ، وجد ميلاً كبيراً عند الغرناطيين للتفصيل في الوصف ، وإعطاء كل عنصر من عناصر الطبيعة دوراً في تشكيل المشهد الكلي للوحة .

وهذه قصيدة لابن الخطيب يصف فيها الطبيعة بصور تستوقف كل من قرأها لبراعتها وجمالها فهي قصيدة مليئة بالصور والتشبيهات التي تتجسد في الذهن كلوحة جميلة تتحرك عناصرها ، فالروض جميل أغصانه متمايلة ومتعانقة حتى إذا جاد الغيث بدت كأنها في موقف وداع مؤثر فيه من البكاء والعناق ما يؤثر في النفس :-

---

(١) ابن زمرك ، الديوان ، ص ٥٠٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والــروض تــجلو عذاره وقد لبست ... عقائــل الورق ديبــاجـــا مــن الورق
كأنــما الغصــن شــارب ثـــــمل ... بكــأس مصطــبــح فــي الأنــس معتبق
فــكــلما ارتاح هز العطف من طرب ... وجاد زهــوا بمــنــثــور مـــن الورق
كأنــمــا الــدوح والأغــصان جائلةٌ ... قد جادهــا كــل جــهــمِ الــغيم مندفقِ
أحبــةٌ راعهــا والشمــل منــتــظمٌ ... داعي الــوادع فــمــن بــاك ومعتنق (١)

ويمكن اعتبار قصيدة ابن زمرك في وصف الزرافة إحدى علامات الابتكار والتجديد في هذه الفترة ، فقد نــّم وصفه لها عن تمكنه من اللغة الشعرية ، وعن تنوع معجمه اللفظي الــذي أسعفه في هذا الوصف الدقيق ليقول :-

وأتتــكَ يا ملكَ الزمــانِ غــريــبــةٌ ... قــيدُ النواظرِ نــزهة الأبــصـــــــارِ
موشــيــةُ الأعطــافِ رائقــةُ الحُلى ... رقمتْ بدائِــعَــها يَـــدُ الأقـــــــدارِ
راقَ العيــونَ أديــمُــها فكأنّـــــهُ ... روضٌ تــفــتّــحَ عن شــقــيــق بهــارِ
ما بيــن مبــيّــضٍ وأصفــرَ فاقــع ... سال الــلّــجينُ به خلالَ نُــضـــــــارِ
يحــكي حــدائــقَ نرجسٍ في شاهِقٍ ... تنســاب فيه أراقــمُ الأنـــــهـــارِ
تحدو قــوائــمُ كالــجــذوع وفوقها ... جبلٌ أشــمٌ بــنـــورهِ مـــتـــــواري
وَسَــمتْ بجيــد مثل جــذع مــائــلٍ ... سهــل الــتــعــطّـــفِ لــيِّــن خَــوّارِ
تستشــرفِ الــجــدرانُ مــنه ترائباً ... فــكأنــما هو قـــائـــــــم بمــنــارِ
تــاهَــت بكلكلهــا وأتــلــعَ جــيدُها ... ومشــى بهــا الإعجاب مــشــيَ وقارِ (٢)

ومن مظاهر التجديد في هذا العصر توظيف وصف الطبيعة في تمجيد الخالق عز وجل، وقد توقفت الدراسة عند ابن خاتمة الذي كان من أكثر الذين نظموا قصائد في الطبيعــة لتحقيــق هذا الهدف السامي ، ففي مطولة له يسهب فيها في ذكر مظاهر قــدرة الله فــي خلقــه واصــفا الطبيعة برياضها وأزهارها وغمائمها، ثم وجه خطابه للإنسان منبها إياه على ضــرورة التفكــر في هذا الكون قائلا :-

---

(١) ابن الخطيب ، ديوان الصيب والجهام ، ص ٦٣٥ .
(٢) ابن زمرك ، الديوان ، ص ٤٣١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أما تـــتـــقي بأساً ، أما ترتجي ندىً أمـــا تنتـــهي وعظـــــاً ، لقد ظلت هازيا
إليـــك إشـــارات وعنـــك عـــبـــارة وفـــيـــك إمارات فـــلاتـــــك ساهـــيا (١)

تعد ظاهرة الإلغاز ظاهرة تميز هذا العصـــر، واللغـــز لـــون مـــن ألـــوان الصـــناعة الشعرية،وهو يركز على مخاطبة العقل من أجل تنشيط الذاكرة وتقوية التفكير، وهدف هذا النوع من الأشعار هو التفكه والدعابة واستعراض المهارات اللغويـــة ،لكـــن حظهـــا مـــن العاطفـــة ضئيل،لأنها لم تنظم لإثارة المشاعر والأحاسيس ٠

ومن أكثر الشعراء الذين ألغزوا في مواضيع عديدة ابن الجياب ، الذي ألغز في بعـــض عناصر الطبيعة الصائتة مثل النمر ، والصقر والبرغوث وقد أدرجت الدراسة هـــذه الألغـــاز ، التي كانت دليلاً قاطعاً أيضاً على تمكن شعراء هذه الفترة من لغتهم ، كما كانـــت تعكـــس ثقافـــة دينية وأدبية عند بعض شعرائهم .

ومن جملة ألغاز ابن الجياب قوله في حجلة الطائر المعروف:-

حـــاجـــيـــت كـــل فـــطـــن لـــبيب ما اســـم لأنـــثى مـــن بـــنـــي يعقوب
ذات كـــرامـــات فـــزرهـــا قـــربة فـــزورهـــا أحـــق بـــالـــتـــقريـــب (٢)

وتحتوي الأبيات على تورية لطيفة في قوله"بني يعقوب" فالمعنى القريب لليعقـــوب هـــو اسم علم ،أما المعنى البعيد وهو الموري فهو ذكر الحجل٠

إن التفاعل مع الطبيعة ليس من ابتكار شعراء غرناطة لكنهم كانوا يتفـــاعلون معهـــا تفاعلاً يصل إلى حد الالتحام ، وهذا ما يحسب لشعراء هذه الفترة من الابتكار والتجديد .

ومن أهم مظاهر التجديد عندهم أيضا أن المقدمة في وصـــف الطبيعـــة بـــدأت تنـــافس المقدمات الأخرى الغزلية و المدحية .

---

(١) ابن خاتمة ، الديوان ، ص ٣٠ ٠
(٢) المقري ، نفح الطيب ، ج٥ ،ص٤٤٣ ٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كما إن شعر الطبيعة في هذه الفترة لم يعد ينظم في مقطعات شعرية بالقدر الـذي كـان عليه من قبل ، وهذا يدل على قدرة شعراء الطبيعة على لفت النظر إلى هذا الفن الشعري الـذي أصبح لا مناص من وجوده في القصيدة الغرناطية بل لا مناص من أن تنظم القصيدة كلها فيـه ، وهذا لا يعني غياب المقطعات فقد كانت غزيرة شغف بها الغرناطيون واستطاعوا مـن خلالهـا تصوير جوانب حياتهم الأخرى .

كانت هذه هي أهم مظاهر الابتكار والتجديد التي استطاعت هذه الدراسة التوصل لهـا ، ومهما يكن فإن تتبع هذه المظاهر قد يحتاج لدراسة تتخصص في هذه الظاهرة وتبـرز أهـم جوانبها ،وتوضح ما توصل إليه شعراء غرناطة في ظل بني الأحمر من ابتكار وتجديـد فـي مجال شعر الطبيعة .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

خاتمة البحث

****

بقي هذا الحس المرهف بالطبيعة ملازماً للشعراء الأندلسيين حتى النهاية ، وتدل الدراسة على استمرارية لايمكن إنكارها لإعجاب الأندلسيين بالطبيعة واحتفائهم بها وممارسة أدق تفاصيل حياتهم بين ربوعها ، لا لمجرد أنها طبيعة تحتويهم ، وتؤطر جوانب حياتهم بل لأنها تشكل جزءا هاماً من تكوينهم الشخصي، فقد استمر ولعهم بها رغم ما مر بهم من الصعاب، وأقلق راحتهم من النزاعات و الحروب التي مرت بها غرناطة في ظل بني الأحمر،.بل يمكننا القول إن الطبيعة كانت دائما هي الطرف الأقدر على استيعابهم واحتوائهم بكل أحوالهم النفسية ، وبقي شعراء غرناطة يترسمون خطى من سبقهم من الأندلسيين في قصد الطبيعة ، والحديث عنها ، والاطمئنان إليها ، والاستفادة من العودة إليها أو إلى كثير من معطياتها في موضوعات عديدة .

لقد تمثل هذا النتاج الشعري الذي تركوه في دواوين شعراء غرناطة الذين تألق معظمهم في القرن الثامن الهجري الذي يعد من أزهى عهود المملكة في مختلف جوانبها السياسية والاجتماعية والفكرية ، إذا ما قورنت بما قبلها وبعدها من تاريخ المملكة.

ومن هؤلاء الشعراء نذكر من وقعت الدراسة على شعر الطبيعة بين طيات دواوينهم، وهم: ابن خاتمة وابن زمرك وابن الخطيب وابن الجياب وعبد الكريم القيسي وغيرهم .

إلا أن هذا الكم الذي تحصلت عليه الدراسة يعد قليلا إذا ما قورن بشعر الطبيعة في القرن الخامس الهجري الذي شهد تربع هذا الغرض الشعري على قمة هرم الأغراض الشعرية ، وقد تمثلت هذه القلة بندرة الحصول على أكثر من مقطوعة في وصف أحد عناصر الطبيعة الصامتة أو الصائتة .

وعلى الرغم من قلة شعر وصف الطبيعة فإن الشعر المرتبط بها كان يتميز بغزارته، وقد تجلى هذا الارتباط في اتجاهين، أولهما: قدرة هذا الشعر البالغة على معانقة العديد من الأغراض الشعرية الأخرى من غزل ومدح ورثاء وجهاد، مما ترك لنا شعرا غزيراً لعبت فيه

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الطبيعة دورا مهما، ورسمت صوره، وعبرت عن العواطف الكامنة فيه، وثانيهما: هو قدرة الطبيعة على التأثر والتأثير في الشعراء الغرناطيين، وفي الدراسة كثير من هذا الشعر الذي ينم عن اندماج الشعراء بالطبيعة ، أو اندماجها بهم .

وأخيراً اهتمت الدراسة بتتبع الخصائص اللغوية والأسلوبية والفنية لشعر الطبيعة في هذه الفترة، حيث بدا واضحا أن شعر الطبيعة فيها كان ما زال ينهل ألفاظه ومصطلحاته من المورد نفسه الذي كان ينهل منه الشعراء الأندلسيون ، فرقة الألفاظ ، وعذوبتها، هي الأقدر دائما على التعبير عن هذا الغرض الشعري .

أما عن ورود شعر الطبيعة عند الغرناطيين فقد اتخذ عدة أساليب منها: وروده في مقطعات مستقلة، ووروده كمقدمات لقصائد المدح والغزل والرثاء، أوقد يأتي غرضا شعريا يصل إليه الشاعر بمقدمة غزلية أو مدحية قبل إيراده أحد الأغراض السابقة، ولكن يجدر الإشارة أن وروده غرضا مستقلا في مقطعات لايعد من سمات هذا الشعر في هذه الفترة لقلته .

ومهما كان الأسلوب الذي ظهر فيه شعر الطبيعة فيمكننا القول إن شعراء غرناطة كانوا يعتمدون على خاصية التصوير الحسي في صورهم خاصة إذا ما وصفوا، إما إذا تفاعلوا مع الطبيعة فإنهم يميلون إلى تشخيصها وتجسيدها لمحاورتها والاندماج فيها ، وبالتالي فإن عمق الصورة في حالة التفاعل ، يكون له ألق يميزه عن سطحيتها في حالة الوصف المجرد.

في النهاية أرجو أن تكون هذه الدراسة جديرة باهتمام كل من يعشق الطبيعة الأندلسية، ويتتبع خطواتها بين طيات الكتب الأدبية والدواوين الشعرية ، إن هذا الجهد الذين بين أيديكم هو بداية البحث عن الطبيعة، في ظل بني الأحمر، فكلما قرأته وددت أن أبدل فيه وأضيف إليه ليغدو أكثر ألقاً وفائدة .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

قائمة المصادر والمراجع

****

- ابن الأحمر ، الأمير أبو الوليد إسماعيل بن يوسف ،(ت٨٠٧هـ)٠ **نثير فرائد الجمان في نظم فحول الزمان**، دار الثقافة للطباعة والنشر والتوزيع ، دمشق ،١٩٦٧م .
- الأخطل ، غيَاث بن غوث التغلبي ، (ت٩٢هـ) . **الديوان** ، (نشر الأب أنطون صالحاني اليسوعي) ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ، ١٨٩١م .
- أرسلان ، الأمير شكيب ، **الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية** ، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت ، ١٣٥٥هـ.
- الأصفهاني ، أبو عبد الله عماد الدين ، (ت٥٩٧هـ) . **خريدة القصر وجريدة العصر** ، قسم شعراء صقلية والمغرب والأندلس ، م٢، (تحقيق عمر الدسوقي، وعلي عبدالعظيم). دار نهضة مصر ، مطبعة الرسالة ، القاهرة ، ١٩٦٤م .
- الأعشى ، أبو بصير ميمون بن قيس الأعشى ، (ت٧هـ) . **الصبح المنير في شعرأبي نصير: ميمون بن قيس الأعشى والأعشيين الآخرين** ، دار ابن قتيبة، الكويت ،١٩٩٣م.
- امرؤ القيس ، ابن حجر الكندي ، (١٣٠ق٠م) . **الديوان** ، (تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم) ، دار المعارف ، مصر ، ١٩٥٨م.
- أمين ، أحمد ، (١٩٦٩م) . **ظهر الإسلام** ، ط٣، بيروت : دار الكتاب العربي ٠
- بالنثيا ، آنخل ، (١٩٥٥م) . **تاريخ الفكر الأندلسي**، ترجمة حسين مؤنس مطبوع، القاهرة : مكتبة النهضة العربية.
- البحتري ، أبو عبادة الوليد بن عبيد ،(ت٢٨٤هـ) ٠ **الديوان** ، دار الكتب العلمية ، دار الجيل، ١٩٥٥م.
- بروفنسال ، ليفي ، (١٩٥١م) . **سلسلة محاضرات عامة في أدب الأندلس وتاريخها** ، (ترجمة محمد عبد الهادي شعيرة) ، القاهرة : المطبعة الأميرية.
- بروكلمان ، كارل (١٩٦٨م) .**تاريخ الشعوب الإسلامية** ، ط٥ ، (ترجمة نبيه فارس منير وبعلبكي ، بيروت : دار العلم للملايين ٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- ابن بطوطة ، محمد بن عبد الله ، (ت٧٧٩هـ) . **رحلة ابن بطوطة** ، ط١ ، (تحقيق طلال حرب) ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٨٧م.
- البكري ، أبو عبيد بن عبد العزيز ، **المسالك والممالك** ؛ جغرافية الأندلس وأوروبا ، (تحقيق عبد الرحمن علي الحجي) ، دار الإرشاد ، بيروت ، ١٩٦٨م.
- البلنسي ، ابن الزقاق ، (ت٥٢٨هـ) ٠ **الديوان** ،(تحقيق عفيفة محمود ديراني) ، دار الثقافة ، بيروت ،١٩٧٨م٠
- تاويت ، محمد ، (١٩٨٣م). **الوافي في الأدب العربي في المغرب الأقصى**، ط١، الدار البيضاء : دار الثقافة.
- أبو تمام ،حبيب بن أوس الطائي ، (ت٣٢١هـ)٠**الديوان** ، شرح التبريزي ، (تحقيق محمد عبده عزام) ، دار صادر، دار بيروت للطباعة والنشر ، بيروت ،١٩٦١م.
- التنبكتي ، أبو العباس أحمد بابا الصنهاجي السوداني ،(ت١٦٢٧م)٠ **نيل الابتهاج بتطريز الديباج** ، ط١، طبع عباس بن عبد السلام بالقحامين ، مصر ، ١٣٥١هـ .
- التنسي ، أبو عبد الله محمد بن عبدالله ، (ت ٨٩٩هـ)٠ **نظم الدرر والعقيان في شرف بني زيان** ، (تحقيق نورى سودان) ، مطبعة فرانس شتاينر ، فسبادن ، ١٩٨٠ م .
- الثعالبي، أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل ، (ت٤٢٩هـ) ٠**يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر**، ط٢، (تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد) ، دار الفكر، بيروت ، ١٩٥٦م .
- الجاحظ ، أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الكناني ، (ت٢٥٥هـ) . **البيان والتبيين**، ط١ ، (تحقيق عبدالسلام هارون) ، مكتبة الخانجي ، مصر ، ١٩٦٠م .
- الجاحظ ، أبو عثمان عمرو بن بحر الكناني ، (ت٢٥٥ هـ)٠**الحيوان** ، ط٢، (تحقيق وشرح عبد السلام هارون) ، مكتبة ومطبعة البابي الحلبي ، مصر ، ١٩٦٥م .
- ابن جبير ، محمد بن أحمد ، (ت٦١٤هـ) . **رحلة ابن جبير** ، ط٢ ، دار صادر دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت ، ١٩٦٤م.
- جرار، صلاح ، (١٩٩٩ م)٠ **ديوان الحمراء** ، ط١، بيروت : المؤسسة العربية للدراسات والنشر ٠
- الجرجاني ، عبد القاهر ، (ت ٤٧٤ هـ) . **دلائل الإعجاز** ، (تحقيق محمد رشيد رضا) ، دار المعرفة ، بيروت ،١٩٨١م .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- الجرجاني ،علي عبد العزيز القاضي ، (ت٣٦٦هـ) ٠**الوساطة بين المتنبي وخصومه**، (تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم وعلي محمد البجاوي) ، طبع عيسى البابي الحلبي، القاهرة ، ١٩٥١ م.
- ابن الجياب، أبو الحسن علي بن محمد ،(ت٧٤٩هـ). **الديوان** ، رسالة ماجستير، غير منشورة ، الجامعة الأردنية ،عمان ، الأردن ، ١٩٨٣م.
- حتاملة ، محمد عبده ، (١٩٧٧م) . **محنة مسلمي الأندلس عشية سقوط غرناطة وبعدها** ، عمان : مطابع دار الشعب.
- الحجاجي ، حمدان ، (١٩٨٤م) . **حياة وآثار ابن زمرك " شاعر الحمراء"** ، الجزائر : ديوان المطبوعات الجامعية.
- الحجَي ، عبد الرحمن علي ، (١٩٦٨م) . **التاريخ الأندلسي من الفتح حتى سقوط غرناطة** ، ط٣ ، دمشق : دار القلم.
- حسن ، رشدي علي ، (١٩٨٨م) . **شعر الطبيعة في العصر العباسي الثاني** ، ط ، بغداد : دار عمَار.
- حسين ، طه وآخرون ، (١٩٤٠م) ٠كتاب **التوجيه الأدبي** ، القاهرة : لجنة التأليف والترجمة.
- حفني ، عبد الحليم ، (١٩٨٧م) . **شعر الصعاليك منهجه وخصائصه** ، القاهرة : الهيئة المصرية العامة.
- الحموي ، ياقوت أبو عبد الله الروحي البغدادي ، (ت٦٢٦هـ) . **معجم البلدان** ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٧٦م.
- الحميري ، محمد بن عبد المنعم ، **الروض المعطار في خبر الأقطار** ، طبعة لجنة التأمين والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٣٧م.
- الحميري ، محمد بن عبد المنعم ، **صفة جزيرة الأندلس** ، منتخبة من كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار ، ط٢، (نشر وتصحيح لافي بروفسال) ، دار الجيل ، بيروت ، ١٩٨٨م.
- ابن خاتمة، أحمد بن علي ، (ت٧٧٠ هـ) . **الديوان** ، ط١، (تحقيق محمد رضوان الداية) ، دار الفكر المعاصر ، بيروت ، دار الفكر، دمشق ،١٩٩٤م.
- ابن خاقان ، الفتح بن محمد بن عبد الله ، (ت٥٢٨هـ) . **قلائد العقيان في محاسن الأعيان** ، القاهرة ، ١٣٢٠هـ٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- خضر ، حازم عبد الله ، (١٩٨٧م)٠ **وصف الحيوان في الشعر الأندلسي** ، عصر الطوائف والمرابطين ، بغداد : دار الشؤون الثقافية العامة ٠
- ابن الخطيب ، لسان الدين ، (٧٧٦م) . **الإحاطة في أخبار غرناطة** ، ط٢ ، (تحقيق محمد عبد الله عنان) ، الشركة المصرية للطباعة والنشر ، مصر ، ١٩٧٣م.
- ابن الخطيب ، لسان الدين ، (ت٧٧٦هـ) . **اللمحة البدرية في الدولة النصرية** ، ط٣ ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، ١٩٨٠م.
- ابن الخطيب ، لسان الدين ، (ت٧٧٦هـ)٠**أوصاف الناس في التواريخ والصلات** ، (تحقيق محمد كمال شبانة) ، مطبعة فضالة المحمدية ، المغرب ، ١٩٧٧ م.
- ابن الخطيب ، لسان الدين ، (ت٧٧٦هـ)٠ **أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام وما يجر ذلك من شجون الكلام** ، (تحقيق ليفي بروفنسال) ، دار المكشوف ، بيروت ، ١٩٥٦م.
- ابن الخطيب ،لسان الدين ،(ت٧٧٦هـ)٠ **ديوان الصيب والجهام والماضي والكهام** ، ط١، (تحقيق محمد الشريف قاهر) ، الشركة الوطنية للنشر، الجزائر.
- ابن الخطيب ، لسان الدين ، (ت٧٧٦هـ)٠ **نفاضة الجراب** ،(تحقيق أحمد مختار العبادي) ، دار الكاتب العربي ، القاهرة ، ١٩٦٨م٠
- ابن الخطيب ، لسان الدين ، (ت٧٧٦هـ)٠ **معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار**، (تحقيق محمد كمال شبانة) ، طبع الكتاب تحت إشراف اللجنة المشتركة لنشر التراث الإسلامي بين المملكة المغربية ودولة الإمارات العربية المتحدة ، مطبعة فضالة المحمدية ، المغرب ، ١٩٧٧م.
- خفاجي ، محمد عبد المنعم ، (١٩٥٦م) . **قصة الأدب في الأندلس** ، ط١ ، القاهرة : المطبعة المنيرية بالأزهر.
- ابن خلدون ، عبد الرحمن بن خلدون المغربي ، (ت٨٠٨هـ)٠ **العبر وديوان المبتدأ والخبر**، ط٣ ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، ١٩٦٦م.
- ابن خلدون ، عبد الرحمن بن خلدون المغربي ، (ت٨٠٨هـ)٠**مقدمة ابن خلدون** ، **المكتبة التجارية** ، القاهرة ٠
- خليف ، يوسف ، (١٩٥٩م) . الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي ، مصر : دار المعارف.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- خليفة ، حسن ، (١٩٣٧م)٠ **تاريخ العرب في إفريقية والأندلس**، القاهرة : مطبعة مصر.
- الداية ، محمد رضوان ،(١٩٨١م)٠أبو البقاء الرندي شاعر رثاء الأندلس ، دمشق : مطبعة خالد بن الوليد ٠
- الدقاق ، عمر ، (١٩٧٥م) . **ملامح الشعر الأندلسي** ، بيروت : دار المشرق.
- الدمياطي ، مصطفى ، (١٩٦٥م)٠ **معجم أسماء النبات** ، مصر : الدار المصرية للتأليف والترجمة ٠
- الدميري ، كمال الدين محمد بن موسى ، (ت٨٠٨هـ)٠ **حياة الحيوان الكبرى** ، مطبعة البابي الحلبي ، القاهرة ، ١٩٥٦م ٠
- الدهان ، سامي ، (١٩٦٣م) . **الوصف** ، مصر : دار المعارف .
- الدينوري ، أبو حنيفة أحمد بن داود ، (ت٢٨٢ هـ)٠**كتاب النبات** ، (تحقيق برنهارد لفين) ، دار القلم ، بيروت ،١٩٧٤م ٠
- رحيم ، مقداد ، (١٩٨٦م)٠**النوريات في الشعر الأندلسي** ، ط١، بيروت : عالم الكتب.
- الركابي ، جودة ، (١٩٦٠م) . في الأدب الأندلسي ، مصر : دار المعارف.
- الرملي ، كشاجم ، **الديوان** ، (تحقيق وشرح خيرية محمد محفوظ) ، وزارة الإعلام ، مديرية الثقافة العامة ، مطبعة دار الجمهورية ، بغداد ، ١٩٧٠ م.
- أبو ريان ، محمد علي ، (١٩٦٤م)٠ **فلسفة الجمال ونشأة الفنون الجميلة**، الإسكندرية: الدار القومية للطباعة والنشر..
- زمامة ، عبد القادر، (١٩٧٦م)٠ **بنو الأحمر في غرناطة ، مجلة البحث العلمي**، الرباط، ١٣ (٢٦) ٠
- ابن زمرك ، محمد بن يوسف ، (ت٧٩٧هـ) . **الديوان** ، ط١، (تحقيق محمد توفيق النيفر) ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ١٩٩٧م٠
- ابن زيدون ، أحمد بن عبد الله بن زيد المخزومي ، (ت٤٦٣هـ) . **الديوان**، ط٣ ، (شرح وتحقيق محمد سيد كيلاني) ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده ، مصر ، ١٩٦٥م ٠
- السائح ، الحسن بن محمد ، (١٩٨٧م)٠ **منوعات ابن الخطيب** ، المملكة المغربية: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- سالم ، السيد محمود عبد العزيز، (١٩٥٨م) . **المساجد والقصور الإسلامية**، مصر: دار المعارف.
- السامرائي ، إبراهيم ، (١٩٨٤م) . **لغة الشعر**، عمان : دار الفكر.
- السجلماسي ،أبو محمد القاسم بن عبد العزيز ، **المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع** ، (تحقيق علال الغازي) ، مكتبة المعارف ، الرباط ،١٩٨٠م.
- السخاوي ، شمس الدين محمد بن عبد الرحمن ، (ت ٩٠٢هـ)**٠الضوء اللامع لأهل القرن التاسع** ، مكتبة القدسي ، القاهرة ، ١٣٥٤ هـ.
- سرميني ،محمد وليد ، **خصائص الشعر الأندلسي في عصر غرناطة** ، رسالة ماجستير،غير منشورة ، جامعة حلب ،دمشق ، سوريا ، ١٩٨٦م.
- سعد ، الأب بولس ، (١٩٥٢م) . **تأثير الطبيعة في الخلق الفني** ، **مجلة الكتاب المصرية**، ١١ (٧) .
- ابن سعيد ، نور الدين أبو الحسن علي بن موسى المغربي، (ت٦٨٥هـ) . **المغرب في حُلى المغرب** ، ط٣ ، (تحقيق شوقي ضيف) ، دار المعارف ، مصر، ١٩٦٤م.
- سيديّو ، ل٠أ ، (١٩٤٨م) **٠تاريخ العرب العام** ، ترجمة عادل زعيتر ، بيروت : دار إحياء الكتب العربية ٠
- السيوطي، عبد الرحمن بن أحمد المنهاجي ،(ت٩١١هـ)٠ **بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة** ، ط٢ ، (تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم) ، دار الفكر ، القاهرة ، ١٩٧٩ م.
- الشكعة ، مصطفى ، (١٩٨٦م) ، **الأدب الأندلسي** ؛ موضوعاته وفنونه ، ط٦ ، بيروت : دار العلم للملايين.
- الشكعة ، مصطفى ، (١٩٥٨م) . **فنون الشعر في مجتمع الحمدانيين** ، فصل الطبيعة ، مصر : مكتبة الأنجلو المصرية ، مطبعة المعرفة.
- شلبي ، سعد إسماعيل ، (١٩٧٨م). **البيئة الأندلسية وأثرها في الشعر** ، عصر الملوك الطوائف ، القاهرة : دار نهضة مصر ، الفجالة .
- الطرابلسي ،حسناء بو زويته ،(٢٠٠١م)**٠حياة الشعر في نهاية الأندلس** ، تونس : دار محمد علي الحاجي ، صفاوة مركز النشر الجامعي ٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- الطـــوخى ، أحمد محمد ،(١٩٩٦م) . **مظاهر الحضارة في الأندلس فـــي عصـــر بنـــي الأحمر**، الإسكندرية : مؤسسة شباب الجامعـــة.
- عبـــاس ، إحسان وآخرون ، (١٩٧٦م). **دارسات في الأدب الأندلسي** ، ليبيا ، تـــونس : الدار العربية للكتاب.
- عتيق ،عبد العزيز ، (١٩٧٦م), **الأدب العربـــي فـــي الأنـــدلس** ، ط٢ ، بيـــروت : دار النهضة العربية.
- العسقلاني ، أحمد بن حجر، (ت٨٥٢هـــ)٠ **الدرر الكامنة في أعيان المئـــة الثامنـــة** ، (تحقيق محمد سيد جاد الحق) ، دار الكتب الحديثة ، القاهرة ٠
- العلوي ، محمد بن طباطـــبا ٠**عيار الشعر** ، (تحقيق عباس عبد الســـتار) ، دار الكتـــب العلمية ، بيروت ،١٩٨٢ م.
- العمري ،ابن فضل الله ، (ت٧٥٥هـــ) . **مسالك الأبصار وممالـــك الأمصـــار** ، ط١ ، (تحقيق مصطفى أبو ضيف أحمد) ، مطبعة النجاح الجديدة ، الدار البيضاء ، ١٩٨٨م.
- عنان ، محمد عبد الله ،(١٩٦١م)٠ **الآثار الأندلسية الباقية في اســـبانيا والبرتغـــال** ، ط٢، ص ١٤٤ ، القاهرة : مؤسسة الخانجي.
- عنان ، محمد عبد الله ، (١٩٧٦م) ٠**أبو البقاء الرندي : شاعر رثاء الأندلس** ، بيروت : مؤسسة الرسالة ٠
- عنان ، محمد عبد الله ، (١٩٣٠م) . **ديوان التحقيق والمحاكمات الكبـــرى** ، القـــاهرة : مطبعة دار الكتب المصرية.
- عنان ، محمد عبد الله ، (١٩٨٧م). **نهاية الأندلس و تاريخ العرب المتنصـــرين** ، ط٤، القاهرة : مكتبة الخانجي ، مطبعة المدني.
- أبو عودة ، نادية ، (١٩٩٥م) . **وصف الطبيعة في الشعر الأندلسي في عصر الخلافة**، رسالة ماجستير ، غير منشورة ، الجامعة الأردنية ، عمّان ، الأردن.
- الغزال ، أحمد بن مهدي ، (ت١١٩١هـــ) . **نتيجة الاجتهاد فـــي المهادنـــة والجهـــاد**، (تحقيق إسماعيل العربي) ، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ١٩٨٤م.
- الفاسي، علي بن أبي زرع ، **الأنيس المطرب بروض القرطاس** ، دار المنصور للطباعة والوراقة ، الرباط ، ١٩٧٢م.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- فرحات ،يوسف شكري ،(١٩٨٢م)٠ **غرناطة في ظل بنـــي الأحمـــر** ، ط١ ، بيـــروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع.
- ابن فرحون ، برهان الدين إبراهيم بن علي ، (ت٧٩٩هـــ)٠**الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب** ، (تحقيق محمد الأحمدي أبو النور) ، نشر دار التراث ، القاهرة.
- الفرزدق ، أبو فراس همام بن غالب التميمي ،(ت١١٠هـــ)٠**الـــديوان** ، دار صـــادر، بيروت ، ١٩٦٦ م.
- ابن فركون ، أبو الحسين ، **مظهر النور الباصـــر في أمداح الملك الناصـــــر**، إعـــداد محمد بن شريف ، سلسلة دواوين غرناطة ، المغرب ، ١٩٩١م.
- القزويني ، زكريا بن محمد بن محمود ، (ت١٢٨٣م) . **آثار البلاد وأخبار العباد** ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٦٠م.
- القلقشندي، أبو العباس أحمد بن علي ،(ت٨٢١هـــ)٠ **صبح الأعشى في صناعة الإنشا** ، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي بمصر ، القاهرة ، ١٩٦٣م.
- القيرواني ، ابن رشيق ، (ت٤٥٦هـــ)٠**العمدة في محاسن الشعر ونقده** ، ط٣، (تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد) ، المكتبة التجارية ، مصر، ١٩٦٥م.
- القيسي ، نوري حمودي ، (١٩٦٤م) . **الطبيعة في الشـــعر الجـــاهلي** ، ط١ ، بغـــداد : منشورات النهضة.
- ابن الكتاني ، أبو عبد الله الطبيب ، (ت٤٢٠هـــ)٠**التشبيهات من أشعار أهل الأندلس** ، (تحقيق إحسان عباس) ، دار الثقافة ، بيروت ، تاريخ المقدمة ١٩٦٦م٠
- مبارك ، زكي، (١٩٣٥ م) ٠**المدائح النبوية في الأدب العربـــي** ، القـــاهرة : مطبعـــة مصطفى البابي الحلبي ٠
- مجهول ، **نبذة العصر في انقضاء دولة بني نصر** ، ط١،(تحقيق محمد رضوان الداية) ، دار حسان للطباعة والنشر ، دمشق ، ١٩٨٤م ٠
- المراكشي ،ابن عذارى أبو عبد الله أحمد بن محمد ، (ت٦٩٥هـــ)٠ **البيان المغرب فـــي أخبار الأندلس والمغرب** ، (تحقيق ومراجعة كولان وليفي بروفنسال) ، دار الثقافة ، بيروت.
- مصطفى ، عدنان صالح ،(١٩٨٧م)٠ **في الشعر الأندلسي** ، ط١، بيروت : دار الثقافة٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- ابن المعتز، أبو العباس عبد الله بن محمد ، (ت٢٩٦هـ)٠ الديوان ، شرح التبريزي، (تحقيق محمد عبده عزام) ، دار صادر، دار بيروت للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٩٦١م٠
- المقري ،شهاب الدين أحمد بن محمد ، (ت١٠٤١ هـ)٠**أزهار الرياض في أخبار عياض** ، (تحقيق مصطفى السقا وآخرين) ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، مصر، ١٩٣٩م.
- المقري ، شهاب الدين أحمد بن محمد ، (ت١٠٤١هـ) . **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب** ، ط١ ، (تحقيق إحسان عباس) ، دار صادر، بيروت ، ١٩٦٨م.
- الملائكة ، نازك ، (١٩٧١م). **الشاعر واللغة ، مجلة كلية الآداب البيروتية** ، (١٠) ٠ص١٨-٢٢ .
- منصور، حمدي محمود ، (٢٠٠٣م) . **الطبيعة في الشعر الأندلسي في عصر المرابطين** ، ط١، عمّان : دار الجوهرة.
- ابن منظور ، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ، (ت٧١١هـ) . **لسان العرب** ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٥٦م٠
- الناصري ، أبو العباس أحمد السلاوي ، (ت١٨٩٧هـ)٠ **الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى** ، (تحقيق جعفر ومحمد الناصري) ، مطبعة دار الكتاب ، الدار البيضاء ،١٩٦٥م.
- نوفل ، سيد ، (١٩٣٦م)٠ **شعر الطبيعة في الأدب العربي** ، مصر : دار المعارف.
- الهاشمي ، أحمد ، (١٩٨٦م). **جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع** ، ط١٢ ، بيروت : دار الفكر.
- يازجي ،سراب ،(١٩٩٢م) . **الغزل في الشعر الأندلسي في ظل بني الأحمر**، رسالة دكتوراه ، غير منشورة ، جامعة دمشق ، دمشق ، سوريا.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

THE NATURE IN THE ANDALUSI POETRY

DURING THE REIGN OF BANI AL-AHMAR

BY

Nadia Saleh Rashid Abu Odeh

Supervisor

Dr. Hamdi Mahmoud Mansour

Abstract

This study has traced the nature in the Andalusi poetry during the reign of Bani Al-Ahmar, showed its ability to interact with the other poetry purpose, as well as paying attention to all of style and artistic aspects for the privacy of this poetry and the most creative and renovation features within this poetry.

This study consists of an introduction and four chapters:

The introduction handles the most important stages of which the nature poetry passed through. This presentation begins with the Jahili poetry and end with the targeted period (the study). In addition, it examined the most developments in terms of style and language, that took place its beginnings till its independence as an art.

The first chapter examined the natural, political, social, architectural and ideological conditions for Al-Andalus during the reign of Bani Al-Ahmar, due to the direct and indirect influence of these conditions on the nature poetry in this period.

The second chapter handled the aspects of the silent and salient nature to be expressed through short and long poems. In addition, this chapter included a trace for these aspects separately or coherent with all of the nature aspects around it.

The third chapter dealt with the nature poetry while being mixed with other poetry purposes, and showed the role of nature in enriching all of these purposes.

However, the forth chapter the artistic structure and the linguistic styles used by the Granada poets in the nature poetry during Bani Al-Ahmar reign.

The study concluded with a set of results such as:

- The fondness of the Granada poets of the nature poetry despite wars, struggles and instability in Andalus during this period.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- The shortage of this poetry when compared with the nature poetry in the fifth Higra century, which witnessed the domination of nature on the summit of the poetic purposes.

- the lack of nature description compared with the fertile poetry related with the ability of the nature poetry in dealing with the most poetic purposes and being coherent with life details.

- The nature poetry was applied by the Granada poets in separate prose and sometimes came as an introduction for the praise, love and lamentation poems, to compete with the love and praise poetry introductions.

- The nature poetry was able to attract the peoples' attention, and it became vital to have its existence as there were complete poems written for this purpose.

- The Granada poets when describing the nature relied on the sense photographing during the description of its aspects, whereas when they interact with it, then they would tend to personalize and embody their aspects and become coherent with them.

- The poetic picture with the Granada poets is so deep so that it touches the minds and gets deep during the interaction process, while in the abstract description case, then the picture would come on the surface sense and tend to the abstract description.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الجامعة الأردنيـــة
كلية الدراسات العليا

التاريخ: / /

نموذج رقم (٢٥)
تسليم اطروحة دكتوراة جامعية للمكتبة

الدكتور مديـر المكتبـة

تحية طيبة وبعد،،،

لقد ناقش الطالب / الطالبة: ....نادية صالح راشد أبو عجوة.... ورقمه الجامعي: ..٩٠٣٠٨٠..

تخصص الدكتوراة: .....اللغة العربية وآدابها.....

يوم: .....الثلاثاء..... الموافق: ٩ / ١ /٢٠٠٧ وكانت النتيجة ناجحا.

عنوان الاطروحة (باللغة التي كتبت بها الاطروحة)

.....الطبيعة في الشعر الأندلسي في ظل بني الأحمر.....

.....

.....

نرجو استلام النسخة الورقية التي تمت الموافقة عليها في صيغتها النهائية من قبل المشرف ولجنة المناقشة، ونسخة من الرسالة على القرص المضغوط (CD)، وذلك لإيداعها في المكتبة حسب الأصول.

وتفضلوا بقبول فائق الاحترام،،،

المشرف	رئيس قسم التخصص أو نائب رئيس لجنة الدراسات العليا في كلية التخصص	نائب عميد كلية الدراسات العليا
التوقيع.....	التوقيع.....	التوقيع.....
التاريخ: / /	التاريخ: ١٥/ ١/ ٢٠٠٧	التاريخ: ١٨/ ١/ ٢٠٠٧

تعتمد كلية الدراسات العليا
هذه النسخة من الرسالة
التوقيع..... التاريخ ٢٨/١/٢٠٠٧

مواصفات الاقراص المدمجة الخاصة بالرسائل الجامعية

- ان يضم القرص المدمج كافة المعلومات الواردة في النسخة الورقيه من الرسالة وذلك ضمن ملف واحد.
- ان يكون ترتيب الرسالة على القرص حسب ترتيب النسخة المطبوعة ورقيا.
- ان يحتوي القرص على صورة (save as jpg) عن اجازة الرسالة موقعة وموثقة من اعضاء لجنة المناقشة ومعتمدة من قبل الجامعة.
- تخزين الرسالة في ملف آخر على شكل (Acrobat reader PDE) لتسهيل تفعيل الرسالة على شبكة الانترنت ضمن قاعدة الرسائل الجامعية كاملة النص.

علما أنه لن يكون بالامكان توثيق أي رسالة غير مطابقة للمواصفات المذكورة أعلاه.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit